شقة جاردن سيتي

رواية

فاطمة طلال

بعض أحداث الرواية مستوحاة من الواقع..

إهداء

إلى تلك القلوب التي ماتت قبل أن تذوق شهد الحب في الوقت المناسب..

إلى هؤلاء الذين أفنوا العمر في سراديب الضياع..

إلى كل روح جازفت بالمستحيل لتقبض على جمر «الممكن»..

إلى حكايا الشتاء العتيق، الخالدة في الذاكرة..

إلى همسات الربيع القابعة في زقاق الحب..

هنا والآن ستَرون بين بضعة سطور الرواية، الحب في حياة «البعض» ماذا كان وكيف سيكون...

شُكر خاص

إلى إدارة كافيه «شقة جاردِن سيتي» على التعاون والموافقة بأن تحمل الرواية نفس اسم الكافيه.

(١)

«خالد، إليانا»

دقّ جرس المنبه وصحوت كعادتي كل صباح لأذهب إلى العمل، نظرت بجانبي وإذ بي لا أجد «إليانا» نائمة.. اندهشت فأنا أعلم أنها لا تصحو مبكرًا ولكني لم أكترث كثيرًا! لربما تسهر على أحد الأفلام التركية التي باتت مؤخرًا موضة لجميع النساء الفارغات! ليس لدي وقت كثيرٌ لأفكر في هراءاتها، عليّ أن أنهض.. ذهبتُ إلى الحمّام لأغسل وجهي لأرى الحبوب المهدئة منثورة في حوض الحمّام.. تجمدت عروقي ذعرًا وركضت أبحث كالمجنون عن «إليانا» لأراها ملقاة أرضًا.. جسدها بارد وعروقها الزرقاء ترقص بكل وقاحة أمام مرآي، تثير جنوني وحماقاتي.. مسكت يدها وحاولت أن أستشعر نبضها وحمداً للّه وجدت نبضًا يسري بها.. حملتها سريعًا وركضت بها إلى أقرب مشفى وهناك قاموا بعمل اللازم لها.. المرة الثالثة التي تحاول فيها الانتحار! وصل يأسي إلى حد الذروة.. مللت وسئمت من محاولاتي معها، بتُّ أخشى الشجار معها خوفًا من أن أصحو اليوم التالي على خبر وفاتها انتحارًا.. ميولها تلك تمزقني كل ليلة.. هل جربتم الحياة مع شخصٍ لا يبالي بك ولا يبالي بالحياة برمّتها! هل جربت أن تحبس أنفاسك كل

ليلة ارتياعًا من المستقبل؟ أن تعيش حياتك مع إنسان في أقرب فرصة قد تجده اختار أن ينسحب من العالم فجأة! إنسان جلس يفكر بعقل معتوه، نصف إدراكه عليل والنصف الآخر يسبح في ملكوت مريض، تقتات الأفكار العفنة عليه لينهض بكل برود وينهي حياته في ثوانٍ.. ينهيها دون أن يعي ماذا سيفعل بقلوب تسكن حوله.

أحببتها حين كنا بالجامعة، من بين سِرب الفتيات الطويل جذبتني هي واستطاعت أن تذيب كل حواس عقلي، فتقربت إليها ثم اكتشفت الحقيقة المفجعة! من أحببتها تعاني من ميول انتحارية، لم أستطع حتى وقتي هذا أن أعرف أسبابه ولا الحلول التي تستطيع أن تجعلني أنتشلها من تلك البؤرة المخيفة الواقعين بداخلها منذ سنوات.. في البداية قدّرت حجم الصدمة، وقفت بجانبها وأكدت لها بأني سأكون الحياة برمّتها لها.. كانت كالجثة التي تلتقط أنفاسها من حينٍ لآخر.. وعي مشوش وغير مدرك بنصف الأشياء التي تدور من حولها.. تلك الفتاة الرقيقة بداخلها كائن يملؤه السواد و يحتل أرجاءه دون رحمة ودون شفقة.. ترفض الحياة رغم وجودي معها فقررت أن أسرع بزواجنا لأحتويها أكثر.. لم تكن كأي عروسٍ متشوقة وتُعد ترتيبات زفافنا.. بل أنا من أعددت كل شيء! اخترت كل

شيء وحدي! حتى ثوب زفافها لم تبالِ باختياره وكأني أرغمها على الزواج! سألتها يومًا:

– هو انتِ بتحبيني يا إليانا؟

نظرت لي بمقلتيّ تكاد تميزني بصعوبة:

– طبعًا، وإلا مكنتش وافقت على جوازنا.

– طيب ليه مش حاسس بفرحتك؟

صمتت قليلًا، وشعرت بكل ثانية كأنها سكين تنحر شريان من شرايين انتظاري ثم أجابت ببرودٍ:

– هو أنا مش عارفة شعور الفرح ده عامل إزاي أوي؟ أنا تقريبًا مش فاكرة إمتى آخر مرة فرحت فيها من قلبي؟ هو أنا إمتى آخر مرة أصلًا ضحكت من قلبي بجد؟

– حبيبتي، أنا عارف وحاسس بيكِ، بس إيه رأيك نروح لدكتور سوا؟

قاطعتني بحدة:

– أنا ما اتجننتش على فكرة عشان أروح لدكاترة! كون بقى إنك مش مقدّر مشاعري فَدي مشكلتك انت مش مشكلتي أنا!

– أنا ما أقصدش على فكرة، كل الموضوع إني حاسس إن حزنك واخدك من كل الناس اللي حواليكِ! حزنك واخدك من نفسك حتى.

– لو كلامك ده صحيح ما كنتش وافقتك على التاريخ اللي حددت فيه جوازنا.

– أيوه بس أنا اللي لوحدي بعمل كل حاجة اللي المفروض إنتِ اللي تكوني بتتحايلي عليّا إني أشاركك فيها وانتِ بتعمليها..

– لو حاسس إني بقيت عبء وضغط عليك، سيبني يا خالد.

– ما بقولش كده عشان ده يكون ردّك، أنا بس عايز أحس إنك معايا.. إنك هتتجوزيني! مش إني بتجوز نفسي! وعلى العموم أنا آسف لو ضايقتك بكلامي، ده بس من حبي وخوفي عليكِ وأكيد كل حاجة بعملها بتفرحني لأني نِفسي اليوم اللي نبقى فيه على طول مع بعض يجي بسرعة.

– كويس إنك خدت بالك إنك حقيقي ضايقتني.

من يجلس معنا، يظن بأنني أجبرتها على الزواج بي، يظن بأنها تتنصل مني، لا تريدني ولا تحبني! ولكن هذا هو مقدار حبها. وكأن قلبها توقّف عن

نبض المشاعر منذ زمن. وأن القلب الساكن بداخلها لا ينبض سوى لتعيش. تزوجتها لأصحو بعد ليلة زفافنا على سائل رطب ساخن، لزج يزعجني من نومي العميق.. فتحت عينيّ بصعوبة لأجدها غارقة في دمائها وشريان من شرايينها ينثر كل ما في جوفه من دم! هول المنظر جعلني أتساءل: هل اقتحمَ لصٌّ منزلنا وقتلها! أم هاجمنا قاتل محترف وأنا في غيبوبة نومي وذبح عروس صباح أول ليلة زفاف لها! وحين استوعبت أنها تنزف حاولت أن أكسر جليد ذعري وركضت بها إلى المشفى لأدرك أن حبيبتي الوحيدة قررت أن تنهي حياتها بكل برودٍ وبدون رحمة ولا شفقة بي في أول يومٍ لنا سويًّا!!

****

أسمعهم بين الحين والآخر منذ زمن قديم يتجادلون حول ما أصابني.. اجتماعات ونقاشات كثيرة ومائدة حديث عريضة لا ينضب ما فوقها من خبراتهم السئيمة حول الحياة وحكاياتها وقصصها التي تشبه حكايتي! وبتُّ فجأة وكأني من كوكبٍ آخر!! كائن شفرات التعامل معه أُلقيت في عرض البحر.. يتعجبون من رفضي للحياة؟! ولماذا أحبها؟ وماذا يبقيني وقد فقدتُ «شهيتي» لحياتهم تلك.. يوميًّا أغفو وذرات القلق تبحر داخلي، وأفيق على ترانيم التوتر داخل قوقعة أذنيّ، تصرخ كيفما

شاءت وتعيث فساداً في صحوتي وتركيزي.. أنظر كثيراً في أعينهم وأحاول أن أبقيهم معي، ولكن هلامات الظلام تسحبني لأسفل الدرك، أغوص بعيداً عن الجميع بما فيهم مَن أحببته.. لا أعلم ما حقيقة شعوري حقّاً تجاه خالد! ولكن حسب العُرف والتقاليد فهو زوجي إذاً هو حبيبي.. ولكن ماذا عن شعوري أنا؟ لا أعلم؟ أشعر أوقاتاً كثيراً أني فقدت معنى الإحساس! لا يمكنني أن أتذوق طعماً للمشاعر.. بل تلك المشاعر التي يخوضون فيها معارك ويتقاتلون من أجلها أوقاتاً، وئدت داخلي منذ زمنٍ طويلٍ.. منذ أن كنت طفلة كل همها آنذاك أن تحصل على المزيد من الحب والعطف والاهتمام! طفلة لم تعش أبداً معنى المغامرة!

هل أخبركم عن ليالي الأنين؟ هل أخبركم عن نفسي كل مساء كيف تخرج من رحم الشجن؟ هل أخبركم عن تلك الأفكار السوداء التي تجعلني لا أشعر بذاتي! كل هذا يجعلني أقدم على قرار واحد، واحد فقط يريد مني الخضوع وحين يدق جرسه لا بُد من الاستسلام والإذعان.. وفي تلك الليلة، ليلة زفافي دق جرس القرار بعدما خلد خالد إلى النوم، نهضت بهدوءٍ وأتيت بشفرة الحلاقة ونزعت بها روحاً من أرواحي تتنزه بسذاجة داخل شرياني لأعلن تمرّدي وصخبي على تلك الكرة الأرضية! كل ما كان يجول بداخلي وقتها هو أن

أغرُب بعيدًا عن الجميع! كلهم نفس الوجوه، نفس العيون القاتلة بنظراتها، مشاعرهم بغيضة لونها رماديّ يبعث الإحباط لي.. نفوسهم ليست مثلي.. مثلي خُلِق من أجل حياة أخرى لا أجدها في كنفهم فماذا يبقيني؟ لهذا سأرحل وإن فشلت سأحاول مرة أخرى.. فبقاؤهم حولي يشعل دومًا فتيل الاحتياج للغروب

****

«مالك، ليال»

ينعتونني بالقاسي دومًا، ولكن ما هو مفهوم القسوة في نظرهم؟ ما هو الشيء الذي جعلهم يلصقون صفة مثل هذه فوق جيدي! ولكن لماذا أفكر في آرائهم فدعونا نتفق بأن شئنا أم أبينا مهما فعلنا فلن نعجب الجميع! إذًا فلأعش هذه الحياة كما أريد.. قاسٍ؟! إذًا أنا قاسٍ ولا أكترث لظنونهم الحمقاء.. فليأتوا ويعيشوا حياة كالتي عشتها وحينها سيدركون معنى القسوة الحقيقي.. كنت في أوجّ انشغالي حين رأيت ساعي العمل يُسلمني طردًا مجهول الهوية.. لا اسم ولا عنوان.. تفحصته يمينًا ويسارًا وقلبته في يدي كمن يقلب دجاجة للشوي على نار الغموض، وفتحته ببطءٍ شديدٍ وكأني أتوقع انفجار قنبلة ريثما أفتح هذا الظرف «الأحمر». وما هي إلا ثوانٍ

معدودة حتى رأيت أقراصًا لا أفهم ما هي، وقرصًا مدمجًا لفيلم قصير.. وضعت الفيلم بجهاز الحاسوب الشخصي وبدأت أشاهده، فيلم تسجيلي لا أفهم ما هو سبب إرساله لي؟ ولا أفهم مَن هذا المعتوه الذي أرسل لي هذا الجحيم الغامض؟ على كلٍّ فلتذهب محاولاته سُدى طالما لم يرسل اسمًا أو عنوانًا.. اكتفيت بهذا القدر من العمل وألقيت بالرسالة في أحد أدراج المكتب دون مبالاة ولملمت أغراضي وعدت إلى المنزل.. هناك وجدت «ليال» تشاهد التلفاز كعادتها ولم تحضر الطعام. انتابني الجنون، لا أعلم منذ متى أصبحت بليدة المشاعر هكذا؟! تعلم بأني أعود إلى المنزل مُنهكًا ومتعبًا جدًا، فمِن أقل حقوقي أن تحضر لي ولو القليل الذي يسد رمقي!

- ما حضرتيش الغدا ليه يا ليال؟

بكل بلاهة:

- وأحضرّه ليه؟ أنا لسه مش جعانة!

بسخط وصوتٍ عالٍ:

- يعني إيه مش جعانة؟! والحيوان اللي طالع عين أهله من الصبح في الشغل يعمل ايه؟

– ما نفس الحيوان ده، فيه حيوانة برضو بتشتغل زي البقرة ٢٤ ساعة في البيت.

– فين ده؟ لما أقل حاجة اللي هو الغدا ما عملتهوش؟!

– الطفح اللي بتتكلم عنه أعمله إمتى وأنا من الصبح شقيانة على بنتك اللي لسه مخلفاها، من رضاعة وغسيل وتحضير وفوق كل ده بتعيط ٢٤ ساعة! دي يادوب لسه مرضعاها ويادوب لسه نايمة! ما تراعي بقى ربنا فيّا ولّا انت اشترتني!

تلعثم لساني وتحجرت جميع الأحرف بين فكي! حقيقة مُرعبة أُلقيت في وجهي! حقيقة قارصة شلّت جميع حواسي.. يا إلهي، ماذا أفعل بها؟! بل ماذا أفعل لها؟! لم أجب عليها.. تركتها وأدرت ظهري لها وأخذت محفظتي وخرجت مرة أخرى إلى الشارع! لعل وعسى أستطيع أن أتنفس حرية أو أن أتنفس حياة تبقيني على قيد الحياة!

****

خرج وتركني مع نفسي ومع ابنته الرضيعة أهذي! لم يبالِ بي، ولم يبالِ بمشاعري وبمجهودي.. ليس هذا زوجي الذي قبلت الزواج به منذ ثلاثة أعوام.. ذاك كان حنون القلب، يحبني، يجيد الاهتمام بي،

يكترث لتعبي.. أما هذا متعجرف وأناني، لا يهمه ما أمرّ به.. قالت لي الطبيبة بأني أعاني من اكتئاب ما بعد الحمل وأخبرته بذلك، ولكنه لم يهتم.. لم يصغَ لآهاتي التي تخرج كل ليلة من صياح الطفلة الصغيرة! لم يطلب مني يومًا أن أنام ويسهر هو يرعاها. طلبت منه منذ يومين أن نحتفل بقدومها فأجابني ببرود شديد:

– مالوش داعي..

– يعني إيه مالوش داعي؟ بقولك نعمل سبوع للبنت!

ظل ينظر لي جاحظ العينين ثم ضغط على فك أسنانه:

– مش هعمل كده يا ليال..

صرخت في وجهه:

– كل ده عشان جبت بنت؟! كل ده عشان ما قدرتش أجيبلك الولد اللي طول عمرك كنت بتحلم بيه! تحرمني أنا وبنتك بأول فرحة لينا؟!

دوت صرختة في أرجاء الشقة وهو يقول:

- ما تكفرينيش بقى، قلت مافيش زفت يعني مافيش زفت وده آخر كلام عندي والموضوع انتهى ومش قابل للنقاش!

وتركني أجهش في البكاء وخرج.. لم يعد إلا الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. لم يعتذر لي.. بل لم يلقِ السلام حتى، بدّل ثيابه ونام.. وجلست أبكي وأنعي حظي وحظ ابنتي الصغيرة التي أتت لأب حتى الآن لم يلمسها!!

قالت لي أمي يومًا بأن الحب شيء والزواج شيءٌ آخر! كنت دومًا في خلافٍ معها، أرفض كل معتقداتِها.. بل أوقات كثيرة كنا نتشاجر سويًّا لأنها تتحداني دومًا في مسألة الرجال.. تقول لي «يا فتاتي الرجل قبل الزواج شيءٌ لطيفٌ لا يوجد مثله في الكون، تشعري حينها أنكِ أحرزتِ هدفًا رائعًا في مباراة أحلامك! وبعد الزواج! يكون حكمًا قاسيًا لا يأبه للشوط الثاني ولا الدقائق الأخيرة في مباراة السعادة ولا يأبه لمجهودك وكلما أحرزتِ هدفًا من أجل إسعاده، منحك إنذارًا بسخطه ونقمه» ما زلت أتذكر كل ما كانت تقوله، وكل ما كنت أتشاجر بسببه معها.. ولكن الآن بعدما توفت، أشعر أنها على حق! «مالك» تغيَّر كثيرًا، شجاره معي أصبح يؤذيني! يدمر الحب الساكن في قلبي!

لحظة، لحظة.. هناك حقيقة تترسخ الآن بوضوح في عقلي، مالك تبدّل بشخصٍ آخر!

****

«خالد، إليانا»

صحوت مجدداً لهذا العالم البغيض، يؤلمني ما أفعله بخالد ويؤلمني أنه وقع بحبي! يظل يمنحني ويمنحني حتى أصل إلى حد الاكتفاء! ذاك الاكتفاء الذي يبعث على القيء، لا أرغب في المزيد، وكلما تهاوت نفسي يمنحني أكثر. أحاول أن أتمادى في عنادي فيتمادى في عطائه! هذا الإنسان يرغب في أن يقتلني يومًا بحُسن تصرفاته، وجمال مشاعره، لكنه بعده لم يفهم أن مشاعره وحدها لا تكفيني. لا تروي عطشي الدائم للتخلص من تلك الحياة. أما مشاعري فهي وظيفتها الأبدية أن تتغذى على قلب، عقل، روح، وكيان خالد.

وجدته يغطّ في سُباتٍ عميقٍ بجانبي.. أتساءل كثيرًا أما ملّ وكلّ مماَ أفعله به؟ لماذا ما زال حبيس جدران عشقي؟ لماذا لم يكتفِ من غدري ورحل؟ لم أقابل رجلًا صبورًا في حياتي مثله؟ يعرّيني ويعري أنانيتي وكل ما أفعله أني أجرده دومًا من أحلامه، طموحاته وألقي بها في عرض الظلام..

- خالد، خالد اصحى..

صحى مذعورًا..

- حاسة بحاجة؟ أنادي الدكتور؟

- لا أنا تمام.

- حمد الله على السلامة.

- خالد، عايزة أتطلق.

- ليه؟

- عشان انت متجوز واحدة بتخليك تدوق المُر بس وكفاية عذاب ليك لحد كده.

- إليانا أنا بحبك ومستعد أصبر ومستعد نروح نتعالج.

- وأنا مش هتعالج يا خالد! عشان أنا مش عيانة! كل الموضوع إن ما عنديش حاجة تخليني أحب الدنيا دي؟!

رأيتُ دمعة تحجرت داخل عينيه، يا اللّه! كم أنا بغيضة وجاحدة القلب.. كيف أنّى لي أن أتفوه بمثل هذا الحديث؟

– كنت فاكر إني لما أحتويكِ بعد جوازنا هقدر أكون السبب ده.

– ده مش عيب منك ولا غلط منك.. العيب فيَّا أنا.

اقترب مني ومسك يدي برفق وحنان بالغ:

– وأنا لسه عندي أمل إننا هنعدي المرحلة دي، بس خليني أساعدك.

– ازاي؟

– خلينا نروح لدكتور، خلينا نعمل أي حاجة بس ترجعيلي.

– تاني! دكتور تاني؟

– يا ستي أنا كمان هآجي، مش يمكن ألاقي اللي يسد الفراغ اللي ما بينا ده هناك؟ أنا وانتِ محتاجين نروح وده مش عيب ولا غلط.

– مش عارفة، مش قادرة أقتنع بالفكرة.

– خلاص بلاش تفكري دلوقتي في أي حاجة مضايقاكِ، المهم تقومي بالسلامة وبفكر نسافر نغير جو؟ إيه رأيك؟

هربت من نظرات عينيه التي يملأهما الحب والحنان، مشاعره تلك تحرقني، تقيدني في قيد الظالمين! أمقت ضميري الذي يصحو في سكرات الليل يزعجني بأسفي وندمي لما أفعله في حق خالد.. أريد أن أخرِس صوت هذا الضمير للأبد.. لا أريد شفقة لا على ذاتي ولا على خالد ولا على الحياة برمتها.. أنا سأظل كما أنا ولم يأتِ بعد ما يجعلني أغيّر قناعاتي..

****

طلبت منها أن نسافر ولكنها لاحت بنظرها بعيداً، بعيداً جداً.. كنت أسمع دوماً أن البعيد عن العين بعيد عن القلب؟! وماذا عن القريب من العين وبعيدٌ عن القلب؟ بعيد جداً.. بعيد بُعد السماء والأرض؟ أنا أبعد من السماء لها رغم كل جهودي المميتة في إرضائها.. أنا ظِلها المزيف، يظهر في الضوء ولكن لا روح له! يلازمها ولكن في صمت.. أنا العبث الباطن لوجدانها.. آآه يا إليانا، لو أعرف الحل؟ لما جعلت شقاءك يلازمك كل هذا.. عدت إلى المنزل لأجمع بعضاً من حاجياتها التي طلبتها مني وبينما أنا أجمعها وجدت دفتراً صغير في أحد أدراجها، من أين جاء هذا الدفتر؟ فأنا لم أرَه بالأمس! بالأمس فتحت هذا الدرج قبل النوم ولم يكن هنا؟ غير مهم الآن، المهم هو: هل تكتب إليانا؟ يا إلهي لم أكن أعلم أنها لديها فن الكتابة؟

ومنذ متى؟ لم تخبرني قَط.. فتحت الدفتر وإذ بي أفتح باب قبر صغير عن عالم الموت الذي يختطف زوجتي بين الحين والآخر.. مشاعر سوداء ترتسم بوضوح بين سطور هذا الدفتر الصغير.. وشفرات الإنهاك تبرز بجدارة على هوامش الصفحات.. صفحات عن طفولتها المجردة من البراءة والحياة، تقص بداخلها عن إهمال أهلها لها.. تخبر الصفحات كيف تشكلت القسوة داخلها، كيف كانت وماذا غدت! وصفحات أخرى تحمل بين طياتها عن مراهقتها الجامدة جدًّا.. في إحدى الصفحات ذكرت أنها لم تعش أبدًا أي مغامرة ولا أي قصة حب كبقية الفتيات.. لم يكترث لها أي فتى، الكل كان ينفر منها بل وكان بعض الصبية يلقبونها بال «بومة».. أتحسس السطور وأكاد أجزم بأني أشعر بدموعها التي لا تذرفها أمام أحد، تبدو كشظية حارقة ولكن لُبها ليّن جدًّا من الداخل.. أنا أحب تلك الإنسانة التي تسعى هي دومًا لدفنها..

كنت أتصفح كل الصفحات بشغف، فبداخلها مشاعر لم تعترف أبدًا بها لي وأعلم جيدًا بأنها لن تعترف! كنت سعيدًا جدًّا رغم الحُزن النافذ من بين دروب الحروف، سعيدًا لأنني أقترب ألف خطوة منها، سعيد لأنني أزيل الألف قشرة الحاجبة بيني وبينها!! كنت سعيدًا حتى وقعت عيني على جملة

جعلتني أذرف دموعًا وأنهارًا كطفل يتيم فقد ذويهِ في الحرب!

****

(٢)

«ريم، صفوت»

خرجت من المطار أبحث عن سيارة أجرة تقلني، لم أشأ أن أخبر أحدًا من أصدقائي أو أهلي عن عودتي.. رحلة قصيرة وسأغادر أرض البلاد مجددًا.. فمثلي خُلِقَ ليكون رحالة.. لا أرضا في هذا الكون تستطيع أن تكون ملجأ له.. مثلي يمل سريعًا، وينتقل بين صخب الحياة علّه يجد راحته.. وصلت إلى مسكني وأنزلت حقائبي لأجد حارس العقار يركض سعيدًا ويحييني بحرارة:

- حمد اللّه على السلامة يا سامو بيه.

- اللّه يسلمك يا مسعد، عامل إيه؟

- تمام يا بيه، إزيك وإزيّ بلاد برة؟

- الحمد اللّه كويسة، كل حاجة كويسة. اللّه يخليك بالراحة وانت بتطلّع الشنط عشان فيهم حاجات ممكن تتكسر.

- حاضر يا بيه، بس أنا فرحان أوي واللّه إنك هتقضي العيد السنة دي معانا.

- شكرًا يا مسعد والله.

لا أعلم لماذا لا أصدِّق مشاعر «مسعد» أبداً؟ هل لأني أعلم أن نصف حديثه مجاملة أو لأني أعلم أن حديثه هذا دافعه الحصول على الكثير من المال مني.. أو ربما كان حديثه صادقًا ولكني بتُّ لا أصدق أحداً في هذا الزمن بسهولة.. مثلي ما عاد يصدق أحداً أبداً.. مؤشر الصدق عندي زئبقه احترق في القدم! احترق بسبب قلوبٍ لم تقدِّر قيمتي أبداً، قلوب قدَّمت لهم الحب بيدي اليمين لآخذ مقابله كرهًا ومقتًا بيدي اليسار!

أزلت من عقلي تلك الأفكار وحديث مسعد المرهق وهيأت نفسي للاستحمام فبَعد قليل سيأتي المستأجر الجديد كما أخبرني مسعد لأوقِّع له على إيجار الشقة الأخرى التي تقع في الطابق الأسفل مني.

****

كنت في السيارة مع زوجي ذاهبين لنمضي عقد الشقة الجديدة التي سيستأجرها لي مثلما رغبت بتغيير عنوان سكننا.. لم أعد أرتاح في تلك المنطقة التي كانت مليئة بالإناث.. أنا امرأة تنظر حول زوجها ألف مرة ولم تستطع بعد أن تمسكه متلبِّسًا في جريمته.. ولكني على يقين وأكاد أجزم

بأنه ليس بريئًا ولا شريفًا كما ترسم لي ملامح وجهه الجميل.. أنا امرأة على قدر عالٍ من الجمال وثقتي بنفسي أيضًا مرتفعة ولكن ذاك الحدس القوي بداخلي لا يهدأ عوارضه! يقلعني دومًا من محارة هدوئي ويرقص بي فوق نيران الشك والحيرة.. ذاك الحدس يرفض تمامًا أن يصدق زوجًا من العيون تتقن بكل حرفية جميع فنون الكذب والاحتيال! خرجت من دوامة أفكاري على صوت زوجي العزيز صفوت وهو يقول:

- حبيبتي، لو قالي الإيجار ب ٤٥٠٠ هرفض.

أجبت بحزم:

- مش هنرفض يا صفوت، أنا خلاص مش ناوية أرجع أعيش تاني هناك.

- ليه! أنا بجد مش فاهمك يا ريم؟!

أغلقت عينيّ وأنا أحاول أن أتماسك:

- صفوت من فضلك، ده قرار اتناقشنا فيه كتير ووصلنا لحل إنك خلاص وافقت إننا نعزّل! فماتجيش دلوقتي تقولي سعر ومش سعر!

- ما هو مش تحكيمة دماغ وخلاص يا ريم!

- وما تقنعنيش إن ال ٥٠٠ جنيه الفرق هُمّا دول المُعضِلة بالنسبة ليك؟!

زفر بضيقٍ:

- أنا مش فاهم أفكارك وأوهامك دي لحد إمتى مطلوب مني أستحملها.

****

وصلنا إلى العمارة وطلبت من زوجتي الانتظار في السيارة حتى أبحث عن حارس العقار ليرينا الشقة مرة أخرى قبل أن نصعد ونتحدث مع صاحبها.. زوجتي أنثى من إحدى الإناث المصابات بهلع الغيرة القاتلة.. تترصد لي أينما ذهبت، عيون في هاتفي وعيون تبحث عن آثار سهرة حمراء فوق ثيابي وأنف يحاول أن يشم أي عطر نسائي قد يكون عالقًا في أحد جيوبي أو عالقًا فوق ثغري، أو ربما يكون عالقًا فوق عنقي.. حياتي معها جحيم لا يطاق.. سجن كبير مليء بالأسئلة لدرجة أنك حين تعود إلى المنزل تُشعِرَك بأنك انتقلت إلى إحدى مكاتب الـ «أف بي أي»!! حين أخبرتها بأن حارس العقار اتصل بي وقال لي أن صاحب الشقة عاد من السفر فتعالى لتوقع معه العقد، أصرت على المجيء معي. أصرت وكأني سأكذب عليها أو ربما سأنهي

أي فرصة قد تجعلنا ننتقل إلى العيش في هذه الشقة الجديدة وكأنها آخر شقة متوفرة في الحياة.

أتاني حارس العقار وناديتها لتأتي ونصعد سويًا وهناك ألقت نظرة سريعة مجدداً وقالت:

– حلوة أوي.. يلا يا صفوت وقّع بقى مع صاحبها العقد بسرعة.

نظرت لها بحنقٍ شديدٍ وكظمت غيظي:

– الشقة مالهاش جناحات على فكرة ولا هتطير.

ببرودٍ قاتلٍ:

– أيوة عارفة حبيبي! أكيد مش هتطير .. بس الوقت من ذهب برضو وطالما عجبانا وصاحبها موجود يبقى نوقع ونخلص، عشان يادوب نلحق ننقل جزء من العفش النهارده!

– إيه! النهارده؟!

– أيوه ليه لا؟!

– ريم إنتِ مستوعبة بتقولي إيه؟

– آه مستوعبة!

- وبعدين إحنا مالحقناش نجهز نفسنا.

- لا أنا مجهزة كل حاجة.

- إمتى جهزتِ ده؟

لم تجبني نظرت إلى حارس العقار وقالت له:

- قلتلي اسمك إيه؟

- مسعد يا هانم.

- طب يا مسعد، روح نادي بقى صاحب الشقة عشان يوقع مع جوزي العقد.

ألقيت السباب عليها في سري وانتظرت صاحب الشقة لأرى بعد دقائق مسعد ورجلًا كثيف الشعر، وجهه دائري وفمه واسع مع ابتسامة بغيضة يقول:

- صباح الخير.

أجابته ريم بلهفة:

- صباح النور يا افندم، معلش على الإزعاج والتعب.

- لا ولا يهمكم، اتفضلوا استريحوا خلينا نتعرف الأول على بعض.

زاد حنقي هو الآخر، برودة القاتل وابتسامته الماكرة أو ربما تهيأ لي ذلك لأني لم أطق أي شخصٍ ساهم في تحقيق حلم ريم! وكأنهم يدركون سبب انتقالها إلى عالم جديد! كلهم ساهموا في دعمها نحو اعتقاداتها المريضة.. ريم تظن بأني أخونها مع كل الفتيات اللواتي كُن يَقْطُنَّ بجوارنا في منطقة سكننا القديمة! تظن بأني على علاقة معهن جميعًا.. أوقاتًا يزيد حنقي من شك ريم فأشعر بأني أريد أن أصبح خائنًا حقًا لتعلم كيف الخيانة تكون! أريدها أن تدرك الفرق بين الإخلاص والخيانة! أن أشبعها حبًا وحنانًا ثم أوجّه لها لكمة الحياة! ولكن حبي يبقيني واقفًا دومًا في مرساها رغم كل شيء! أما الوضع الذي أنا فيه الآن لا يُحسد عليه أي مرء؛ لذا سحقًا على هذه الشقة الجديدة وسحقًا لك يا مسعد يا من كنت سعيداً جداً بتلك الصفقة وسحقًا لك أنت أيضًا يا صاحب الشقة اللعينة!

****

كدت أطير من السعادة حين تم توقيع العقد، ها أنا ألوذ فرارًا بزوجي بعيداً عن جارتنا التي تقطن في الدور العاشر.. لا أرتاح لها على الرغم من أنها متزوجة ولكن سفر زوجها الكثير يقلقني ويرعبني منها ومن محاولاتها الفاشلة دومًا في أن تستقطب زوجي لها.. رأيتها يومًا تطلب من صفوت أن يساعدها في حمل طفلها الصغير! تلك

اللعينة تظن أنها هكذا ستستطيع أن تستدرجه إلى شقتها، لكن هيهات فكنت لها بالمرصاد وخرجت سريعًا من شقتي بعدما كنت أسترق السمع لحديثهما سويًّا:

- حبيبي حمد اللّه على السلامة.. إيه ده منى؟ ازيك يا روحي؟

بابتسامة هادئة:

- الحمد اللّه، معلش أنا طلبت من صفوت بس يشيل معايا ابني، لحسن معايا أكياس كتيرة.

- يا خبر لا إزاي، خلاص حبيبي ادخل انت ارتاح عشان أكيد جاي من الشغل تعبان وأنا هساعدك بنفسي وأشرب فنجان القهوة كمان معاكِ.

نظر لي صفوت بحنقٍ شديدٍ:

- طب إيه هتشربي القهوة ومش هنتغدى؟

- مجهزة ليك كل حاجة، وأنا هقعد مع منى شوية أشوف جوزها بيقع منها كتير ليه كده..

بتعجب واندهاش:

- إيه؟ جوزي بيقع مني ازاي؟ مش فاهمة؟

- أقصد بيسافر كتير ليه كده وسايبك لوحدك على طول، إنتِ وابنك..

- آه أوكي..

آه حمد للّه، الآن سأنام في هدوءٍ قليلًا ولكن أرجو من اللّه أن لا أجد منى أخرى هنا! أو لربما في كل مكان سأجد واحدة مثل منى تريد أن تقتلع زوجي من حصوني.

أن أصبح امرأة تشك في زوجها كل لحظة أمرٌ لعين حقًّا أسأم من ذاتي فيه! ولكن أنا امرأة تحب زوجها جدًّا! تريده دومًا لها فقط.. تخاف أن تصحو يومًا لتجد واحدة أخرى استطاعت سلبه من بين ثكنات قلبها.. تموت ذعرًا من حياة سوداء بعيدًا عنه! هو قدري الذي ناضلت من أجله، أنا وحدها التي تستحق أن تكون في قلبه.. أنا من تتكبد عناء هذا الشك وهذا التعب المضني من أجل حبه.. فلماذا أغفل عنه؟ لأصحو يومًا وأشاهد بأمّ عيني إحدى الحقيرات وهي تسرق زوجي مني؟ تقتلعه من داخل عينيّ؟ أكره هؤلاء النساء اللواتي تشعر بأن وظيفتهن في الحياة هي فقط أن تأّخذ منك رجلك! تسعى بكل جهدها لتتحداكِ.. وكأنها تنتقم أو تثبت للعالم بأنها هي الأحلى، الأجمل، الأذكى والأكثر ضيًّا منك! بينما أنتِ، فأنتِ ذاك الوحش الذي وصفه لها زوجك المصون! أنتِ تلك الحياة البائسة الذي

يبحر داخلها ويتطلع ليد تنقذه منها.. أنتِ الهلاك والموت في حين أنه الملاك! ولكن لا أستطيع إلقاء اللوم كله عليهن! فالرجال لا أمان لعيونهم ولا أمان لقلوبهم المتغيرة باستمرار.. ولا يوجد راحة حينما يكون هناك رجل عالق في قلبك وفي عنقك!

****

«يوسف، آسيا»

اليوم هو يوم الخميس، قررت فيه أنا ويوسف أن نحتفل بزفافنا في اليوم المرتبط بذكرى اعترافنا بحبنا لبعضنا البعض.. لن أقول قصة حب لم يشهد مثلها الزمن، فكل المحبين يظنون بأنهم الوحيدون على هذه الكرة الأرضية من هاموا عشقًا، أو هم الوحيدون من جاهدوا في سبيل التيم واستطاعوا أن يحفروا أسمائهم فوق نهر الحب ولكننا حقًا أحببنا بعضنا البعض. قصة جديدة تضاف لعالم العشاق. قصة يوسف وآسيا.. تعرفنا في الجامعة حيث كنا ندرس نفس التخصص واشتعل لهيب الحب في أعيننا ليحرق كل من يفكر أن يقف أمام هذا الحب ويعترضه.. وانتظرنا التخرج وأن يحصل يوسف على عملٍ ثم يأتي ويخطفني بخاتمه الرقيق الذي لن يفارق إصبعي.. نعمل نحن الاثنين في مجال الإعلام، لم يكن مجالًا عاديًا أو سهلًا.. مجال حوله أسوار شائكة كثيرة

ورغم ذلك دعمني يوسف دومًا.. نسي نفسه ونسي آماله وسعي جاهداً أن يدفعني دومًا إلى الأمام.. لم يكن رجلًا من هؤلاء الرجال ذوي الطابع النرجسيّ.. لم يقل لي يومًا نَفْسي ثم نَفْسي.. لم يقف وحشًا أمام أحلامي ينهش فيها بأنياب ذكورية مشمئزة.. لم تفح لرجولته رائحة نتنة وقال لي مجالك هو المنزل وزوجك فقط! يعلم بطموحي لأحقق أكبر برنامج للأطفال على مستوى الشرق الأوسط وكان يسعى دومًا لتحقيق طموحي ولو على حساب ذاته. اليوم ليلة زفافنا، اليوم سنبلور العشق الكبير في قصر متواضع. لم أطلب منه أن نسكن في الفِلل التي يصل مبلغها آلاف الجنيهات فاخترنا شقة متواضعة في أحد أرجاء القاهرة.. لم أشعر فيها بِطاقة إيجابية كبيرة ولكنني وافقت عليها نظرًا لإعجابه بها.. صارحته بشعوري:

- يوسف، مش حاساها أوي.

- ليه يا روحي؟

- ما أعرفش، الطاقة اللي في المكان سلبية أوي.

- مش فاهم وعرفتِ إن طاقة المكان سلبية إزاي؟!

- الشقة لازم يكون فيها ٩ أركان عشان ما تبقاش ناقصة وبالتالي ده يعكس الطاقة السلبية علينا.

– آسيا، أبوس إيدك عايزين نتجوز، فبلاش تخاريفك بتاعت طاقة المكان ومش طاقة المكان دي! ابقي رشي ملح يا ستي في كل حتة فيها عشان طاقتها تبقى زي الفل!

– آآه أنا ملاحظة إنك بتتريق عليًّا!

اقترب بحنانٍ نحوي وابتسم بهدوءٍ واحتضنني بدفءٍ:

– طب أعمل إيه بس! هموت ونتجوز وما صدقت لقيت شقة، سعرها حنين علينا وانتِ تقوليلي مش حاسة طاقتها ومش حاسة مش عارف إيه! ناقص تسأليني هي مواليد إيه عشان تعرفي هي تبع أنهي برج!

ضحكت من سخريته التي أعشقها:

– عشان بحبك وعشان أحسن منك، هقولك ماشي رغم عدم ارتياحي ها! عشان تعرف بس إني هموت ونبقى سوا.

طبع قُبلة رقيقة بشفاهه فوق ثغري:

– هنبقى سوا إن شاء اللّه طول العمر.

محظوظة أنا بوجود يوسف في حياتي، رغم إهماله لي بعض الأوقات ولكني أعلم بحبه لي.. يوسف من هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون كيف يعبرون عن حبهم! يشتاقون ويموتون اشتياقًا ولكنه يكتفي بقولها أمام عينك! لا يعرف أن رسالة منه بها بعض الكلمات الحلوة تجعل قلبي يخفق له طول العمر، لا يتفهم أن هناك أوقاتًا أريده أن ينهال عليّ بعبارات الغرام.. يوسف رجل عمليّ حين أكون أمامه يغدق عليّ بحنانه وعطفه وحين تفرقنا المسافات قليلًا قد أضيع خلف حبه للعمل وتفانيه فيه! ولكن اليوم وأخيرًا ستلتحم أقدارنا وسأبقى أمامه وسيكون هناك متسعٌ أكبر للعشق..

****

أرتدي البدلة المائلة للأبيض من أجلها، عاشقة للون الأبيض من الدرجة الأولى، طرازها كلاسيكي واخترتها بعناية من أجل أعز ما أملك.. آسيا تلك الفتاة الهادئة والمجنونة في نفس ذات الوقت التي ما إن وقعت عيناي في الجامعة عليها حتى تمرّد القلب عليّ وجرني إلى حبها جَرًّا.. ارتضيت أن أكون أسير عينيها بكل امتنان.. ارتضيت بعذابها، ضجرها السريع، جنونها، ارتباكها وقت التجمعات الكثيرة، خجلها، عصبيتها، أنانيتها، بعضًا من الوقت وعيوبها قبل مميزاتها.. ارتضيت بها وأسكنتها في فؤادي وأصبحت دلالي وغنجي

ومالي وحالي.. اليوم سأرقص معها على أنغام كاظم على الرغم من غيرتي منه! أغار عليها من رجلٍ لا يعلم بهوسها به وبأغانيه.. اخترت إحدى أغانيه الهادئة والتي تنضح بكل الهوى الموجود في العالم لتكون رقصة افتتاح زفافنا.. ساعات قليلة وسنذهب إلى شقتنا، مسكننا الصغير والمتواضع جدًا.. أعلم أنها لم تحبه كثيرًا ولكن فليشهد اللّٰه بأني سأجعله جنة لها.. سأسحق أوجاعها فوق عتبة الباب ولن أترك براحًا أو أي ثغرة لأي حزن يعتريها..

نزلت القاعة وهناك استقبلتُها.. جسدي يرتجف سعادة وتوترًا.. اقتربت من والدها ومسكت يدها الناعمة ذات رائحة الفانيليا بالتوت البري كما قالت لي سابقًا:

- ريحة إيدك حلوة أوي.

- عشان بحط كريم بريحة الفانيليا والتوت البري.

ضحكت بسخرية:

- التوت البري! ليه عايشة فين عشان تحطي توت بري..

- ياباي عليك يا يوسف! دايمًا كده تتريق..

- والله بحبك.

- طب ما أنا بحبك، بس ما بحبش كل شوية تقعد تتريق عليّا.

قبّلت جبينها أمام الجميع وهمست لها في أذنها:

- بحب التوت البري..

ضحكت بخجلٍ:

- لسه فاكر..

- عمري ما هنسى أي تفصيلة بتقوليها ليّا.

طوقت ذراعها حول عنقي وأراحت رأسها برِقّة بين أحضاني وتمايلت معي بهدوءٍ وحُبٍّ حين صدح كاظم بصوته في أرجاء القاعة قائلًا:

لجسمك عطرٌ خطير النوايا يقيم بكل الزوايا

ويلعب كالطفل تحت زجاج المرايا

يعربش فوق الرفوف يجلس فوق البراويز

يفتح باب الجوارير ليلاً ويدخل تحت الثياب

لجسمك عطر خطير النوايا

لجسمك عطرٌ به تتجمع كل الأنوثة كل النساء

يدوخني يذوبني ويزرعني كوكبًا في السماء

ويأخذني من فراشي إلى أيّ أرض يشاء

وفي أي وقت يشاء

سلام على شامة في ذراعك تغفو كحبة هال

سلام على أي مشبك شعر نسيناه تحت الرمال

سلام على جسد كالخرافة يفتح كالورد أجفانه

ويختار عني فطور الصباح

و أشعر أن السرير يسافر فوق الغمام

سلام على الخصر يخطر بالبال مثل المنام

سلام على قمرين يدوران حولي فهل تحملين السلام

أحبك يا امرأة هي عطر العطور ومسك الختام

ومع نهاية آخر جملة وجدتُني أحملها بكل ودّ وأدور بها في أرجاء القاعة ونشوتي وسعادتي بها تطيران معنا.. ولا أعرف كيف مرت الساعات وانتهى الزفاف، فركضت بها سريعًا إلى عشنا الصغير، حيث هناك ستبتدي أول ليلة جوى وغرام.. هناك سنتغلف داخل شرنقة شغفنا، وبعدها سيصرخ هذا القلب باسمِها مخلّداً قصتنا على جدران العالم والكون بأكمله..

****

(٣)

«خالد، إليانا»

عدت إلى المنزل بعدما تعافيت وهرعت إلى حجرتي وانتظرت مغادرة خالد المنزل وفتحت دفتري الذي على ما يبدو قد وجده خالد، فبعدما بحثت عنه في مكانه السري ولم أجده، وجدته بأحد الأدراج ولكني لم أكترث وصببت اهتمامي كله على الدفتر وتقيأت بكل مشاعري داخله.. ركضت بي الحروف إلى الماضي حين كنت طفلة صغيرة مقبلة على الحياة. كان الأمل بعده يقطن داخل عقلي حتى بدأت أستوعب إهمال أهلي لي؟! كنت في النادي معهم وكنت في تمرين السباحة الذي قهرني والدي عليّه ولم يكترث لعدم حبي للماء وإذ بي أغرق وإذ بالجميع يلتف حولي ما عدا أهلي.. أنقذني المدرب سريعًا، لحظات غرقي لم تتعد الثواني.. فقت على عيونٍ كثيرة يشع منها الخوف والهلع عليّ، أخذت أبحث كالمجنونة عن عيون أهلي فلم أجدها؟ لم أبكِ من الغرق ولكن عندما وجدتهم غائبين، بكيت.. بكيت غيابهم، بكيت إهمالهم! يلقونني في التمرين ويذهبون سويًا بعيداً عني وكأنهم لا يكترثون لما قد يحدث لي؟! انتهى التمرين وجلست أنتظرهم وحيدة فوق أحد المقاعد أمام حوض السباحة الكبير أنتظر عودتهم

لي، لأجدهم قادمين من بعيد يضحكون بصوتٍ عالٍ يمزقني.

– ها يا إليانا، خلصتي؟

– آه..

– طب يلا عشان نروّح.

مهلًا مهلًا! لن يسألوا عن أحوالي؟ لن يسألوا عن أدائي اليوم في التمرين؟ لن يسمعوا بحادثة غرقي؟ لن تصرخ أمي كما صرخت بقية الأمهات؟ وتركض بشغف لتحضني وتقبلني من رأسي حتى أخمص قدمي؟ لا مهلًا أرجوكم لا تعبثوا بي، أنا بحاجة لأن أقف الآن وأصرخ وأبكي متمردة.. دخلت إلى السيارة وخرجت من صمتي:

– أنا كنت هغرق النهارده..

لم يلتفت لي أحد وأجابني والدي ببرودٍ:

– وبعدين، حصل إيه؟

– المدرب أنقذني والنادي كله كان حواليّا..

– طبعًا لازم المدرب ينقذك، بس كويس إنك غرقت عشان تتعلمي العوم أسرع.

ماهذا الهراء؟! هل هذا أب عادي؟ الآن ستلتفت والدتي، نعم لدي أمل.. ستلتفت لأبي وتصرخ في وجهه وستتوعد لمحاسبة المدرب هذا الذي غفل عن ابنتها ولو لثوانٍ وستقبّل يدي بجنون. ها هي تلتفت لوالدي وتقول:

- مش أنا عرفت من جيجي إنهم اشتروا فيلا جديدة فعلًا..

عدت بظهري إلى الخلف ونظرت إلى النافذة لأجد طفلة مع والدها ووالدتها تبكي ووالدها يربت فوق ظهرها بحنانٍ فمسحت دمعة سقطت عبثًا من عيني ومددت جسمي الصغير على المقعد الخلفي وأغلقت عيني وغرقت في وحلي.. وكانت تلك الشرارة التي أضرمت الطوفان بداخلي..

أغلقت الدفتر وأغلقت حقيبة الذكريات التي اعترتني ونهضت إلى الشرفة ووقفت اتأمل الشارع ولم أشعر بالوقت ولم أشعر بأني شرعت بالجلوس على حافة الشرفة حتى رأيت خالد بالأسفل يركض بهلع وكأنه يسابق الزمن ويدخل إلى الشقة ويسحبني بكل قوة لأقع أرضًا فوقه. نظرت له ببرود:

- في إيه؟

– حرام عليكِ بقى.

– أنا ما عملتش حاجة؟ أنا كنت قاعدة بس.

– قاعدة إيه بس يا إليانا! حد يقعد كده؟!

– وليه ما أقعدش كده؟ عادي يعني.

– وافرض وقعتِ؟

– ما تخافش مش هموت! واضح إني هفضل عايشة في الدنيا دي كتير!

سحبني عنوة إلى أحضانه، أغلقت عيني وتركت نفسي تستمع إلى أنفاسه التي تعلو وتهبط بهلع شديد، تركت رائحة عطره القوية تتغلغل داخلي ولم أبعده عني ربما لأني كنت في ذروة احتياجي لهذا الحضن!!

****

سابقت الريح حين رأيتها تجلس فوق حافة الشرفة، احتضنتها وانسابت بين يدي على غير عادتها! تذكرت جملة هزت عرش عشقي لها كانت مكتوبة في دفترها «ربما لم أحب خالد ولكنه إنسان جميل يقدّم لي مشاعر أبحث عنها، تركت ذاتي لأجرب الحياة معه وشهادة لله هذا الرجل جميل، ولكنه لا

يستطيع أن يثير الحياة الراقدة تحت التراب داخلي.. لا يستطيع أن ينعش حواسي، خالد زوجي وليس رجلي» كدت أبكي مرة أخرى ولكن طردت الجملة عن بالي وسرت فوق أوجاعي واحتضنتها أكثر وكأني أحاول أن أنقل لها كل ما يوجد بداخلي من أجلها.

– تحبي نخرج؟

– مش حاسة إني عايزة أخرج.

– لا تعالي نخرج، تعالي نغيَّر جو، أنا وانتِ محتاجين ده.

– طيب.

مسكت يدها بحنانٍ وذهبنا إلى الغرفة، وهناك اخترت لها ثوبًا أقحوانيّ اللون يبرز لون بشرتها الأسمر ويضفي رونقًا ورقة لها.

– بحب الفستان ده عليكِ، بيخليكِ جميلة أكتر ما انتِ جميلة.

ابتسمت قليلًا:

– حاضر هلبسه.

خرجت لأنتظرها بالصالة ودقات قلبي تتصارع من السعادة والخوف.. اليوم سأخرج معها بعد فترة طويلة كانت تهرب مني.. ربما يجب عليّ المحاولة من الجديد لكسب قلبها؟ ربما وسأسعى لذلك..

خرجت لي بعدما صففت شعرها الأسود الناعم والذي ينسدل على كتفها بنعومة ورائحة عطرها الفوّاح وحقيبة يد صغيرة.

– أنا جاهزة.

سِرتُ لها كعاشق ولهان يرى محبوبته لأول مرة ويذهل بجمالها الطبيعي الذي يخلو عن أيٍّ من مساحيق التجميل.

– زي القمر ما شاء اللّه.

– شكرًا.

– تحبي نروح فين؟

– مش فارق، كل الأماكن زي بعض.

ابتلعت غصة عارضتني بسبب عدم مبالاتها وحفرت ابتسامة قهرًا فوق ثغري.

– تعالي هعرّفك على مطعم جديد حلو أوي، جوه رومانسي.

– ماشي.

مسكت يدها التي غاصت ببرودٍ داخل يدي وسارت معي بمشاعر ألقيت داخل ثلاجة ولكن صبرًا جميلًا يا إليانا...

****

«مالك، ليال»

عدت إلى المنزل ومعي طعام من الخارج ووضعته لها في المطبخ حتى تأكله هناك كعادتها. تغيرت ليال وباتت ترفض أن تتناول الطعام معي! تنظر لي دومًا وكأني وحش! أعترف بأني أوقاتًا أثور جنونًا وأغدو قاسيًا.. ولكنها هي من تشعل فتيل بركان الغضب لتصب كل حممه عليها.

– جبتلك أكل وحطيته في المطبخ.

– أوكي جبت إيه؟

– جبتلنا باستا.

التفتت لي ونظرت لي بنظرات مخيفة لا أعلم ما هي سببها وقالت بغرابة:

– إنت عمرك ما كنت بتحب الباستا!

تلعثمت وأنا أجيبها:

– ما أعرفش، فجأة بقيت بحبها.

لم تنظر لي ولكني شعرت بذعرها من شيءٍ ما غير مفهوم فتداركت سريعًا وقُلت لها:

– ليال، أنا بحبك.

– أوكي.

ضغطت على فك أسناني وابتلعت غصة تملؤها مشاعر كثيرة متضاربة وحاولت أن أقترب لها بهدوء وأمسك يدها لأجدها تدفعني بغلٍّ كبيرٍ وتصرخ في وجهي:

– ما تقرّبش مني.

– هو في ايه؟ إنتِ مجنونة؟

أحكمت الغلق على عينيها وصرخت مجدداً:

– مش طايقة أي حاجة منك! إنت كداب ولا بتحب ولا نيلة.

– إنتِ مش طبيعية!

– أنا اللي مش طبيعية ولّا إنت! إنت اللي ما بقتش زي زمان يا مالك! إنت ما بقتش تحبني ولا بقيت تعرف تحبني.. عشان اللي بيحب يا مالك هيهتم بكل حاجة تخص اللي بيحبه..

انتفضت سخطًا:

– أنا غلطان عشان جيت وقلت أصالحك، لكن انتِ لا الكلام ولا الحوار بقوا نافعين معاكِ ولو على التغيير، روحي شوفي نفسك في المراية يا شيخة وشوفي منظرك اللي يقرف والزبالة والفوضى اللي إحنا بقينا عايشين فيها بسببك وبسبب إهمالك وتعالي اتكلمي عن الحب وزفت.. خليتِ حياتنا كلها نكد ليل ونهار..

– إنت بتقولي أنا كده!

دفعتها بعيداً عني:

– يا شيخة بقى، كفرتيني وخليتِ أعصابي تفلت ببرودك وقرفك ده.

وما هي إلا ثوانٍ حتى وجدت ثورة عارمة منها اشتعلت في أرجاء الشقة وبدأت في تكسير كل ما تقع عليه عيناها.

– أنا بكرهك، إنت مش مالك، أنا ما بقتش عايزة أعيش معاك خلاص.

ركضت إليها وحاولت أن أثنيها عما تفعله ولكن طوفانها كان أكبر من عطفي عليها فبدأت أمسك يدها بقوة وأجرها إلى غرفتها لتهدأ، فاشتعل غضبها وهاجت:

– إبعد عني، عايز تضربني؟

فزمجرت بصوت عالٍ سكت من بعدها ضجيج العالم لوهلة:

– حرام عليكِ اللي بتعمليه فينا ده! إنتِ كأنك مصممة تدبحيني.

وتركتها تهدأ وركضت إلى منفى الحزن لعلي أنا أيضًا أهدأ.. ولكن من أين الهدوء يأتي؟! أو يُشترى؟ وميض النكد لا يبرح منزلنا.. شجار يتلوه شجار آخر وكأنها تتفنن في إشعال الحرائق بيني وبينها.. تلقي وابل التهم في وجهي ثم تفر هاربة تبكي حظها. سئمت من هذا الأسلوب، سئمت من كل ما

تحاول أن تثبته لنفسها.. تعيش في ملكوتها وحدها ولا عادت تأبه لي ولمتطلباتي.. أقسو عليها؟ نعم أقسو، فأنا من حقي أن أتنعم بالراحة وهي التي تموج بعيداً عني، فلماذا أحنو؟ إنه حقي! حقي لأني أريدها أن تتغير.. أريدها أن تعود كما عهدتها.. لا أريد تلك النسخة المشوهة التي تسعى دوماً لتصديرها..

****

لا أعرف كيف ثرت عليه هكذا! يجرحني أن من أحببته وتزوجته تبدّل وأصبح سفاحًا وليس رجلًا! سفاحًا يستبيح سفك مشاعري، أحاسيسي، رغباتي وكينونتي.. قالت والدتي يوماً «الرجال يا صغيرة لعنة، تدمي كل ما هو بداخلك، وتستنزفك لآخر قطرة» عارضتها من جديد ظنًا مني بأنها معقدة بسبب انفصالها من أبي.. تحديتها بمالك وقلت لها ظفرت أنا يا أمي برجلٍ يقدّس حبي.. حظي أجمل من حظك.. حمداً لله أنها توفت قبل أن ترى ما أعانيه الآن مع مالك! ركضت لطفلتي الرضيعة الصغيرة ووجدتها تغط في سباتٍ عميق. ما أجمل عمق نوم الأطفال الصغار، غيبوبة أحلام لطيفة وعالم زهري لا تعكره حقائق واقعنا المزيف.. نظرت إلى يدي فوجدت خطوطًا حمراء وكدماتٍ منه!

«يا اللّه منذ متى تحوّل حبيبي إلى وغد بَرّي لا تستطيع أن تعيش معه تحت سقف واحد»

بدّلت ثيابي سريعًا ولملمت شعري المتناثر بسبب شجارنا وحملت طفلتي وانطلقت أدور بسيارتي في أنحاء القاهرة، حتى وجدت فجأة أمامي لافتة تشير إلى مركز لحل مشاكل المتزوجين. لا أعلم كيف ساقتني قدمي إلى المركز، ودخلته وطلبت أن أجلس مع إحدى الأخصائيات لأقول لها بدون مقدمات:

– جوزي مش جوزي..

تقبلت ما تفوهت به بصدر رحب، فهي معتادة على سماع الكثير من المشاكل الزوجية كل يوم.

– تمام، خلينا نبتدي من الأول واحكيلي عرفتوا بعض إزاي؟

– عرفته من خلال حد من اصحابي، كنا كلنا بنخرج شلة سوا، يوم ورا يوم ابتدينا نتكلم بعدين قربنا من بعض لحد ما لقينا نفسنا عندنا نفس الاهتمامات، كان طيب وحنين وجنتل أوي مع كل الناس اللي حواليه وحبيته.

– إنتِ بس ولا هو كمان حبك؟

– إحنا الاتنين، بس أنا حبيته أكتر وطلب إنه يتقدم ليّا بس وقتها طلبت منه يستنى شوية.

– إشمعنى؟

– يعني عشان كنت محتاجة أمهد لماما.

– ليه ظروفه كانت وحشة؟

– لأ بالعكس، ظروفه كويسة ونفس المستوى الاجتماعي والمادي بتاعي الحمد اللّه.. بس ماما اتعقدت من الرجالة بعد انفصالها من والدي وما بقتش تحب الرجالة.. فكان موضوع إني أقولها إني هتخطب صعب شوية عليها..

– طب ووالدك فين؟

– ما أعرفش عنه حاجة من وأنا عندي ١١ سنة، انفصل عن ماما ومن ساعتها اتقطعت أخباره وبصراحة ما فكرتش أدور عليه حتى بعد ما ماما اتوفت.

– وبعدين؟ بعد ما مهدتِ الموضوع لمامتك.

– في الأول كنت بحس إن ماما عايزة تظهر فيه أي عيب عشان أكرهه وعشان أكره صنف الرجالة كله

بس حبي لمالك وحبه ليّا كان أقوى من كل ده واتجوزنا وبدأت أحس بحاجة غريبة!

– إزاي؟

– طلب مني إني أقعد من الشغل، هو آه أنا كنت بصراحة متضايقة من شغلي وكنت بشتكيله كتير بس ما حبتش إنه يطلب مني إني أقعد من الشغل

– يمكن كان حابب يريحك؟

– جزء منه كان كده بس الجزء التاني واللي كان أكبر إن لو كنت كملت شغل كنت هبقى أعلى منه في الكارير وفي المرتب.

– تمام وإيه كمان اكتشفتيه فيه؟

– بدأت أحس إنه بيتخنق لما بروح لماما وأزورها وكان بيحاول يبعدني عنها.

– طيب ليه ما فتحتيش معاه الموضوع ده واتناقشتوا سوا؟

– فتحت.

– ورده كان ايه؟

وردة الشحر امية

– ضربني! لأول مرة مالك يمد إيده عليّا كانت بسبب نقاشنا ده.

رأيتُ الأخصائية تسجل وتدوّن كل ما أقوله لها فأردفت قائلة:

– زعقت واتعصبت عليه وساعتها اختفيت من البيت لمدة ٣ أيام! قفلت تليفوني وأجّرت أوضة في فندق، عشان ماكنتش عايزة أي حد يوصلي.. لا هو ولا ماما.. كنت حاسة إني مشوشة أوي وإني مجروحة وماكنتش قادرة أروح لماما عشان ما تشتمتش فيّا وفي اختياري..

– فكرتِ تكلمي والدك؟

سؤالها كان بمثابة سكين ينحر قلبي ويمزقه إربا..

– فكرت آه.

– وعملتِ إيه؟

– طبعًا مش هكلمه! وأكلمه ليه؟! واحد مفكرش يدوّر عليّا، هدوّر عليه ليه أنا وأكلمه.. هديت وفتحت تلفوني ورجعت البيت وهناك لقيت مالك متدمر وقلقان عليّا.

– يعني نقدر نقول إن مالك فعلًا بيحبك.

– كان.. دلوقتي زي ما قُلتلك مالك مابقاش مالك! ده حتى تفاصيله بتاعة زمان ما بقتش موجودة.

– تحبي تحكي أكتر؟

– لأ، أنا محتاجة أروّح البيت عشان بنتي أكيد محتاجة تاكل.

– عندك طفلة؟

– آه حطيتها في قسم رعاية الأطفال اللي عندكم في المركز، بالمناسبة لسه مخلّفاها من قريب ولحد دلوقتي ما لمسهاش ولا قرّب ليها.

– ليه؟!

– عشان كان نفسه في ولد يشيل اسمه ويشيل اسم جده، وأنا جبت بنت!

– خلاص هنفتح ملف ليكِ هنا وهتاخدي ميعاد يناسبك وتيجي لينا تاني وحاولي كمان تجيبي مالك بس هنسمعه لوحده عشان نحاول نوصل للحلقة المفقودة اللي ما بينكم.

نظرت لها بضعف وجرح مكتوم بالداخل يئن في صمتٍ ودويّ صراخه يخبط بكل قوة بين جنبات عقلي.

– أتمنى.

وتركتها وذهبت لطفلتي الصغيرة وحملتها إلى السيارة، كاد جلوسي في المركز يفيدني قليلًا حتى صُعقت لهول ما رأيته!

****

دودة الكتب حرامية

(٤)

«ريم، صفوت»

أخذت أرتب منزلي الجديد، شقة متواضعة عن الشقة التي كنا نسكنها من قبل، لكن لا يهم، المهم راحتي النفسية. بينما كنت أرتب الغرف، سمعت جرس الباب يرن فهرعت لأفتح لجمانة.. صديقتي منذ عشرة أعوام، وصديقة الحياة.. متزوجة ولديها طفل وحيد، تعشق حياتها كثيراً. زوجها من أشهر رجال الأعمال، يغدق دومًا عليها بالهدايا والمال ويجعلها تسافر وقتما أرادت وأينما شاءت. تشتري لي الكثير من الهدايا وتجعلني أخجل من حبها وكرمها عليّ. تسعى دومًا لتهدئتي حين أخبرها بشكّي في تصرفات زوجي.

- يا بنتي حرام عليكِ نفسك وحرام عليكِ جوزك! مفيش راجل يا ريم هيستحمل كل الشك ده.

- تصدقيني لو أقولك تعبت؟ واللّه تعبت وعايزة أبطل شك.

- طب فهميني إيه اللي بيخليكِ تشكي فيه أصلًا!

سكتُّ قليلًا وشردت بعيداً ثم أفقت على نظراتها التي تترصدني بعدم فهم.

– ما أعرفش بقى، وبعدين أنا جايباكِ تساعديني مش تقعدي تقطميني.

– طب بالراحة يا ريم، احكيلي انتِ مسكتِ على صفوت أي دليل؟

– لا! ما أعرفش.

– سمعتيه بيكلم حد؟

– برضو لأ.

– شفتيه في أي مكان مع أي واحدة؟

– تؤ..

– طيب يبقى كل اللي في دماغك دي وساوس وشكوك على الفاضي لو ماطردتِهاش برّه دماغك هتتعبي أوي.

– إنتِ عارفة يا جُمانة إني بستغربك أوي؟

– إشمعنى؟

– إنتِ إزاي عمرك ما شكيتِ في جوزك! ده رجل أعمال مشهور ومعروف وناجح يعني مليون واحدة تلف عليه.

- عشان واثقة في نفسي وفي حبه ليّا.

- مهما كان يا جمانة! إنتِ ما بتقريش كمية القصص اللي بتتكتب على الجروبات بتاعة المشاكل اللي على الفيس بوك عن الخيانة برغم وجود الحب ما بين الزوج والزوجة؟

- آهو أنا بقى عمري ما اشتركت في أي جروب عبيط ومريض وأهبل، عشان الجروبات دي هي اللي عاملة فيكِ كده ومخلية كمية الوساوس دي تأثر على بيتك وعلى حياتك.

- بالعكس بقى، دي بتفتح عنيّا.

- بتفتح عنيكِ، بذمتك إنتِ مقتنعة بكلامك ده؟ طب بلاش تعالي كده جربي تعملي عشوة حلوة النهارده لصفوت وتلبسي فستان جديد وتعملي شعرك واتناقشي معاه بالراحة في اللي بيخليكِ تشكِ فيه وأنا أبصملك إنكم هتوصلوا لحل يريحك مليون مرة عن إنك لو دخلتِ تكتبي بوست على جروب من الجروبات دي.

- أنا مش عارفة إيه سبب كرهك الفظيع للجروبات دي، رغم إنهم بيقدموا أوقات كتيرة حلول حلوة.

- عشان أسهل وأول وأبسط حل عندهم، اتطلقي! فواحدة هبلة زيك تصدق كلامهم وتخرب بيتها.

- لا طبعًا، طلاق إيه بس فال الله ولا فالك.. أنا بحب صفوت أووي.

- ولما انتِ بتحبيه أوي، غاوية نكد وعكننة على نفسك وعليه ليه؟

- غصب عني والله، قلبي بياكلني وبيقولي فيه حاجة بس إيه هي ما أعرفش.

- ده مش قلبك! ده شيطانك.. اسمعي بس الكلام وبلاش تخربي بيتك.

- حاضر، مشكلتك بتعرفي تقنعيني.

- عشان كلامي نابع من عقل بيفكر مش قلب أهبل وعبيط.

****

عدت من الخارج ودخلت المنزل بكل هدوء، لا شيء تغيرا الصمت يعتري المكان بجدارة وامتياز، لا أحب هذا المسكن كثيراً ولم أكن أقطن هنا في السابق.. في السابق كان لدي مسكن آخر ولكن كما ذكرت رحّالة مثلي يمل سريعًا ويحب التغيير..

لذا أخشى دومًا من الارتباط. أخشى أن أحب فأملّ سريعًا فأوجعها. مَن هي الفتاة التي ستتحمل تقلباتي المميتة؟ لا يوجد أحد! أنا عاشق للحرية، للجنون، للتمرد والتذمر.. أنا قلب هاوٍ ومرعب للإناث.. في الصيف الماضي، سافرت لليونان وهناك وبحُكم عملي قابلت فتاة مصرية جميلة، أعترف بأن جمالها حرك ذاك الوغد الساكن في أحشائي.

- تعرف يا سامو، بحسك غريب أوي.

- إزاي؟

- ساعات مجنون أوي وساعات هادي وساعات بخاف منك.

- ليه؟

- بخاف لما بتتعصب، بتتغير وكأنك مش إنت! كأنك واحد ما أعرفهوش.

ابتسمت بهدوء واقتربت جدًّا من عينيها لأستنشق من بينهما ذبذبات ذعرها ثم نفخت في وجهها دخان سجائري:

- إنتِ فعلًا ما تعرفنيش.

- بتحب تكون غامض إنتَ؟ صح؟

- هههه جداً.

انتهت علاقتي بها بعدما أنهيت عملي هناك، لا أنكر أني أشتاق لها في بعض الأوقات ولكن إذ شعرت بأن الشوق سيغلبني، فأنفض ذكراها عن عقلي وقلبي سريعًا.

فتحت دفتري الذي أدوّن فيه ملاحظاتي للعمل وشرعت أفكر إلى أين سأسافر هذه المرة بعد انتهاء المشروع الذي أعمل عليه، أحب التخطيط جداً فلست من هؤلاء البشر الذين يعيشون في هوجاء وفوضى على الرغم من تمردي دومًا! وبعدما استقررت فتحت جهاز الحاسوب الشخصي وفتحت أحد الملفات الخاصة عليه وشرعت أشاهد مقاطع أحب مشاهداتها كثيرة. قطع حبل مشاهدتي الهاتف واسم والدي الذي يتوسط الشاشة، ترددت كثيرًا قبل أن أجيبه في النهاية برتابة وجمود:

- أيوه.

- إزيك يا ابني، واحشني أوي.

- أنا الحمد اللّه، إنت بخير؟

- لا مش بخير، من ساعة ما والدتك اتوفت وانت قررت تبعد وتسافر وأنا دايمًا لوحدي.

قاطعته سريعًا:

- بابا أرجوك، بلاش الكلام بتاع كل مرة ده.

- يا ابني إنت بين كل سفرية وسفرية بتقعد أدّ كده ولا بشوفك ولا بتشوفني! والشغل كله رميته ليّا وبقيت تشتغل في حجات أنا ما أعرفش عنها حاجة.. وما بقتش تزورني حتى ولا راضي تيجي تقعد معايا هنا تاني..

- النقاش في الموضوع ده انتهى..

- بس يا ابني...

قاطعته بحدة ونبرة باردة جدًّا:

- بابا، أنا مضطر أقفل، عندي اجتماع مع ناس تبع الشغل.. سلام.

أغلقت الهاتف وحاولت أن أعد للعشرة حتى أهدأ ولا أفجّر الشارع برمته من غيظي المكتوم، ذرات المقت كانت تركض سريعًا بين كرات دمي تفور وتثور، وعندما وصلت لرقم عشرة كانت هي من أتت في مخيلتي فهدأ الطوفان الجامح!

****

«آسيا، يوسف»

كنت في منتصف أحلامي عندما بدأت أستوعب رنين هاتفي، أجبت وأنا نصف نائمة:

– آلو..

– إنتِ لسه نايمة حبيبتي؟

– يوسف؟ إيه ده إنت نزلت؟

– آه، كان فيه شغل ضروري أخلصه.

– الشغل ده ما كانوش قادرين يصبروا عليك يعني؟! ده إحنا لسه متجوزين إمبارح.

– معلش حبيبتي، عشان كده صحيت بدري وقلت أسيبك نايمة وأخلصه وآجي ننزل نتغدا سوا.

– ممم طيب.

– اصحي بقى واستعدي.

أغلقت الهاتف ولكني تضايقت كثيرًا، لا أعرف كيف أفسر شعوري ولكن كنت أحبذ لو صحوت ويوسف

نائم بجانبي مثلما أشاهد في الأفلام! ما هذا الصباح الذي نهضت عليه! نهضت على صوت هاتفه يخبرني بأنه كان يعمل؟ أي عمل هذا الذي يكترث له وهو معي؟ أغار ربما؟ من حقي أو لا؟ لا يهمني الصواب من الخطأ الآن ولكن كل ما أريده أن أشعر بأني مهمة عند يوسف مثل اهتمامه بالعمل.. على الكل يجب أن أرتدي ثيابي حتى لا يأتي وأنا ما زلت في فراشي، هه بينما هو كان في العمل!! يالهذه المهزلة! يعمل في ثاني أيام زواجه. فلأذيعها في برنامجي حين أعود وأخبر الناس عن تلك النكتة الجديدة « هل رأيتم الزوج الذي غادر فراشه نهار «الصباحية» وترك زوجته الحمقاء في فراشها وحيدة وذهب إلى العمل» ثم أضع صورتنا ليضحك العالم على خيبتي.. آآه إحباط كبير تسببت فيه يا يوسف!

****

صوتها أحفظه جيداً حين أخبرها شيئًا لا تستسيغه.. سأشتري لها باقة من الورود الحمراء وعلبة من الشوكولا المفضلة لها، لا أريد أن أحزنها في أول أيامنا سويّا.. ولكن ماذا أفعل في نداء العمل؟ هذا ما يجعلني مختلفًا عنها، العمل من أولوياتي دومًا ليس أهم من آسيا بالطبع ولكن حين أسمع النداء، ألبّيه فورًا ما دام لن يتعدى على حقوقها وهي كانت نائمة وكنت أعلم أنها لن

تصحو إلا في وقت الظهيرة! فلماذا أجعل الوقت يضيع سُدى! هو منطق عملي لا أكثر، وأدرك جيداً أنها لا تستوعبه.. الآن سأراها تبتسم وخلف ابتسامتها دمعة رقيقة من ظنون سوداء تخبرها بأن العمل أهم منها..

– وحشتيني.

– وانت أوي.

– عارف إنك زعلانة عشان نزلت الشغل تاني يوم جواز، بس واللّه الشغل مش أهم منك ولا حاجة.

– أومال؟

– أنا قلت انتِ هتنامي أكيد للضهر وأنا صحيت بدري فقلت أستفيد وأخلّص حاجة ضروري بدل ما أفضل صاحي وأضيّع وقتي على النت ولّا التفلزيون.

– ماشي خلاص.

– مسامحاني؟

– آه.

– بجد؟

اقتربت نحوي برائحة عطرها التي تثير جنوني واحتضنتني بحب فانهلت عليها بقبلاتي وغرامي وهمست لها:

– بحبك.

– بحبك أوي.

– آسف لو ضايقتك من غير ما أقصد.

– ولا يهمك، خلاص نسيت.

– عارفة إيه أكتر حاجة بحبها فيكِ.

– إيه؟

– قلبك الطيب ده.

– بس خلي بالك مش هيبقى طيب دايماً.

– لا واللّه قلبك طيب دايماً.

– ربنا يخليك ليّا.

– ويخليكِ ليّا يارب.

****

«ريم، صفوت»

خرجت من الحمّام وذهبت إلى حجرتي لأكمل ارتداء ثيابي وإذ بريم تجلس على حافة السرير وتفتش في هاتفي.. كظمت غيظي وانتظرتها حتى انتهت وحين أدارت وجهها قلت لها بعنفٍ:

- خلاص خلصتِ تفتيش؟!

- أنا كنت...

قاطعتها بنقم:

- يا ترى لقيتِ صورة ليّا معاها؟ طب فتحتِ المسجات وقرتيها كلها؟

- هي مين دي!

أخذت الهاتف من يدها بقوة وصرخت في وجهها:

- اخرجي بَرّه الأوضة!

- إنت بتطردني؟!

أكملت ارتداء ملابسي ودفعتها بعيداً عنّي فارتطمَتْ في الجدار ثم تركت لها المنزل وخرجت..

* * * * * * *

خرج صفوت من المنزل وتركني وأنا في قمة ذهولي مما حدث منذ قليل! أعلم أنني دفعته للغضب ولكن شيئًا ما داخلي يؤرقني كعادته.. بحثت في هاتفه جيداً ولم أجد أي شيء.. وبينما كنت واقفة في المطبخ أعدّ الطعام سمعت صوتًا غريبًا وكأن أحداً قد جاء! ظننته صفوت فخرجت سريعًا لأرى ولكني وجدت صورة ملقاة عند عتبة باب الشقة! نظرت من العين السحرية سريعًا، فلم أجد أحداً، ففتحت الباب وأخذت أنظر من الدرج بالأعلى والأسفل وأيضًا لم أجد أي حركة أو شخص.. تساءلت بيني وبين نفسي من هذا الذي وضع الصورة عندي؟ نظرت إلى الصورة فوجدتها صورة مبهمة تمامًا وغامضة! إنها صورة المقهى الموجود في الشارع الخلفي وظهر صفوت من الخلف ومرسوم حوله دائرة حمراء! لم أفهم الصورة ولم أفهم المغزى من وضعها لي بهذا الشكل المخيف!

* * * * * * *

(٥)

«خالد، إليانا»

أخبرني خالد بأن والدتي هاتفتني من الإمارات تخبره بأنها اشتاقت لي كثيرًا واشتكت له من سوء تقصيري.. ضحكت كثيرًا كالمجنونة.

- إيه اللي بيضحكك أوي كده يا إليانا؟

- بقى ماما اشتكت ليك إني مقصرة في حقها وإني ما بتصلش؟

- آه..

- وإني وحشتها هي وبابا.

- أيوه، هو انا هكدب عليكِ!

- لا أصل انت أكيد بتتكلم عن أي حد تاني غير أهلي.

- إشمعنى؟

- عشان أنا ما أفرقش معاهم أصلًا.

- ليه بتقولي كده؟

- معلش هُمّا يعرفوا إيه عني؟ هُمّا بيكلموني كام مرة أصلًا؟ يا ابني دول لو يطيلوا يستعروا مني هيعملوها.

- ليه كل الأفورة دي!

رمقته بنظرة نارية:

- لا أنا مبأفورش! إنت عارف ليه كل مرة بنتحر وربنا يكتبلي عمر جديد بأكد دايمًا عليك إنك ما تقولهمش؟ عشان صدقني مش هيعملوا حاجة! مش هينزلوا مصر مخصوص ويجروا عليّا بلهفة عشان يشوفوني.. أنا قبل ما أعرفك انتحرت مرة مجرد ما خرجت من المستشفى افتكروا إن خلاص! الموضوع كده بقى تمام.. عملوا اجتماع مرة مع العيلة ومع صحابي عشان يعرفوا السبب ومع الأيام رجعوا ونسيوا الحادثة..

- على فكرة أنا متأكد من حب أهلك ليكِ.. إنتِ بس اللي حساسة معاهم يا إليانا.

- لأ! إنت ما تعرفش إهمالهم ليّا.. من وأنا صغيرة مش من دلوقتي بس.

- كل الحكاية إن أهلك مش عاطفيين زيك.

احتقنت الدماء في عروقي..

– قُلتلك إنت ما تعرفش حاجة! ماحدِّش عارف أنا كل يوم لما بنام بيحصلي إيه..

نظر لي خالد بشيءٍ من الدهشة وقال:

– أنا نفسي أعرف إيه بيحصلك.

– مية ألف سور وسور بيتبنوا جُوَّه، بحس نفسي بغرق وماليش صوت حتى أصرخ عشان أنادي حد ينقذني.

– مش يمكن ده وهم، وهم بتحاولي تعيشي جواه عشان تفضلي في المكانة اللي انتِ فيها.

– عارف يا خالد؟

– إيه؟

– ولا أقولك، مش مهم خلاص.

– لأ قولي..

نظرت له بجفاء:

– مش مهم كنت هقول إيه.

- لا مهم، قولي كنتِ عايزة تقولي إيه.

- صدقني مش مهم عشان هو مجرد وهم.

وأدرت له ظهري وذهبت أسبح في ملكوت أوهامي من جديد وحدي.. فخالد على الرغم من ولهه وولعه بي لن يفهم أبداً ما أشعر به قَط.. الوحدة والوهم خلقوا لي، فلماذا أنكرهم؟

****

فقدت كل سبل الحوار معها، لم أقصد إهانة مشاعرها ولكني أردت أن أجعلها ترتدي رؤيتي وتنظر للموضوع من الخارج، أريد أن أكسر تلك الغرفة العفنة التي تحبس بداخلها روحها، معتقداتها، أفكارها وكيانها.. أردت أن أحرِّرها من أسرِها علها تجد بي طوق نجدتها ولكن هيهات! يا لحماقتي فزدت البُعد بُعداً وطالت المسافات بيننا.. اليوم بفضل سذاجتي خلقت حاجزًا جديداً.. لم أقصد؟

دخلت إلى الحجرة خلفها وجلست بجانبها على الفراش..

- حبيبتي، أنا آسف لو قلت أي كلمة ضايقتك في نقاشنا.

– لا عادي، أنا قُلتلك العيب مش فيك.. العيب فيّا.

– ولا فيكِ، أنا بس ساعات برمي دبش كده وأنا ما أقصدش.

– خالد هو انت ليه حبتني؟

– مش عارف.. بحبك كده بكل ما فيكِ.

– أيوه ليه؟

– هكدب لو قُلتلك ليه.. بس قلبي بيرجف في بُعده عنك وقلبي ملك ليكِ.

– خالد هو أنا ممكن أسافر لوحدي كام يوم؟

بلعت غصة قهري وحاولت أن أبتسم:

– ليه لوحدك؟

– حابة أكون لوحدي شوية، ممكن؟

– بس هبقى قلقان عليكِ وخايف.

– لأحسن أعمل في نفسي حاجة يعني؟

- لأ ما أقصدش ده بس في المجمل أنا بخاف وبقلق عليكِ.

- دي رغبتي يا خالد، شوف هتحققها لي أو لا.. تصبح على خير.

ثم أدارت ظهرها لي مجدداً وأغلقت الإضاءة ونامت وتركتني أعبث مع صرخة على شفى الانفجار!!

مجنون أنا حتى أوافق على سفرها، بالطبع لا أستطيع التفريط بها.. سوف أرفض رفضاً قاطعاً ولتغضب كيفما شاءت فلست واثقاً في جلوسها بمفردها.. إذا رغبت في السفر فعليها أن ترغب في السفر معي.. لا لن أتركها تبتعد عني كلما أرادت وكلما شاءت.. عليها أن تعي بأنها زوجتي وأن راحتها بين كنفي وليس خارجه.. وإن ضاقت بلاد العالم عليكِ يا إليانا لابد أن تدركي أن البراح في عيني أوسع من الكون بحاله.

****

«مالك، ليال»

بعدما وضعتُ طفلتي في المقعد المخصص لها بالخلف، رأيت مالك يتجه إلى نفس المركز. يا إلهي! ما هذه الصدفة؟ هل مالك أيضاً يتردد على هذا

المركز؟ ومنذ متى؟ ولماذا لم يخبرني؟ انتظرته يدخل وركضت هناك مجدداً إلى المركز وسألت حارس المركز عنه:

– هو اللي لسه داخل دلوقتي ده، أول مرة يجي؟ ولا بيجي هنا على طول؟

– لا حضرتك بيجي بقاله فترة.

– آه.. طب شكراً.

وعُدتُ إلى سيارتي وركضت إلى المنزل، إذاً فظنوني في محلها. مالك تغيَّر كثيراً ولم يعد مثلما كان.. ولكن هل عليّ أن أواجهه؟ أم ماذا؟ دلني يا اللّه على الحل.. ما يثير فضولي الآن، بماذا يخبرهم مالك عني؟ وممن يعاني إذ كنت أنا الضحية وهو الظالم.. هو مَن جعلني اليوم بمحض الصدفة أن أثرثر لتلك الأخصائية عنه لعلها تنجدني.

انتظرته حتى عاد.

– كنت فين؟

– مافيش كنت بلفّ بالعربية! غريبة بتسألي يعني؟

- من حقي.

- آه طبعًا من حقك بس مش متعود على ده منك.

- اتمشيت بس؟

- آه.

- بس؟

- أيوه؟ مالك في إيه؟

- مافيش.

- إنتِ بقى رُحتِ فين؟

- كنت زيك بتمشى.

حاول أن يقترب مني ولكن ابتعدت عنه بخوف..

- إنتِ بقيتِ بتخافي مني ليه يا ليال؟

- عشان انت واحد ما أعرفوش.

- ليه؟ أنا زي ما أنا.

- لأ انت واحد ما أعرفوش خالص.

اقترب بهدوء وحاول أن يحتويني، حضنه دافئ ولكن لا، يجب أن أبتعد عنه فهذا ليس زوجي.. لن يخدعني، فالخيال ليس مطابقًا للواقع! وهذا الرجل الماثل أمامي خيالٌ وواقعه وحشٌ مفترس!

ابتعدت عنه بهدوء وتعذرت بأني منهكة ومرهقة وركضت لغرفتي، ألملم شتاتي وخيبتي.. جلست في الغرفة منهكة، أريد أن أصرخ بكل جوارحي ولا أستطيع وكأن جسدي شُلّ.. بكت طفلتي ولم أستطع أن أتحرك، زاد صراخها فبدأت أبكي وكلما زاد بكاؤها كلما قادتني إلى حافة الانهيار أسرع.. دخل مالك غرفتي وهو مذعور يسألني:

– فيه إيه حبيبتي؟ حصل إيه؟

نظرت له بضعف وأردفت قائلة:

– تعبانة! والبنت بجد تعبِت أعصابي، عياطها كتير أوي ومستفزا! مش عارفة حتى آخد أدويتي اللي الدكتورة كتبتها ليًا لأنها بتنيمني وأخاف أنام وما أحسش بيها ولا بعياطها!

ظل يحدق بي دون أن يتفوه بأي حرف ثم قال بأسى:

– أدوية إيه؟

- قلتلك الدكتورة يا مالك قالتلي إني عندي اكتئاب ما بعد الحمل وبتديني أدوية كعلاج للاكتئاب ده!

بلا مبالاة تلفت حوله ينظر في أنحاء الغرفة ولم أفهم إلى ماذا كان ينظر ثم اقترب مني وقبّل جبيني وقال:

- تصبحي على خير..

تركني وذهب! لم يعر أي اهتمام لما تفوهت به! أخذت الطفلة الصغيرة في يدي وجلست أهدهدها حتى تكف عن البكاء ولكن ماذا عني أنا؟ من يهدهدني إذا كان زوجي يطعنني بالحزن كله داخل قلبي!

****

«خالد، إليانا»

عدت إلى المنزل بعد يوم تسوّق طويل وشاق، كنت في حاجة إلى الراحة جداً وما إن دخلت حتى وجدت الشقة تغوص في ظلامٍ شديدٍ لدرجة ظننت أن التيار الكهربائي منقطع.. اقتربت من الإضاءة لأتأكد فإذا بكل الأضواء تفتح فجأة وصوتٌ يصدر من مجموعة كبيرة بشوق وفرح وسعادة.

«يلا حالًا بالًا بالًا هنوا أبو الفصاد، هيكون عيد ميلاده الليلة أسعد الأعياد،هنوا أبو الفصاد، هيييه»

نظرت إلى الوجوه الكثيرة من حولي وقلت لذاتي: «ما هذا بحق الجحيم!» ثم رأيت خالد قادمًا بكعكة عيد الميلاد من المطبخ وهو في أوج سعادته:

– كل سنة وانتِ طيبة يا روحي، النهارده عيد ميلادك.

واقترب يقبّلني، كنت أريد أن أدفعه بقوة بعيدًا عني وأجعله يرتطم في الجدار فينشق إلى نصفين أو أن أصفعه على وجه ليدرك بأن ما فعله غير مرحب به تمامًا عندي.. كيف بحق الجحيم جمع هؤلاء الأصدقاء القدامى هنا! كيف وصل لهم ومتى وأين؟ يعلم جيدًا أنني لا أحب التجمعات الكبيرة وأنزعج جدًا منها.. لا بُد أنه جُنَّ وفقدَ عقله تمامًا.. هل نسي كيف قطعت علاقتي بكل هؤلاء من بعد تخرُّجي من الجامعة!

نظرت له بحنقٍ وحاولت أن أبتسم، لا أدري إن كانت ابتسامة ارتسمت فوق محياي أم نظرات اشمئزازي ممن حولي كانت أقوى واستقرت بوضوح فوق وجهي..

– شكرًا.

تهافت الجميع يسلم عليّ بحرارة ويقبّلني بودّ وشوقٍ وجاءتني إحداهن تُدعى سمر:

– أنا لما لقيت خالد بيتصل بيّا، ما كنتش مصدقة نفسي! لأ وإيه بيعزمني على عيد ميلاد ليكِ بجد ما تتخيليش إحنا الشلة كنا مفتقدينكم أد إيه!

– تسلميلي يا سمر.

– لسه زي ما انتِ ما اتغيرتيش.

– إزاي يعني؟

– يعني الابتسامة اللي بحدود واللي تحسي إنك بتعافري عشان تخرجيها! ههههه

ضحتكها الكريهة تثير اشمئزازي أكثر.

– عادي ولا انتِ اتغيرتِ، شكلك لسه مستهتر زي زمان.

– ههههه جايز، المهم انتِ فين يا بنتي.. بعدتِ إنتِ وخالد عننا كلنا.. بتعملي إيه في حياتك؟

– ولا حاجة!

– إزاي يعني مش فاهمة.

– ما بعملش أي حاجة في حياتي يا سمر.. إيه مش مفهوم فيها!

نظرت لي باستغراب ثم ابتسمت قليلًا:

– تمام، هروح أشوف الباقي بيتكلموا في إيه، على بال ما تستوعبي السربرايز.

هرولت سريعًا إلى حجرتي وجاء خلفي خالد، سكبت كل ما بي من غضبٍ في جوفه:

– إيه القرف اللي انت عامله ده!

– قرف؟!

– أيوه قرف! عشان إنت عارف كويس إني بقالي فترة كبيرة أوي ماليش علاقة بأي حد فيهم.. إزاي تجمعهم كده وكمان ما أعرفش.

– أنا قلت دي حاجة ممكن تخرجك شوية من الموود.. وده عيد ميلادك يعني.

– مش عايزة عيد ميلاد ولا زفت.. ما بحبش أحتفل بيه .. مش عايزة أشوف حد يا أخي.. أوووف إفهم بقى وما تبقاش مقرف.

– مقرف؟! أنا آسف يا إليانا إني مقرف! كل همي كان إني أفرّحك.

– مش عايزة أفرح مش عايزة! حرام عليك عمال تضغط عليّا بشكل رهيب لدرجة تخنق.

– طيب اهدي .. مفيش داعي لكل ده.. وعشان الناس بَرّه ما تحسِّش بحاجة.

– أنا هخرج بَرّه وهي نص ساعة بالكتير وتفضّي الزفت اللي بَرّه ده وتخليهم يمشوا بأي طريقة..

نظر لي بعينيه الحزينتين وقال باستسلام:

– حاضر، أوعدك أنهي القرف ده بسرعة.

وما إن خرج لهم حتى أجهشت بالبكاء.. تقتلني محاولاته وسعيه الدائم ليجعلني إنسانة صحية ويقتلني أنني مريضة، لا أشعر بكل تلك الأشياء الجميلة.. مسحت دموعي سريعًا وبدّلت ثيابي وخرجت لهم بابتسامة منافقة سقيمة قد تقتل كل ما يأتي أمامها ويعترضها..

جاءت لي سمر مرة أخرى وقالت:

– بقولك إيه إحنا قلنا نروح بقى نخرج في أي حتة، تجيبي نروح مكان معين؟

– لأ..

– ده عيد ميلادك، يعني الخروجة على شرفك.

– لأ ما أنا مش هخرج معلش معاكم.

– إيه! إزاي؟

– أصل أنا تعبانة أوي وواخدة دوا بينيمني.

– ممم .. هو أنا ممكن أسألك سؤال بس من غير زعل؟

– اسألي..

– هو انتِ خالد مابيصعبش عليكِ؟

– نعم؟ أفندم؟

– أصل إنتِ تقريبًا قطعتيه من كل أصحابه بتوع الجامعة، وما بقيناش نشوفكم وما بقاش حتى يشوف صحابه وتقريبًا معظم الوقت إنتِ منكدة عليه!

لم أتمالك نفسي، خرجت عن السيطرة وخرج الوحش القابع بداخلي، صرخت في وجهها باستنكار شديد:

– إنتِ مين إدالك الحق تتكلمي معايا بالشكل ده! تعالى يا خالد شوف الناس اللي إنت رجعت تكلمهم تاني!

ركض خالد سريعًا لي وظل ينظر لنا سويًّا بعدم فهم، بكت تلك اللعينة أمامه لتجذب شفقته قائلة:

– واللّه يا خالد ما قلت ليها حاجة! أنا بجد كنت عايزاها تخرج معانا وكنت بحاول أصلح لها وجهة نظر غلط هي عايشة عليها ومن الصبح شايفة هجوم منها رهيب!

نظر لي خالد بحنق:

– فيه إيه يا إليانا!

– في إيه! إنت صدقت كلام الممثلة دي؟!

– إليانا.. عيب..

– هو إيه العيب! العيب على اللي وافق إنه يحضر المهزلة اللي انت عاملها دي وعامل ليك حساب..

وتركتهم وذهبت إلى حجرتي دون أن ألتفت لأي عنقٍ ينظر لي ببلاهة واندهاش..

****

يا إلهي، فضيحة لم تكن في الحسبان.. كنت أريد أن تنشق الأرض وتبتلعني.. ما حدث الآن كارثة من جميع النواحي.. نظرت لسمر ولأصدقاء الجامعة القدامى –الذين انقطعت عنهم أعوامًا– ببؤسٍ وحزنٍ شديدٍ.

– أنا آسف يا جماعة، واضح إن إليانا أعصابها تعبانة شوية.

بكت سمر أكثر..

– إنت مش متخيل قالتلي إيه بجد ولّا كانت بتتعامل معايا إزاي يا خالد! أنا اللي عايزة أفهمه ليه قُلتلنا نيجي لما هي مش حابة وجودنا كده!

– لا إنتِ فاهمة غلط.. إليانا بس بتاخد دوا بيأثر على أعصابها ونفسيتها.

– متحاولش يا خالد تبرر ليها، واضح أوي من ساعة ما جينا إنها مفرحتش حتى بمفاجئتك ليها! ده بدل ما تشكرك.. دي مقدرتش تعبك عشانها!! دي لا يمكن تكون إليانا بتاعت زمان..

كلام سمر زاد حنقي أضعافًا مضاعفة، لا أدري كيف خطرت لي فكرة أن أدعوهم بعد كل هذه السنوات! إنه اليأس الذي يدفعك لطريق الهذيان

علك تجد فيه الإجابة أو الراحة! يأسي مما آلت إليه أموري مع إليانا هو الذي دفعني للماضي، لعل في الماضي ابتسامة مخبأة.. ولكن هيهات، لم يكن الماضي سوى شوكٍ كبير غُرس داخل قلبي بلا رحمة.. اعتذرت مجدداً للأصدقاء وطلبت منهم المغفرة على ما بدرَ من إليانا اليوم ورحلوا جميعهم.. جلست وحدي في الصالة أفكر قليلًا ثم نهضت إلى الغرفة..

– إيه اللي حصل ده؟!

– الحيوانة تقولي إزاي إنت مستحملني!

– هي قالتلك كده؟

– أيوه! ما تروح تقولها.. إلا انت إزاي مستحملني يا خالد؟!

– إنتِ عارفة كويس إني بحبك.

– وعشان كده حبيت تكسفني قدامهم صح؟ حبيت تحرجني قدامهم كلهم.

– إنتِ بتقولي ايه!

– ما هو لما تتعمد تعزمهم وتفاجئني بيهم وانت عارف كويس أوي إن علاقتي بيهم من بعد الجامعة

ماتت وانتهت يبقى قاصد تحرجني.

– وهفكر كده ليه!

– عشان تثبت لنفسك إنك دايمًا إنت الكويس وأنا اللي غلط! دايمًا إنت الصح وأنا اللي لأ..

– عمري ما فكرت كده..

– لا بتفكر وبدليل اللي إنت عملته النهارده..

– أنا كل اللي عملته إني فكرت أفرحك!

– تفرحني بمين؟ بدول؟

– ودول مين يا إليانا؟! دول أصحابنا بتوع زمان..

– زمان.. آديك قلتها بنفسك زمان يا خالد! وزمان خلاص خِلِص.

– إيه اللي خلصه؟

– بالنسبة لي انتهى، الناس دي دورها في حياتي انتهى.

– ما كنتش أعرف ولو كنت أعرف عمري ما كنت هفكر أضايقك.

- ولحد إمتى هفضل أنا أقولك إيه بيضايقني وإيه لأ! ليه ما تحاولش تحس لوحدك.

- أحس؟! لا أنا بحس بكل حاجة فيكِ.. إنتِ بس اللي مش واخدة بالك!

- إنت بطلت تعرف تحس بيّا من زمان.. واضح إنك لسه معاهم هما هناك مش معايا أنا.

- لأ أنا طول عمري معاكِ إنتِ بدليل إن ما بقاش ليّا علاقة بحد فيهم.

- آآه.. فحبيت النهارده تحيي ده على حسابي! على حساب كرامتي أنا.

- لو سمحتِ بطلي تلفي كل حاجة بقولها لصالحك..

- مين اللي بيلف ويدور يا خالد!

- إنتِ عايزة إيه دلوقتِ؟

- عايزة أقعد لوحدي.. وتقدر إنت تتصل بيهم تلحقهم مطرح ما هيروحوا عشان ما تقولش إنِ قطعتك عنهم..

- فعلًا!

– أيوه..

– بذمتك عمرك شفتِ حد بيدوّر على النكد يوم عيد ميلاده زي ما بتعملي كده.

– شكرًا.

– بلا شكرًا بلا نيلة دي ما بقتش حياة تتعاش.

تركتها وخرجت. لأول مرة أشعر بالنفور منها، لم تعد تلك الإنسانة هي ذاتها التي أحببتها من قبل.. في كل مرة أحاول أن أسعدها تنقلب الحكاية وتأخذني إلى القاع معها.. احترت من أمرها ولم أعد قادرًا على إرضائها بأي شكلٍ من الأشكال.. باللّه كيف سأرضيها وهي لا تحبني! نعم الآن يجب أن أدرك تلك الحقيقة، لم تحبني إليانا أبدًا.. تزوجتني ظنًا منها بأنها ستجد الحب والسلام اللذين تبحث عنهما ولكنها لم تجد هذا رغم كل ما أحاول أن أقدمه لها.. أين سأذهب لست أدري.. فجميع بقاع الأرض لا تسع لجرحي.. أنا بلا مأوى حتى يعود لي عقلي الذي ذهب سُدى في مدارك إليانا..

****

إنه يوم مولدي، اليوم الذي جئتُ فيه إلى هذا العالم الكبير.. اليوم الذي جعلني أضحوكة لكثير

من البشر اليوم.. وجوههم مألوفة ولكن حديثهم بارد.. كل طرق الوصال بيننا انقطعت منذ زمن وحاول خالد بكل سذاجة أن يحييها.. أحمق ليظن بأني قادرة على بناء جسور الود مرة أخرى معهم أو مع أي شخصٍ آخر.. أنا روح تهوى كل ليلة إلى مجرتها المظلمة.. كهف يتغلغل بداخله سقم المشاعر.. كل ليلة تسير روحي على جسر طويل مغلّف بأنياب الحرمان، تنغرس تلك الأنياب داخل قلبي تفتكه.. ويأتي زوجي المصون بغبائه يحاول أن يسعدني.. سعادته حمم بركانية تشوّه ذاتي.. تدفعني لتفكير واحدٍ فقط.. تفكير يسيطر الآن عليّ وبشدة.. نهضت ببرود وشعري يتطاير فوق وجهي وسرت كجثة غارقة في وحل العذاب إلى حد النخاع! دخلت الحمّام ونظرت حولي بهدوء، نظرة تليها الأخرى، نظرة تفحص كل شيء وأقلّ شيء.. ثوانٍ قليلة ووقعت نظرة الصقر الذي بداخلي، العطش إلى الاحتضار، على سائل تنظيف المرحاض «ديتول».. ذهبت إليه بخطوات جامدة، فتحت الغطاء ووضعت لي القليل في كوبٍ صغيرٍ.. نظرت لوجهي في المرآة.. وجه شاحب خالٍ من أي مشاعر أو شفقة أو رحمة.. وجه يحمل ندوب الحياة وغدرها داخل حدقة عيني.. ثم نظرت إلى الكوب مرة أخرى وتجرعته مرة واحدة..

حريق هائل نشب في جوفي! أهذا نار «الديتول» أم نار الحياة تغلي فوق سفح الحزن بداخلي؟! لا أعرف.. آخر ما أذكره أني حاولت أصرخ ولكن لا صوت يخرج! حريق يشتد ويضرم سعيره أكثر داخلي، وصرخة مكتومة تتلوع مع آهاتي وأنيني.. آه أين خالد؟ ليته يأتي وينقذني مما فعلته بنفسي.. خارت قواي وبدأت أتهاوى ببطء على الأرض وما زال الحريق الناشب بداخلي في أوجّ حرارته.. هذا الحريق يكوي معدتي وكل جسدي.. لا أقوى عليه.. أنا أضعف من هذا الألم.. بدأت أغيب عن الوعي ولكن لم أغلق عيني بارتياح إلا حين رأيت خالد وهو يحملني من على الأرض ويبكي!!

* * * * * * *

(٦)

«ريم، صفوت»

عدت إلى المنزل معي هدية لأهديها إلى ريم لأعتذر عن عنفي معها على الرغم من شكها فيّ، اشتقت إلى حبيبتي القديمة. تلك الأنثى الناعمة والرقيقة البشوشة.. سئمت من مركز المباحث الذي يحتل منزلنا الهادئ.. فتحت الباب لأجدها تشاهد برنامجًا نسائيًّا وتسب وتلعن بصوتٍ عالٍ، فذهبت بهدوء إليها وقبّلت وجنتها ثم وضعت الهدية بكل تواضع أمامها. التفتت لي وتفحصتني جيداً في صمتٍ:

- إيه؟

- إيه ده؟

- هدية ليكِ حبيبتي..

رفعت حاجبها استنكارًا.

- عشان؟

اقتربت لها بحُب..

– عشان بحبك وكاعتذارٍ مني على اللي حصل من شوية بينا.

– ااه قلتلي.

لا أدري لماذا دبّ الذعر في أرجاء قلبي.

– مالك يا ريم؟

– بص بقى إذا فاكر إنك جاي لواحدة في أولى ابتدائي يا صفوت فأنا فاهماك كويس أوي، وفاهمة المدرسة القديمة اللي انت خارج منها دي! فما تلعبش عليّا.

– مدرسة إيه؟! وألعب إيه؟ أنا مش فاهمك خالص؟

– الهدية دي مش عشان بتحبني ولا عشان البطيخ اللي جاي تصيع بيه عليّا بيه!

– أومال الهدية دي ليه يا ريم؟

– عشان تداري القرف اللي بتعمله من ورايا واللي مش عايزني أعرفه!

لم أتمالك أعصابي فأخذت الهدية وألقيتها بعرض الحائط ثم صرخت في وجهها حتى تطاير الرذاذ من عصبيتي:

- تصدقي بالله، اللي زيك ما ينفعش الواحد يعيش معاه! اللي زيك يعيش لوحده زي الكلب عشان يعرف حق الله ويعرف قيمة الناس اللي بيحاولوا دايمًا يشتروا سعادته وهو بيقابلهم بتخلف!

****

هل أنا مخطئة؟ لست أدري.. كدت أفقد صوابي وجعلت صفوت يلعن اليوم الذي ارتبط فيه بي.. أحبه جداً ولا أعلم لماذا كلما حاولت أن أتغلب على تلك الوساوس ينغصني قلبي أو ربما يزين لي الشيطان مثلما قالت لي جمانة؟! ربما.. لست أدري! نعم أخطأت الآن في حقه كثيرًا! لقد جاء لي بهدية تعبيرًا منه عن حبه واعتذاره، لأقابله بشكوكي.. سأذهب له وأعتذر.. ذهبت إلى حجرة مكتبه لأجده قد أوصد الباب بالمفتاح! فهاج الشيطان بداخلي مرة أخرى وطرقت الباب بجنونٍ وأنا أصرخ:

- افتح الباب ده بسرعة..

تأخر بعض دقائق وفتحه وهو يحمل هاتفه على أذنه ويقول:

- تمام يا مدحت، نبقى نشوف بكرة الموضوع ده.

وجدتني أسحب الهاتف سريعًا وأسمع المكالمة لأتأكد من أنه يتحدث مع رجلٍ وليست امرأة ويصطنع اسمًا أمامي، لأجد صوت رجلٍ يتحدث حقًا.. فعاد وسحب الهاتف مني بقسوة وأغلق الهاتف ثم دفعني للخارج وعاد وأغلق الباب في وجهي.

جلست أبكي على باب الحجرة، كيف أصبحت زوجة هادمة للحظات السعادة؟ كيف وصل بي الطريق أن أتحول كابوسًا يطرق نعيقه يوميًا فوق سماء حبيبي.. حبيبي؟ نعم حبيبي وزوجي وشريك حياتي الذي أموت حبًا من أجله.. ولكن يبدو أني غدوت امرأة ستطوق حبل الغيرة على عنقها وعنق زوجها وستشنق نفسها وتشنقه معها.. ولكن لو أستطيع أن أصف له النار التي تقلع الأمان من قلبي! لو أستطيع أن أصف له كيف أموت ألف مرة من ظنوني.. حاولت، تالله حاولت أن لا أظن ولكن كيف! كيف وأنا... لا لا، لا أريد أن أفكر هكذا.. سأطرد تلك الأفكار الحمقاء من رأسي.. سأحاول أن أعتذر عمّا بدرَ مني وسأطلب منه الغفران.. صفوت يحبني وسيغفر لي! أوليس اللّه رحيمًا بعباده الصالحين؟ وأنا صالحة في حبك يا صفوت فهل من مغفرة؟

طرقت الباب ولكن لم أسمع أي استجابة، عدت وطرقت من جديدٍ بحياءٍ:

- صفوت، أنا عارفة إني غلطت في حقك.. بس بليز افتح ليا الباب خليني أصالحك.

- ....

- صفوت أرجوك، مش عايزة أنام وانت زعلان مني!؟ أنا آسفة بجد.

- .....

بكيت بشدة وبكسرة..

- واللّه بحبك وماليش في الدنيا دي غيرك.

- روحي نامي يا ريم.

- طب افتح الباب بليز خليني أصالحك!؟

- أرجوكِ يا ريم ماتصعبيهاش عليّا وعليكِ وروحي نامي وكفاية كده!

- مش ناوي تسيبني أصالحك؟

- مش عايز أسمع أي حاجة منك، عشان تعبت منك ومن تصرفاتك وتعبت من النار اللي انتِ معيشانا فيها دايمًا..

– بس انت عارف إني بحبك صح؟

– وانتِ عارفة برضو إني بحبك بس كل حاجة وليها حدود.

– يعني ايه؟

– يعني روحي نامي عشان أنا متعصب دلوقتي.

– صفوت...

قاطعني بحدة

– قلتلك مش عايز أسمع أي حاجة منك.

– صفوت سيبني طيب أشرحلك على اللي جوايا.

فتح الباب فظننت أنه سيسمعني ولكنه دفعني مجدداً بعيداً عنه.

– حذرتك وقلتلك مش عايز أسمع حاجة بس واضح إن اللي في دماغك هو اللي في دماغك فأنا هسيب البيت كله ليكِ وهبات برّه.

جن جنوني وركضت خلفه وأنا أبكي بحرقة.

– لأ بليز عشان خاطري، لا ما تمشيش.. طب استنى اسمعني بس بليز.

ركضت خلفه ولم أنتبه للوسادة الصغيرة الملقاة على أرض الصالة فتعثرت؛ مما منحه فرصة ليخرج سريعًا وبقيت وحدي على الأرض أنوح غيابه وأنوح حزنًا لما حدث بيننا ونظرت للهدية وجلست أنعي نفسي ألف مرة!!

****

كنت أعمل في شقتي على مشروعي الجديد كالعادة حين سمعت المستأجر الجديد الذي أجّرت له الشقة يتشاجر مع زوجته وصوته مرتفع وسمعتها تبكي وتصرخ وتترجاه أن يبقى ولكن صوت غلقه للباب كان كافيًا أن يقيم كل الناس النيام في المنطقة.. ليس من عادتي التطفل ولكن يزعجني صوت الشجار جدًّا، يدب الرهبة بداخلي فأتوتر.. وجدتني أفتح باب شقتي لأجده جالسًا على الدرج وحين رآني خجل وكاد أن ينهض، فمنحته سيجارة من سجائري بهدوء:

– تعالى عندي..

– أنا آسف، بس واضح إن صوتنا كان عالي.

- ولا يهمك، تعالى بس ندخل الشقة عشان شكلك مرهق جدًا.

دخل صفوت يترنح حزنًا:

- تعبان ومخنوق أوي.

- مش هقدر أسألك وأقولك في إيه، بس لو حابب تحكي هسمعك.

- بحبها بس ما بقتش قادر على النار اللي عايش فيها دي.

- طالما الحب موجود كل حاجة بتكون سهلة بعد كده.

- كنت فاكر زيك بس الواقع بقى إن الحب مش كل حاجة.

- إزاي؟

- برغم حبي ليها وحبها ليَّا إلا إن ده مش كافي يخليها مطمنة معايا.

- جربت تتطمنها؟

- كتير

- وما زالت خايفة؟

- ما زالت.. وكل مدى خوفها بيزيد أكتر.

- حاول تدوَّر كويس على حاجة تطمنك وتطمنها.

- ولو مالقتهاش؟

- جايز تلاقيها.

- وجايز لأ!

- اطلع ارتاح ونام وسيب التفكير لبكرة.

- لأ هنزل أنام في عربيتي.

- لأ إزاي ما يصحش! نام عندي طالما مش عايز تبات في بيتك.

- حاسس لو طلعت دلوقتي ليها وشُفتها مش هتمالك أعصابي.

- خلاص نام هنا وبكرة يحلها ألف حلال.

****

صحوت في اليوم الثاني لأجدني في شقة صاحب شقتي التي استأجرتها حديثًا! أخذت بعضًا من الدقائق لأتذكر كيف وصل بي الحال نائمًا على أريكته في الصالة.. حتى تذكرت شجاري مع ريم وما حدث بيني وبينها.. لملمت أغراضي وفتحت باب شقته في هدوء وصعدت إلى شقتي لأجد ريم نائمة على الأرض.. أشفقت عليها فذهبت لها وربت فوق ظهرها بهدوء:

- ريم، خشي نامي جُوَّه على السرير.

بنصف عين مفتوحة نظرت لي وبدأت تبكي مجدداً حين استوعبت بأني عدت.

- وحشتني، ووالله آسفة..

- خشي نامي يا ريم جوة الأوضة، زمان ضهرك اتكسر من النومة دي.

- مش مهم، المهم انت ما تزعلش مني.

- ريم مش عايز أتكلم في أي حاجة دلوقتي من فضلك.

- أنا عارفة إنك مضايق من تصرفي معاك، بس أنا هحاول أبطل بجد.

- ريم...

قاطعتني سريعًا:

- بحبك وحقك عليًّا.

حاولت أن ترتمي في أحضاني ولكني دفعتها برفقٍ بعيداً عني.

- ريم...

- قاطعتني مجدداً:

- تحب نخرج النهارده سوا؟

- ريم اسمعيني..

- ولا أقولك إنت انزل الشغل وأنا هوضب البيت وهعمل غدا بتحبه وعارف هروح أشتري ليك هدية جديدة، أعتذرلك بيها عن غلطتي.

ضغطت على فك أسناني بصرامة.

- ريم ما تضغطيش عليًّا أكتر أرجوكِ.

- طب بلاش، تحب أكلم جُمّانة ونخرج معاها هي وجوزها؟

- يا ريم بقى..

- طب إيه رأيك ندخل سينما؟ نتفرج على فيلم كوميدي رومانسي، نضحك فيه شوية؟

انفجرت فيها صارخًا:

- ريم.. إنتِ طالق!

****

«يوسف، آسيا..»

انتهى شهر العسل سريعًا، وعدنا من رحلة شملت اليونان وإيطاليا، فتلك الأماكن تحبها آسيا.. وعدنا إلى العمل مجدداً ثم مرت الأيام والشهور، وفي يوم بقيت في مكتبي الموجود داخل شقتي وتوالت الاتصالات عليّ ونسيت نفسي ونسيت الوقت.. لم أشعر بانغماسي في العمل إلا حين هاتفني صديقي ليباشر معي أحد الأشياء المطلوبة مني في العمل وحين سألته عن الوقت صدمني بأنها الثانية بعد منتصف الليل، أغلقت الهاتف سريعًا وخرجت إلى الصالة لأجد آسيا عابسة أمام التلفاز..

- حبيبتي، أنا آسف واللّه.. تخيلي ماحستش بنفسي إلا لما محمود كلمني.

- تحب أحضرلك العَشا؟

- طيب إنتِ زعلانة ليه بس؟

- مش زعلانة..

- لا يا آسيا زعلانة! أنا مش عارفك من إمبارح يعني!

- عادي بقى يا يوسف.. أنا مزاجي مش تمام أوي.. المهم هقوم أحضرلك العشا وأنام.

مسكت يدها وجعلتها تجلس في حضني.

- لأ مفيش نوم، غير لما نتكلم شوية.. ممكن؟

- .....

- ممكن؟

- عايز إيه يا يوسف؟

- عارف إنك زعلانة عشان انشغلت عنك بس والله...

قاطعتني بحُرقة:

- زي ما انت مشغول، أنا كمان مشغولة! بس بجد أنا كل مرة بحس إن إنت جُوّه الشغل بتنساني

وبتنسى حياتك ودنيتك! وده بجد بيوجعني يا يوسف.

– عندك حق.. إحنا لسه برضو يعتبر متجوزين جديد وكان لازم أقعد معاكِ شوية.

– أنا ما بتكلمش بس عن النهارده، أنا بتكلم عن الموضوع ده بشكل مطلَق، عشان الموضوع ده بيعمل حساسية بيني وبينك أوي.. فأرجوك حاول تاخد بالك.

– حاضر، أي أمر تاني؟ اؤمري انتِ بس.

– الأمر للّه وحده..

– طب إيه مش هتعشيني ولّا هتسيبيني جعان كده؟

– ده على أساس فارق معاك أوي.

– أنا هتعشى عشان انتِ معايا بس.

وجدتها فجأة تلتفت يمينًا ويسارًا ثم نظرت لي:

– سمعت صوت؟

– صوت! صوت إيه؟

– ما أعرفش! حسيت إن فيه حاجة غريبة هنا في الصالة؟!

– في إيه يا آسيا؟

– مش أول مرة أسمع صوت أو أحس إن فيه حاجة غريبة أوي.

ثم أخذت تنظر حولها في كل مكان وتبحث عن شيء لا تعلم ما هو.

– آسيا، مالك يا حبيبتي؟

– مش عارفة! يمكن مرهقة.. بس إنت ما سمعتش الصوت اللي سمعته؟

– لا ما كانش فيه أي صوت!

– طيب دقيقتين وأسخّن الأكل، ما رضتش أحط الأكل عشان عارفة إنك بتحبه سخن أوي ولو بِرد ما تقدرش تاكله.

فاحتضنتها وودت لو أدخلها بداخلي.. أحب تلك الفتاة جداً، تجيد رسم تفاصيل الغرام فوق ثكنات قلبي.. تلك الفتاة تجيد غَزْل الحياة بشكل وردي يليق بي.. تلك الفتاة هي نفسي، ذاتي وملاذي..

****

اللّه وحده يعلم كيف أحب يوسف، أشعر أحيانًا بأني طفلة في تذمري وسخطي ولكن لا يروق لي فكرة انغماسه في العمل أكثر من جلوسه معي! لا يروق لي أن يبتعد ولو ثانية عني.. تلك الحياة غير منصفة معي منذ صغري وعندما قدّمت لي يوسف، أمسكت في تلك الهبة التي جاءتني من اللّه سبحان وتعالى وغير مستعدة أن تسحب الدنيا بساط الحب من تحت قدمي.. لذا أغضب جداً في بُعده.. ولا أستطيع النوم إلا في حضنه..

صحوت اليوم التالي وذهبت كعادتي إلى مكتبي لأباشر العمل وهناك التقيت بصديقاتي اللواتي دومًا أشتاق لهن.. رأيت فجر أولًا فبادرتها بابتسامة:

– صباح الخير فجورة.. وحشتيني جداً.

– إنتِ كمان حبيبتي، هجيلك المكتب عشان أوريكِ جدول البرامج اللي نزل بتاع الشهر ده.

– على الصبح كده! ما بتتأخريش؟! طب غالية جت ولا لسه نايمة؟

– لا الهانم نايمة وتليفونها مغلق كالعادة.

– طيب تمام، هنتغدى سوا النهارده ولا كل واحدة في بيتها؟

– لأ هنتغدا سوا، عشان فيه قعدة نم هتحصل.

– ما تقوليش شاورما سوري؟

– طبعًا شاورما سوري، واحشني الراجل السوري اللي بيبيع هناك.

– يادي الشاورما السوري بتاعتك دي..

– لا آسيا من فضلك إلا الشاورما.

وبعد مرور ساعة أتت غالية في عجلة من أمرها.

– معلش والله كنت سهرانة إمبارح على السكريبت ونمت متأخر.

فنظرت لها فجر بشكٍّ:

– السكريبت برضو ولّا مع حد تاني؟

ولولا مقاطعتي لهم لسرعان ما اشتعل شجارهم اليومي.

– مش عايزة ولا واحدة فيكم هنا..

دفعت غالية فجر برفقٍ خارج المكتب..

- عجبك كده آدينا اتطردنا.

وسرعان ما انغمست في العمل ولكن من بين الحين والآخر كنت أرسل ليوسف رسالة نصية قصيرة فحواها كلام يعبر عن اشتياقي ولوعتي، وكنت أتفقد ما بين الحين والآخر أيضًا هاتفي بحرارة علّه أرسل ردًا ولكن في كل مرة كان يخيب ظني! حتى فاجأتني رسالة كنت أظنها منه فحواها «أنتِ جميلة أكثر مما تظنين» من رقم مجهول!

****

(٧)

«خالد، إليانا»

ماذا تريد تلك الفتاة أن تثبت لي؟ لا، يكفي.. ما أعيشه معها فاق كل الحدود، سأطلب من المشفى أن تحولنا إلى قسم الأمراض النفسية.. لا بُد من أن يراها طبيب نفسي ويحاول معالجتها.. دخلت إليها الحجرة فوجدتها في ثورة غضب شديدة وما إن رأتني حتى اشتطت غضبًا أكثر.

- فاكرني مجنونة، بتحولني لأمراض نفسية.

- مين قال إن اللي بيروح هناك مجنون!

- أنا مش مجنونة، سامع! أنا مش عايزة أعيش الحياة دي.

- وعشان كده طلبت دكتور عشان يفهم ليه، طالما أنا فشلت بشتى الطرق معاكِ.

- إنت زيهم!

- زي مين؟

– زيهم كلهم، كل همك نفسك وبس! عايز تعرف مالي عشان نفسك وبس.

وقفت مشدوها بما تتفوه بهِ تلك المجنونة!

– يعني ما بعملش كده عشان مصلحتك مثلًا؟

– مصلحتي! إنك تخليني مجنونة؟

– إليانا لو سمحتِ، إفهمي إن ده واللّه عشانك.

– إطلع بَرّه.

– إيه!؟

– إطلع بَرّه، مش عايزة أشوفك.

بدأت تصرخ وتنهال عليّ بالسباب وتأمرني بالخروج، فطلبت مني الممرضات بالخضوع لأمرها ثم أعطوها حقنة مهدئة..

ذهبت إلى الطبيب وبدأ بالشرح لي:

– بص عندنا حالات كتير بتعاني من الميول الانتحارية دي، هو اللي أنا مستغربه من حضرتك إنك ما عرضتهاش على طبيب لحد دلوقتي!

– رافضة تمامًا، وكنت بخاف على مشاعرها وقلت أحاول أنا أحتويها.

– تمام كل ده حلو ومطلوب منك برضو في الفترة اللي جاية، بس ده مش هيجي بس كده.. هي لازم تخضع لعلاج نفسي وممكن كمان نكتبلها بعض الأدوية.

– أنا بس مش عايز أحجزها في المستشفى.

– لالا خالص مش هتتحجز، لكن هتيجي تحضر زي جلسات كده والطبيب يباشر معاها رحلة العلاج، وممكن كمان لو استجابت معانا نخليها تحضر جلسات جماعية لناس بيعانوا من نفس اللي هي بتعانيه.

– تمام جدًا، طيب ودلوقتي هتصرف معاها إزاي يا دكتور.. هي رافضة تمامًا تقابلني.

– حاليًا هنخليها كام يوم معانا، لحد ما أعصابها تهدا تمامًا وتكون تحت ملاحظتنا.

– بس كده هي هتضايق مني أكتر.

– بس افتكر إن ده لمصلحتها.

أجبته على مضض:

- تمام يا دكتور، اللي تشوفه...

****

ينعتني بالمجنونة، يظن بأنني سأخضع لما يريده مني.. يظن بأنني دميته سيحركها حيثما شاء.. لا لن أجعله يتخذني كأضحوكة مثلما فعل بي والديّ.. سأتمرد على كل شيء، سأتمرد عليه هو أيضًا.. ولو كان الفراق حلًا، سأرحل دون أن ألتفت ولا آبه له. وضعني بين قضبان تلك المشفى ولاذ بالهروب، لن أصمت، سأثور ألف مرة.. أوليس في الثورة حرية! سأناضل من أجل أفكاري، معتقداتي، وحياتي.. سأثور وأسكب دماء حريتي في كل مكان وكل زمان.. أنا الروح المعتصمة من أجل الموت، أنا الحضن الذي يحب الاحتضار ولا يهابه.. دخلت الممرضة إلى حجرتي فأمرتها بحدة:

- ناديلي الدكتور فورًا.

- حاضر يا مدام.

لحظات قليلة وأتى الطبيب، زوجٌ من العيون يترصدني جيدًا، يفحص كل إشارة تصدر مني.. أشعر وكأني تحت المجهر، جزيئات مشاعري كلها تحت التدقيق! أكرهك يا خالد لأنك وضعتني محل

الشبهات.. أبغضك وأبغض والديّ هؤلاء عديمي المشاعر..

– ها أخبار نفسيتك إيه دلوقتي؟

بحِدّة شديدة:

– اكتبلي إذن خروج حالًا.

– حد ضايقك هنا؟ قوليلي وأنا فورًا أعمل اللازم معاه!

رفعت حاجبي استنكارًا:

– معلش يعني لا مؤاخذة هو إنت فاكر إنك بتكلم واحدة في كي جي ٢؟

– أكيد لأ، بس تمام أكلمك كلام ناس كبار بقى، إنتِ هتقعدي معانا هنا كام يوم تحت الملاحظة.

قاطعته بنفورٍ حادٍ:

– تعرف المشمش؟

– همه تمام.. إيه رأيك تنزلي تحت في الحديقة شوية؟

لم أجبه، استفزني بطريقته الباردة معي، ولكن اقتراحه كان جيداً، اقتراحه كان بداية الانهيار!

****

«مالك، ليال»

استيقظت من نومي فجأة، لا أعرف السبب! قرأت ذات يوم أن من يستيقظ من نومه بشكل مفاجئ فهذا يعني أن هناك أحداً مرتبطًا به يفكر فيه! لا أدري صحة هذا الكلام من خطئه ولكن ما شعرت به كنت على وشك أن أنسى مذاقه! فأنا منذ فترة طويلة أصبحت أنام وحدي في غرفة ومالك في غرفة بناءً على رغبتي.. ولربما بسبب الاكتئاب الذي أعاني منه! نظرت لابنتي الصغيرة النائمة وحمدت الله كثيرًا أنها تغط في سُبات عميق.. جلست أفكر في هذا الشوق الذي يطرق باب فؤادي.. شوق جارف لمالك يسفك بكل أفكاري المريضة.. نهضت سريعًا من فراشي وذهبت لحجرته وطرقت الباب ودخلت لأجده ممدّاً فوق فراشه.. ذعر حين رآني:

- في حاجة؟ تعبانة؟

وقفت جامدة أمامه لا أقوى على الحراك، تتصارع المشاعر داخلي، جزءٌ مني يتوق جدّاً للمسته وجزءٌ آخر يتذكر قسوته وجحوده فينفر.

- ليال فيكِ حاجة؟ حاسة بحاجة بتوجعك؟

ركضت كالطفلة إلى الفراش ونمت خلف ظهره وطوقت ظهره بذراعي وأغلقت عيني بشدة.

- واحشني..

التفت نحوي بأنفاسه الدافئة وقبّلني بحنانٍ وهمس بود.

- يــاه وانتِ وحشاني أوي.

- خايفة.

- من إيه يا حبيبتي؟

- ما أعرفش، صحيت خايفة وصحيت حاسة إني محتاجة ليك، لمالك بتاع زمان.

- وأنا آهو مالك بتاع زمان.

وفجأة انقضت عليّ أفكار مخيفة، حاولت طردها ولكنها كانت أقوى مني! ثم تذكرت كذبه وكذبي وتلك الحياة الباردة والفاترة بيننا.. تذكرت جحوده وكيف أنه لم يحمل ابنتنا إلى تلك اللحظة ولم يمنحها حبه أو دقيقة من وقته، دفعته بعيداً ونهضت.. نظر لي باندهاش:

– رايحة فين؟

كشرت عن أنيابي.

– هقوم اشوف ورايا إيه.

– خليكِ معايا، أنا ما صدقت لقيتك جاية ليَّا وكمان لابسة البيجاما اللي بحبها.

التفت إليه وبرقت بعيني ثم قلت:

– إنت طول عمرك بتكره البيجاما دي عليّا؟!

– أنا؟!

– آه..

توتر جدّاً و اصفرت ملامحه ولم يعرف بماذا يجيبني فاقتربت منه بشدة لدرجة أن قربي من وجهه أرعبه وقلت له:

– مش قُلتلك إنت مش زيّه، فما تحاولش تقلده.

– هو مين! إنتِ بتتكلمي عن مين؟!

لم ألتفت له ولم أجِب سؤاله وتركته يسب الحياة بصوتٍ خافت! ثم قال:

- والله بقيت تعبان أوي.

****

لم أصدق أذني حين همست باشتياقها لي وغمرتني من الخلف، كدت أطير من السعادة ولكن أي سعادة أتحدث عنها! فما هي إلا ثوانٍ حتى انقلب السحر واختفى الحب وظهر موسم الكره والبغض مجدداً.. لا أفهمها.. حقّا لا أفهم ماذا طرأ بها؟ كذبت عليها حين سألتني أين كنت البارحة.. لم أشأ أن أخبرها بأني أتردد منذ فترة على مركز يحل مشاكل المتزوجين.. على الرغم من عدم إيماني بتلك المراكز ولكني كنت أغرق، كنت أغرق وأبحث عن حلٍّ.. وفي يومٍ من الأيام خرجت تائهاً من المنزل.. سكينٌ باردٌ كان يغرز حوافه داخلي.. لم أعرف إلى أين أتوجه، جلست في سيارتي كالأبله، أنظر إلى السماء وهي تمطر وأدعو اللّه أن يلهمني الحل.. وجدت جاري يقف أمام المبنى ويحاول أن يجد «تاكسياً» يستقله.. لا أعلم لماذا عرضت عليه أن أقله إلى أي مكان يريده.. ربما هروباً من مشاكلي؟ أو ربما مللًا وسقماً من حياتي، فلأغُص في حياة الآخرين قليلًا! على الرغم من أنها ليس عادتي .. ولربما رأفة لحاله، رجلٌ شاب مبتور اليد، وجهه دائري وله غمازة في وجنته اليمنى يقف في منتصف ليلة ممطرة ينتظر «تاكسياً»..

- تحب أوصلك؟

- لا واللّه مش عايز أتعبك معايا.

- لا عيب، الجار للجار برضو.. وبعدين الدنيا بتمطر وصعب تلاقي تاكسي بسهولة دلوقتي.

- بجد مش عارف أشكرك إزاي، أنا بس عايزك توصلني لبيت صاحبي محتاجني ضروري.

- تمام قولي فين مكانه.

- قريب من هنا مش بعيد أوي.

- ولو بعيد، يعني أنا كان ورايا إيه.

وبعدما أوصلته إلى المكان الذي كان يريد أن يصل له، رأيت المركز فدونت الهاتف وانتظرت اليوم التالي على أحر من الجمر وركضت إليهم بعدما أخذت موعدا..

في البداية رأيتها، تلك الأخصائية التي صادف القدر أن تكون مسئولة عن حالتي. لا أدري ماذا حدث لي ولقلبي حين رأيت ابتسامتها.. شيء سرى في أوصالي، شيء خفي يعزز الهرمون المسئول عن السعادة..

– إيه مشكلتك؟

لا أدري مَن عقد لساني.. أنا بطبعي متحدث جيد جداً، ولكن أمامها لا أدري ماذا حدث؟! ولكن سريعًا ما تذكرت سبب لجوئي لهذا المركز وتذكرت الحب الذي أدمى القلب.. تذكرت زوجتي.. ربما الجفاء العاطفي الذي أعيشه هو ما جعلني أُوسَر أمام ابتسامة تلك الأخصائية؟ لا أدري...

– مش عارف أقول إيه! مش متعود أفضفض لحد غريب.

– طب عرفت المركز إزاي؟

– كنت بوصّل جاري إمبارح وقريت اليافطة وكنت مخنوق وبدعي ربنا يبعتلي الحل.

– بص يا أستاذ...

ثم نظرت للأوراق التي أمامها وأردفت قائلة:

– يا أستاذ مالك طبيعي اللي انت فيه.. طبيعة الراجل أصلًا وتكوينه بتكون مختلفة عن الأنثى.. يعني الأنثى تقدر تعبر دايمًا.. إنما الراجل كتوم بطبعه.. هنا في المركز بنحاول ناخد بالنا من النقطة دي عشان نقدر نوصل لجذر المشكلة..

كانت تتحدث بطلاقة معي وكنت أنا شاردًا في طريقة نطقها لاسمي، في طريقة شرحها.. ماذا دهاني.. عقلي ينغمس في سكرات جمالها؟

- أنا بحب مراتي ومش عايز أخونها.

لا أدري لماذا فجأة تفوهت بتلك الجملة، لتبتسم هي:

- ده حلو أوي، بس إيه اللي هيخليك ممكن تخونها؟

- ما بقتش مبسوط معاها، بقيت بعيد أوي عنها.

- مين السبب في البعد؟

- ما أعرفش؟ هي ولّا قسوتي ولّا إيه؟

- إنت بتقسو عليها؟

- أنا بقسو على نفسي كمان.

- إزاي؟

- مش عارف أشرح وأفهمك، محتاج منك تفهميني وحاسس إنك ممكن تفهميني.

– طب ساعدني عشان فعلًا أقدر أساعدك.

– أساعدك ازاي؟

– احكيلي عنك أو عن القسوة اللي بتحكي عنها دي.

– لأ مش عارف، أنا همشي.. المكان ده ما ينفعنيش.

– هسيبك تمشي بس هقولك إني مستنية تجمع شجاعتك أكتر من كده وتيجي تاني.

– مين قالك إني خايف؟

– ومين قال إنك خايف؟!

– إنتِ بتقولي تجمع شجاعتك.

– وده مش معناه خوف! شجاعتك في إنك إنت نفسك تعرف تحط إيدك على القسوة اللي بتتكلم عنها.

– أنا خايف آجي هنا تاني.

– ليه؟

– عشان حقيقة مستخبية هنا عندكم.

– واجه أي حقيقة..

– إزاي وانا ضعيف؟

– ده اللي هنحاول نشوفه سوا.

– تمام.. شكرًا ليكِ

خرجت من الغرفة وهرولت إلى الاستقبال وطلبت منهم موعداً آخر ولكن طلبت أن يباشرني أخصائي وليست أخصائية.. القلب المجروح يكون ضعيفًا جدًا أمام أنانيته، يكون عدو نفسه لدرجة أنه يضرب بكل مبادئه التي تعوّد عليها عَرض الحائط؛ لذلك قمت بتغيير الأخصائية.. أنا حقًا أحب ليال، أحبها كثيرًا وما شعرته منذ قليل هي مشاعر فقير ومحروم من الحب.. لا أقل ولا أكثر.. لذا أنسب حل بَتْر تلك المشاعر السامة التي قد تنمو وهي ليست ملكي ولا حقي.

****

(٨)

«ريم، صفوت»

وكأن أصابني مَسّا حين تفوه صفوت بالطلاق! يا إلهي؟! ماذا قال الآن؟ وكيف يتركني ويدفعني بعيداً هكذا ويرحل وكأنه طلب مني أن لا أعدّ له العشاء في المساء لأنه سيبقى خارج المنزل وذهب؟ هل حقّا طلقني صفوت؟

ركضت سريعًا إلى جُمانة وطرقت باب منزلها بهوس شديد وأنا أصرخ وأبكي وأسب نفسي ألف مرة.. فتحت لي بهلع فارتميت في حضنها أنوح:

– صفوت طلقني يا جمانة، طلقني.

– إيه؟ ليه؟ ازاي؟ إيه اللي حصل؟

– بسبب خناقة إمبارح.

– طب تعالي، تعالي جُوّه احكيلي بالراحة وبطلي عياط وهنحل الموضوع بالراحة.. تحبي أكلم جوزي يكلمه ولّا نسيبه يهدا شوية؟

قبّلت يدها وأنا أرجوها.

- لأ بليز خليه يكلمه، واللّه أنا آسفة ومش هعمل كده تاني.

- عملتِ إيه يا ريم؟!

- إمبارح دخل عليّا البيت بهدية، فشكيت فيه وشديت معاه ولما دخل أوضة المكتب رُحت عشان أصالحه لقيته قافل الباب بالمفتاح، اتجننت! من إمتى صفوت بيقفل المكتب بالمفتاح فشكيت فيه أكتر ومجرد ما فتح شديت سماعة التلفون منه عشان أتأكد..

لامتني جُمانة بحدة:

- واتأكدتِ دلوقتي لما بيتك اتخرب بسبب جنونك وغبائك! هو أنا مش حذرتك مليون مرة وقُلتلك بلاش الغيرة المجنونة دي هتطفشي الراجل منك؟

- صفوت بقى بيعمل كل حاجة تخليني أشك فيه، هو السبب.. هو عارف إيه بيجنني وبيعمله.

- لا، حرام عليكِ ما ترميش الغلط عليه! إنتِ اللي مجرد ما تتفرجي على مسلسل فيه راجل بيخون تقومي شاكة في صفوت على طول ولا تقري مشكلة على النت تجري تطلعي كل ظنونك على الغلبان جوزك.

– أيوه وامبارح البرنامج اللي كنت بتفرج عليه كانت مناقشة ما بين الضيوف على تعدد الزوجات.

– شفتِ! يعني انتِ اللي بتستفزي صفوت مش هو .

– طب اللّه يخليكِ خلي جوزك يكلمه يهدّيه..

– طيب خليكِ هنا، هدخل الأوضة أكلمه أفهمه الموضوع.

– طيب .. هستناكِ.

****

لم أستوعب ما لفظته من شدة امتعاضي.. ألقيت على زوجتي كلمة الطلاق وتركتها حتى لا أبرحها ضربًا من شدة غضبي وحنقني.. كالقنبلة الموقوتة التي انتظرت ساعة الصفر لتنفجر! ولكن ماذا سيحدث نتيجة هذا الانفجار؟ من سيزيح أشلاء وجعي من قارعة الطريق؟ من سيداوي دموعي المنثورة عند حافة شريان قلبي؟ من سيتفهم حزني وألمي؟ لماذا الحب الذي بداخلي تجاه ريم لا ينضب؟ لماذا يحرقني فراقها؟ وإلى متى سأظل معلقًا في هذه الدوامة؟ إلى متى سيظل وحش الشكوك يحول بيني وبينها؟ رن هاتفي كثيرًا

ولكنني لن أجيب على أحد بل سأغلقه، أحتاج إلى هروبٍ قصيرٍ بعض الوقت.. أحتاج أن أرتب أوراق حياتي.. لأني وقت القرار سأكون جبانًا وسأعود.. سأعود أدراجي سريعًا رغم العذاب والأنين.. سأعود أقتات السُقم بكل ود! معادلة صعبة جدًا..

****

عادت جُمانة لي تطمئنني بأن زوجها سيتحدث مع صفوت وطلبت مني أن نتركه قليلًا وحده يهدأ.. وافقتها على مضض.. آه يا صفوت لو تدرك ماذا حدث في القلب بعد رصاصة كلمتك هذه التي تفوهت بها! آه يا صفوت لو تعلم كيف لوعني نزيف الجرح الغائر الذي تصدع داخل شقوقي! تريد القليل من الهروب.. اهرب أينما شئت ولكنك تعلم جيداً من فينا المخطئ منذ البداية.. منذ ذاك اليوم الذي لا أحب أن أتذكره كثيراً.. أنت تعلم يا صفوت بأني لم أكن هكذا في بداية زواجنا.. فقط تذكر ماذا فعلت بي وكيف تركت ندوبك في مخيلتي.. احصد يا صفوت ما زرعْتَه واجنِ ثمار شكوكي بك.

****

صحوت من النوم ونظرت إلى الساعة بكسلٍ شديد فرأيتها الواحدة ظهرًا ورأيت اتصالات عديدة

من العمل.. نهضت، غسلت وجهي وبدّلت ثيابي وخرجت من الشقة لأتعثر بورقة بيضاء أمام بابي مرسوم فوقها زوجٌ من العيون! دأب الذعر في قلبي! ماذا يحدث؟! مَن الذي يعبث معي؟ لم أستطع أن أتحرك من مكاني لمدة ثوانٍ.. ثوانٍ مرت عليّ كدهرٍ طويلٍ وأنا في قمة رعبي! يبدو أن هناك أحداً يطاردني! أحدا مجنون مثل... لا أدري، نفضت تلك الأفكار السوداء بعيداً عني واتجهت إلى العمل وعند مقهى قريب من عملي رأيت زوجاً من العيون سحرني! فتنني.. منذ قصة حبي الوحيدة اليتيمة التي ماتت بؤساً لم أشعر أن هناك زوجًا من العيون يستطيع أن يحتلني هكذا! ولكن من هي؟ هي تلك التي كسرت القاعدة بكل سهولة.. قادتني قدمي إلى المقهى وطلبت لي كوب قهوة ساخن وسرقت بعضاً من النظرات إليها.. لم تشعر بي بل لم تشعر بالعالم من حولها.. منهمكة جداً في قراءة روايتها التي تبدو رواية حزينة من عنوانها.. اقتربت وجلست إلى طاولة جانبها وما إن جلست حتى ألقى النسيم بشذى عطرها لي! أغلقت عيني وسافرت بعيداً جداً.. إلى مكان خالٍ من البشر سواي أنا وهي.. رأيت نفسي أرقص معها على إحدى سيمفونيات بيتهوفن الشهيرة.. رأيتني شهاباً يلدغ مَن يحاول أن يخترق عالمي معها.. هي مجرة وأنا فلك يسبح بين أهدابها وجفونها.. صحوت من غفلة الهيام

التي كنت أرتشف منها قهوة الحب ورأيتها تنهض.. أردت أن أنهض خلفها، أن أحدِّثها، أن أبوح لها بحبي ولكن بالطبع لن تصدقني.. من أنا لأحبها؟ مثلها لا يُحب بسهولة.. تأشيرة عبورك لحدود قلبها قد تجعلك تدفع عمرك كله وقد لا تُقبَل في نهاية المطاف.. عدت للواقع وحاولت أن أنفض غبار خيالها عن عقلي ولو قليلًا ومنيّت نفسي بأعجوبة القدر.. فللقدر حديث دومًا قادر على أن يفصل أي حكاية سواء بالسعادة أو الحزن.. وأنا في سنين عمري التي مضت تعلمت ألا أتحدى نهاية القدر مهما كانت مأساويته..

****

«آسيا، يوسف»

كنت في ذروة انهماكي في العمل، كنت أفكر في فكرة جديدة للبرنامج الذي أعده، وبينما أنا أفكر شعرت بأن شيئًا ما في الغرفة يبعث لي طاقة سلبية.. نهضت بكل حماس وشرعت في تغيير «ديكور» غرفة المكتب.. دخلَتْ فجر المكتب سريعًا.

– بقولك يا آسيا..

فوجدَتْني قد غيرت شكل المكتب.

– إيه ده؟ بتعملي إيه!

– زي ما انتِ شايفة بغير الديكور.

– ده فجأة كده؟!

– آه، حسيت فيه حاجة غلط في طاقة المكان! بعدين لقيت وضعية الكنبة مع الكرسي مش صح.. الكنبة في الزاوية اللي هناك كده تدي مساحة للطاقة تنتشر جُوّه المكتب وماتحدهاش..

فغرت فجر فاهها:

– إنتِ بتتكلمي بجد؟!

– أيوه طبعًا.. مهم جدًا بالنسبة لي الطاقة، عشان أقدر أنتج بشكل صحي.

– اللّه يكون في عون يوسف، أكيد جننتيه معاكِ بهوسك ده.

– ده مش هوس، ده عِلم بيُدرس..

– طيب يا ستي، المهم خلصتِ الفكرة؟

– آه، وانتِ اتأكدتِ من كل حاجة تمام للحلقة؟

– ايوة وغالية كمان، وكنت جاية أديكي الورق وأقولك يلا ناخد بريك.

– آه يلا عشان عايزة أحكيلكم عن مسج غريبة جَت لي وما أعرفش رقم مين ده.

دقائق قليلة ووصلنا إلى المطعم المجاور للمكتب وما إن جلسنا حتى نظرت لي غالية بفضول واسع:

– ها مسج إيه الغريبة اللي بتقولي فجر إنها جتلك؟

– فجأة جَت لي مسج من رقم برايفت بيقولي فيها إني أحلى مما أتصور.

فهتفت فجر باندهاش:

– أوبا، وبعدين؟

– ما ركزتش وما حطتش في بالي وقلت ممكن يكون حد من المعجبين عادي يعني، بس بعدها بثواني صاحب الرقم ده بعتلي رسالة تانية يقول «قدّري قيمتك كويس، وكوني مع الناس اللي تفهم ده»

رفعت غالية حاجبها تعجبًا:

- إيه ده؟

- بيني وبينكم، أنا خفت وقلقت بس كبرت دماغي.

- ها وبعدين؟

- بعدين لقيت مكالمة فرديت لقيت حد مشغل أغنية لكاظم!

قالت فجر سريعًا:

- ده حد عارفك بقى كويس ومتابع وعارف إنك بتحبي كاظم!

- بالضبط وده اللي خوفني؟!

- طيب وما اتكلمش؟

- لا! فضلت أقول آلو كتير ما حدّش رد.

سألت غالية في حيرة:

- طيب ما كانش فيه أي صوت غير أغنية كاظم؟ ممكن تخلينا نعرف مين ده.

- لا، أغنية كاظم بس.

– طب كان مشغل أغنية إيه؟

– حافية القدمين، المقطع اللي بيقول

قولي لي كيف سأنقذ نفسي من أشواقي وأحزاني

قولي لي ماذا أفعل فيكِ أنا في حالة إدمان

قولي ما الحل فأشواقي وصلت لحدود الهذيان

قاتلتي ترقص حافية القدمين بمدخل شرياني

من أين أتيتِ وكيف أتيتِ وكيف عصفتِ بوجداني

ضحكت فجر وغالية في آنٍ واحدٍ ثم أردفت فجر قائلة:

– اللّه اللّه ! وكمان رومانسي..

– قمت عملت لرقمه بلوك.

– أحسن برضو.

نظرت بعيد وأنا أحتسي بخوف رشفة من كوب قهوتي.. كانت القهوة ساخنة جدّا ولاذعة ولكني لم أشعر بكل هذا.. الخوف الراكد بداخلي جعلني أفقد كل حواسي.. حقيقة مرعبة واحدة بقيت

عالقة في ذهني «مَن هذا الذي يعرفني جيدًا، ويحاول أن يصل لي، بل تلك الأغنية تحديدًا كنت لتوي بالأمس أسمعها!» نفضت عني غبار أفكاري حين نادتني غالية قائلة:

– إيه سرحتِ فين!

– مفيش بفكر في يوسف.

– ماله؟

سكتُّ قليلًا ثم نظرت لهما بخيبة أمل:

– مش عارفة، فيه حلقة بحس إنها مفقودة بيني وبين يوسف.. بنحب بعض وبيموت فيَّا بس ساعات كتيرة ببقى مفتقداه ومش بلاقيه جنبي.

قاطعتني فجر:

– إزاي يا آسيا؟! إنتم متجوزين؟ إزاي ما بتلاقهوش جمبك؟

– يعني أنا ممكن في عز انشغالي أقوم أبعت له مسج، أقوم أتصل بيه ولو لثواني بس عشان أسمع صوته.. هو ممكن رغم إني واحشاه ما يتصلش طول اليوم لمجرد إنه عارف إننا هنرجع آخر اليوم

وساعات حتى لما بنرجع بيبقى يا تعبان يا عايز يكمل شغل..

– برود؟

– لا مش برود.. زي ما قلتلك هو بيحبني بس مش فاهم بوينت معين أنا بحاول دايمًا أوصلهوله..

نظرت لي غالية بحزن:

– بصي يا آسيا، الرجالة مش زيّنا وانتِ أكيد فاهمة ده.

– عارفة واللّه، وأنا ما بطلبش حاجة كبيرة ولا معضلة.. كل الحكاية إني ببقى عايزة أحس باهتمام.. مش معنى إننا متجوزين فخلاص بقى الاهتمام والحب يقلوا أو يبقوا روتين.. فاهماني؟ أو يمكن عشان أنا إنسانة ما بحبش الملل يسيطر على حبي وبحب التجديد دايمًا فدايمًا مستنية منه يكسر الروتين..

– فاهمين.. طيب قوليله..

– قولتله واللّه يا جماعة، وبيعتذر وبيقعد يحاول يوم واتنين ويرجع تاني وأنا مش عايزة أفضل كل شوية أقول.. تعبت.. ومش عايزة أبقى زنانة.

سألتني فجر بفضول:

– ده بعد ما اتجوزتوا؟ ولّا هو كده برضو أيام ما كنتم بتحبوا بعض.

– لا للأسف هو كده! كنت فاكرة إن الجواز ممكن يغير ده على أساس هنبقى قريبين أكتر وفي نفس البيت بس ما حصلش أي تغيير.

– هو خلينا نقول الحمد اللّه إن مفيش تغيير للأسوأ، بس حاولي تتكلمي تاني معاه.

نظرت لهما بإنهاكٍ شديد وهززت رأسي بكل خضوع:

– حاضر هحاول.

****

(٩)

«خالد، إليانا»

طمأنني الطبيب بأن إليانا بدأت تستجيب معه قليلًا، كما أنها أحبت الجلسات الجماعية التي تحضرها.. جماعة من الناس يعانون مما تعانيه إليانا، يشاركوا بعضهم البعض قصصهم ومشاعرهم دون خجل ودون خوف.. جلست معها مرة في إحدى تلك الجلسات ولكن بعد أن انتهت الجلسة شعرت بكمية طاقة سلبية رهيبة.. طاقة جعلت الشعر الأبيض ينبت بكثرة في رأسي.. أناس لا يرون الحياة إلا باللون الأسود.. حزن يكسو جميع ملامحهم، لا يوجد حياة داخل غرف إدراكهم.. لا يوجد إكسير السعادة الذي يعطر حياتك من وقتٍ لآخر.. رتم الحياة عندهم بطيء جدًا وقاتل.. لم أستطع إكمال تلك الجلسات، ولكنِ كنت أوصل إليانا وأعود لها بعدما تنتهي..

****

«مالك، ليال»

شعرت بأن طفلتي تحتاج إلى نزهة صغيرة، أعلم أنها ما زالت صغيرة جدًا ولا تعي ولربما أنا من كنت أحتاج إلى نزهة مع طفلتي وحدي.. ربما أنا من

شعرت بأني أريد أن أخرج معها كأم وطفلتها.. أحدثها عن العالم بشكل لائق بعيداً عن كل الصدمات والأوجاع.. بعيداً عن الألم والندم.. أردت أن أرسم لها السلام في نزهة في الهواء الطلق.. أخذتها إلى حديقة أطفال هادئة بعض الشيء، ترقص بداخلها ضحكات الأطفال تارة على الأرجوحة وتارة أخرى على الألعاب الأخرى.. نظرت لها وهي في عربتها تنظر بكل براءة وشغف حولها.

- إيه يا نوني، مبسوطة؟

- ....

ليتك تستطيعين الإجابة، ليتك كبيرة تستطيعين الحديث معي.. أشتاق جداً لحديثٍ طويلٍ معك، لن أخبرك عن وجع العالم، لن أعبّئ لك الحزن في أقراص الدواء.. سأجعلك تحبين الحياة.. تعشقين ملذاتها..

- عارفة يا نوني نفسي أوي تكبري، ونخرج أنا وانتِ سوا..

نظرت إليكِ بحب فوجدتك تبتسمين ثم نظرتِ إلى أب يرافق طفلته.

– عارفة؟ أنا ساعات بشوف بابي بيجي يطمن علينا وإحنا نايمين.. بشوفه وهو بيقرب ناحية سريرك.. بيني وبينك أول مرة كنت مرعوبة أحسن يعمل حاجة فيكِ بس لا طلع بيطمن عليكِ..

– .....

– أيوه بيحبك، هو بس مصدوم عشان الدكتورة في الأول قالتلي إني حامل في ولد وبعدين اتفاجئنا إنك بنت.

– .....

– بس أي أب في الحياة يتمنى إنه يبقى عنده بنت حلوة زيك كده.. طب أقولك على حاجة؟

– .....

– إنتِ عارفة إنه مرة وقف قُدَّام سريرك وسمعته بيعيط!

– .....

– عارفة ليه؟

أصدرت صوتًا وكأنها تنتظر الإجابة منّي على أحرّ من الجمر.

– أقولك أنا ليه؟ عشان جواه صراع.. بيحبك بس كبرياؤه رافض يخليه يفرح بوجودك.

ضحكت صغيرتي بكل حُب مجدداً لي:

– أنا متأكدة إنه لو فكر يخرج معانا أنا وانتِ هيحبك أوي وهيفرح بيكِ.

ضحكت مرة آخرى، فحملتها برفق ولثمت قبلاتي عليها بجنون.. رائعة تلك الطفلة، تجعلني أذوب مع رائحة جسدها المليئة بزيوت الأطفال.. ملمسها الناعم ينزل بالسَّكِينة فوق قلبي أن يومًا ما سيصبح كل شيء رائعًا.. يومًا ما سيعود مالك أدراجه إلى حضني وإلى ابنته.. يومًا ما سآتي بكِ هنا صغيرتي أنا أمسك يداً ووالدك يمسك يداً مثلما تتمنين وأتمنى..

****

عدت من العمل وبحثت عنها في أرجاء الشقة لم أجدها، تعجبت جدًا! أين ستكون؟ كدت أتصل بها حتى وجدت ورقة ملاحظة منها فوق الطاولة «خرجت أنا ونوني نتفسح شوية، الغدا في التلاجة سخَّن اللي انت عايزه واتغدا».

أغلقت عيني وزفرت بإنهاك، ماذا أفعل في تلك المرأة! تخرج متى أرادت وتذهب إلى أينما تريد دون إخباري! وكأني لست رجلًا ولا بزوجها؟! وكأن رأيي غير جدير بالأهمية.. ذات يوم تشاجرنا وواجهتها بالأمر وواجهتني كعادتها بردودها المملة:

– على فكرة، جديد حوار إنك تخرجي من غير استئذاني ده؟!

– أولًا أنا بكتبلك، يعني ما بترجعش تلاقيني مختفية وما تعرفش أنا فين!

– الفكرة مش فكرة تكتبي ليًّا أو لا، الفكرة إنك تقوليلي قبل حتى ما تخرجي!

– إيه الفرق؟

– الفرق إني جوزك.

– لا!

– لا إيه؟

ارتبكت قليلًا ثم أردفت قائلة:

– لا أنا ما بحبش كده.

- هو إيه اللي ما بتحبهوش يا ليال؟ ومن إمتى يعني؟! ما قبل كده كنتِ بتعملي كده؟! وبعدين دي الأصول اللي أي راجل هيرفض غيرها.

- الأصول دي أنا هتمرد عليها.

- هو انتِ عايزة أي مشكلة تخلقيها بيني وبينك وخلاص؟

- إنت اللي بتخلق ده لنفسك مش أنا.

- تتمردي إيه وبتنجان إيه؟! هو إحنا اتنين متصاحبين! أنا جوزك وبقولك الأصول إنك تستأذني مش تسيبيلي ورقة يوم ما أرجع أقراها بالصدفة!

تركتني أهذي مع ذاتي ورحلت بكل برود وكأن شيئًا لم يحدث! تلك المرأة ستصيبني يومًا بانهيار عصبي حاد لا يجدي معه أي دواء في العالم!

سرت إلى غرفتي وأنا في طريقي للغرفة وجدت باب غرفتها مفتوحًا على غير العادة! فمن عاداتها الجديدة المكتسبة أن تغلق باب حجرتها بالمفتاح وهي خارج المنزل.. قادني الفضول واقتحمت الغرفة.. جلست أمام فراش الطفلة الصغيرة وتأملته بحزن، كادت دمعة حبيسة بالداخل أن تصيبني بجلطة من الحزن ولكن استجمعت قوتي

ونهضت.. سأترك الغرفة وأهرب ولكن استوقفني ما رأيته خارجًا قليلًا من تحت الوسادة الصغيرة الملقاة بإهمال ودون ترتيب في فراش الطفلة.. شيء جعل دقات قلبي تقفز بسرعة واحدة تلو الأخرى بين قفصي الصدري وكأنها في مارثون عالمي!

****

«خالد، إليانا»

في البداية لم أرغب بالجلوس مع أناس لا أعرف عنهم شيئًا ولا يعرفون عن معاناتي وأحاول أن أشاركهم مما يختلج بصدري، لكن تلك العيون التي تقتات حزنًا مثلي شجعتني على الحضور.. فضولي كان يسبقني في الحضور لمعرفة المزيد عنه.. شاب يكبرني بعامين، السواد يحتله مثلما احتلني في السابق.. انتحر عشر مرات وفي كل مرة ينجو بأعجوبة! يترنح مثلي بين الحياة والموت.. قابلته أول مرة في الحديقة حين طلب مني الطبيب أن أستكشفها، منذ أن وقع نظري عليه وهناك شيء ما يجذبني إليه.. انتهت الجلسة وانتظرت الجميع يرحل ثم سألته:

- صقر، ما عندكش حد في حياتك؟

نظر لي بتمعن شديد، وكأن يستوعب وجودي في الحياة:

– لا! وإنتِ؟

– اسمًا عندي، فعليًا لا.

– بمعنى؟

– يعني في الورق وفي العُرف عندي حد لكن اللي بحسه بجد لا.

– رافضاهم؟

– جدًا، وانت؟

– مش موجودين عشان أرفضهم.

– والموت؟

– لذة ومتعة.

– فشلت؟

– آه وإنتِ حاولتِ بجد؟

– حاولت بس برضو فشلت.

نظر لي قليلًا ثم لمع ضي داخله:

– ليه بتحبيه؟

– الموت؟

– وهو فيه حد تاني بتحبيه؟

– عشان ما لقتش نفسي معاهم، مش عارفة أكون أنا وأنا جواهم!

– عايزة تتمردي، عايزة تسمعي صوتك ورافض يخرج! رافض واقع إنهم ضمن تكوينه؟

– صح وانت؟

– ماشي في طريق طويل لوحدي من زمان، ما حدّش فاهم، ما حدّش حاسس، ما حدّش سامع..

– بس أنا سامعة..

– سامعة إيه؟

– سامعة صوت توهانك، وجُوّه عنيك ضي مش لاقي لا مرسى ولا بَر.

ابتسم لي ابتسامة جعلتني أشعر فجأة أن ما زال في الحياة لحظة قد نركض خلفها بجنون لنعيشها.. وإذ فجأة أعادني صوتٌ إلى واقعي العليل، التفتُّ لأجد خالد قادمًا، نظرت بحزنٍ لصقر وقلت له بنبرة خالية من كل شيء:

– أشوفك الجلسة الجاية.

نظر داخل عينيَّ بعمقٍ:

– هستناكِ جدًا.

أتى خالد لي مبتسمًا ونظر لي برِقَّة:

– معلش اتأخرت عليكِ.

– لا عادي، ما حستش بتأخيرك أصلًا.

– تحبي نخرج؟

– آه ممكن.

نظر لي باندهاش:

– إيه ده اللّه! إنتِ وافقتِ؟ بقالي كتير أوي ما شُفتش ده منك..

– أصلي جعانة أوي.

– يا روحي، طب تحبي نروح ناكل فين؟

– أي مطعم حلو على ذوقك.

لست أدري لماذا كنت سعيدة بحديثي القصير جداً الذي دار مع صقر، مما جعلني أشعر بالذنب تجاه خالد.. خالد رجلٌ ذو قلب حنون، يحبني بطريقته هو، حبه لا غبار عليه ولكني لا أشعر تجاه هذا الحب بأي شيء! حين تزوجته ظننت أني واقعة في حبه، ظننت أنه النجدة من بؤس العيشِ مع أهلي.. أوهمت نفسي؟ ربما، كنت أبحث عن الأمان؟ الدفء؟ الاحتواء؟ كل ما كان ينقصني كنت أبحث عنه داخل خالد، ربما! وعلى الرغم من توفره لكنني لم أشعر به.. لم يعوضني بالشكل الذي أريده.. ولكن ماذا أريد؟ ماذا تريدين حقّاً يا إليانا؟ برب السمواتِ قولي ماذا تريدين وعن ماذا تبحثين لتنعمي بحياة ساكنة! ربما وجدت ضالتي في عيون صقر؟!

****

«مالك، ليال»

اندهشت من المطوية التي تخص المركز الذي أتردد إليه موجودة تحت وسادة الطفلة الصغيرة..

ماذا تفعل هذه هنا؟ هل تعرف ليال بأمر ذهابي إلى المركز؟ ولماذا لم تواجهني؟ لماذا تخفي عني أمرَ معرفتها؟ وبينما كنت شارداً في أفكاري سمعت صوت غلق باب الشقة، فركضت بشكل خفي وسريع إلى غرفتي ثم خرجت منها.

- كنتِ فين يا ليال؟

- كنت بتفسح مع البنت.

- فعلًا؟

- آه! إيه غريبة؟

- مممم..

- تيجي نسافر يومين إسكندرية؟

- بس مالك ما بيحبش إسكندرية!

- هو انتِ بتتعمدي بقالك فترة تتكلمي عني وكأني مش موجود قُدّامك ليه؟!

اقتربت مني جدًّا حتى لصقت في وجهي ثم أغمضت عينها واستنشقت عطري وبعدها فتحت عينيها وابتسمت لي ابتسامة مرعبة ثم قالت:

– لأن اللي أقصده مش موجود! حتى البرفيوم بتاعك اللي إنت حاطه دلوقتي هو بيكرهه!

– طول عمري بحط البرفيوم ده!

نظرت لي بتحدٍّ أكثر:

– مالك عمره ما حط منَها.

دفعتها بعيداً عني ولا أعلم لماذا، لكن مؤخراً باتت تتعمد أن تدب الحيرة والخوف في قلبي وقلت لها بجحود وقسوة:

– إنتِ اللي ما بقتيش ليال!

– هه كنت عارفة إنك هتقول كده! وترجع تقول إني نكدية!

– لأ إنتِ مجنونة!

– أنا برضو اللي مجنونة؟ ولّا انت اللي مريض ومش عايز تعترف بده.

– طيب أنا مريض إزاي؟ تعالي يلا نتناقش وفهميني أنا مريض إزاي؟

– دي مشكلتك بقى يا مالك، روح شوف ممكن تحلها فين!

كادت أن تذهب إلى حجرتها فباغتّها بسؤالي:

– عرفتِ منين إني بروح المركز يا ليال!

التفتت لي والوجوم يحلّق على قسمات وجهها بخوفٍ شديدٍ:

– إيه؟! مركز إيه؟

– إنتِ أذكى من كده.. جاوبيني عرفتِ منين؟

– شُفتك صدفة.

– ولما شفتيني صدفة ما قُلتليش ليه؟

– استنيت تيجي إنت تحكيلي بنفسك.

– مش حاسة إن علاقتنا كل مدى بتضيع وبتنهار أكتر.

– أيوه وبعدين؟

– وبعدين! إنتِ قوليلي وبعدين؟

– أعترفلك بحاجة؟

– ياريت..

– إنت بقيت ممل.

– أنا؟

– جداً

– طب ليه؟ مستعد أسمعك؟

– ماليش مزاج أتكلم.

كادت أن تتركني وتذهب كعادتها فانتباني غضب عارم، فذهبت وسحبتها عنوة ودفعتها لتجلس على الأريكة أمامي بقوة:

– لأ هتتكلمي!

– ليه؟

– عشان أنا عايز إننا نتكلم.

– آه إنت عايز! ومش مهم أنا صح؟

– أيوه مش مهم إنت.. مش مهم أي حاجة في الدنيا دلوقت غير إنك تتكلمي معايا وتردي عليّا.

– ياه يا أخي جبت الجبروت ده منين!

– جبته من أنهي داهية! ردي عليّا يا ليال أنا ليه بقيت ممل؟ إيه مشكلتك معايا؟

صرخت في وجهي بصوتٍ يصم الآذان:

– قلتلك عشان إنت مش مالك!

****

(١٠)

«ريم، صفوت»

كنت أجلس في حجرتي التي أجّرتها في أحد الفنادق بعد انفصالي عن ريم، أشاهد التلفاز، حتى جاء أحد الأفلام المفضلة لريم أمامي.. لا أدري لماذا اعتراني الحنين وباغتني!! شوق يلسع حدقة عيني لدرجة أن الدموع انسكبت منها دون وعي مني.. أحبها! لست أدري ولكن إن كان هذا الشوق غير المروّض على الغياب ينبض بداخلي من أجلها فنعم بالتأكيد أنا ما زلت أسير حبها.. ربما توجد فجوة بيني وبينها، ربما اتسعت تلك الفجوة أكثر مع الأيام وربما ستقل ولكن هناك شيئًا في القلب ما زال ينادي بحبي لها.. هيًّا، هيًّا يا صفوت قم ارتدِ ثيابك وأنهِ فترة إقامتك هنا وعد إلى أحضانها.. اغمرها وتغلغل بداخلها حتى يصعب على البشر تفريق أجسادكما الملتصقة بالغرام ولوعة الحنين عن بعضها البعض.. لملمت أغراضي وعدت سريعًا إلى المنزل.. فتحت الباب في عجلة من أمري ورأيتها قادمة من المطبخ، فركضت إليها سريعًا وحملتها في حضني:

- أنا آسف، وحشتيني أوي.

صرخت من غبط السعادة:

- أنا اللي آسفة، صدقني مش هعمل كده تاني والله بحبك ووالله وحشتني.. حتى اسأل جُمانة لسه كنت بقولها إيه في المطبخ..

هنا فقط عدت إلى الواقع وأدركت وجود جمانة، فشعرت بالحرج الشديد.

- إيه ده، أنا آسف ما خدتش بالي إنك هنا.

ابتسمت جُمانة بهدوءٍ:

- لالا بالعكس، أنا فرحانة أوي إنك رجعت لريم.. ريم فعلًا بتحبك يا صفوت وما تقدرش على بُعدك.

- وأنا عرفت قيمتها الفترة دي وعشان كده رجعت ليها..

- هسيبكم أنا بقى.

فردّت عليها ريم:

- ليه، رايحة فين؟

- لا هسيبك بقى مع جوزك، وهروح أعمل شوبينج لحد ما جوزي يقولي إنه خلص بدل ما أضرب

المشوار لحد بيتي وأرجعله لمكان شغله..

وأخذت حقيبتها في عجلة ورحلت.. التفت سريعًا لريم وأخذت وجهها الرقيق الملائكي بين راحة كفي.. آآه كم لوعني الغياب يا حبيبتي، قبّلت عينها اليمنى بلهفة ثم عينها اليسرى بلهفة أكثر وسرعان ما اندثرت بينهما بلا رحمة أعوض كل ما فات وضاع مني هباءً..

****

جلست أتأمله بتلهف وهو نائم، بعدي لا أصدق عودته! زوجي الحبيب عاد لأحضاني بعدما كنت أشتكي غيابه لجمانة.. خشيت أن يقتحم وحش الطلاق منزلي ويحتلني للأبد.. حمدًا للّه أنك عدت.. لن أضايقك بعد اليوم، لن أعبث بشكّي معك.. ولو احترقت بسعير الغيرة سأمسك بجمرها داخلي.. ستحرقني وحدي؟! نعم فلتحرقني حتى تأكل اليابس والأخضر بداخلي.. يجب أن أتعلم مما حدث.. يجب أن أقدّر عودته الحميدة تلك.. صفوت يحبني لذا لا داعي لأي أفكارٍ سوداء كل همها تشتيت عُش حبنا.. ربما سأطلب منه أن أعمل.. العمل سيشغلني عن تلك الأوهام المريضة التي تعترض قارعة تفكيري من حين لآخر.. مجددًا سمعت صوتًا يأتي من الخارج! أردت أن أوقظ صفوت ولكنه كان يغط في سبات عميق.. مشيت بقلق وأنا أتلفت

حولي وكأني سأرى أحدًا يخرج من إحدى زوايا الشقة لأرى مجددًا صورة تحت عتبة الباب.. ركضت سريعًا إليها لأجدها صورة لسيارة من الداخل! لم أفهم الصورة مرة أخرى؟! وكأن من يرسل لي الصور يتعمد أنها تكون مثل اللغز! لكن ألغازه باتت سخيفة ومرعبة في آنٍ واحدٍ! خبأت الصورة سريعًا في أحد الأدراج وعدت إلى حجرتي وجلست أنتظر صفوت أن ينهض من النوم..

صحى صفوت من غفوته وابتسم قائلًا:

- سرحانة في إيه حبيبتي؟

- بفكر اشتغل..

- إيه ده؟ غريبة..

- يعني حاسة إن قعدة البيت بتخليني فاضية وبتخليني دايمًا أفكر، لكن لما أروح أشتغل يومي هيتملي وهفكر في حاجات تانية..

- هي فكرة حلوة أوي بس أنا مش عايزك تعملي ده لو هيتعبك.

- بالعكس، هسلي وقتي وبعدين أنا هحاول أدور على شغل كده بسيط.

- طيب في حاجة معينة في بالك؟

- إيه رأيك لو اشتغلت في الحضانة اللي في الشارع اللي ورانا؟ مواعيد الشغل تناسب مواعيد شغلك.. عايزة كمان أرجع بدري عنك عشان الحق أحضرلك الأكل قبل ما تيجي.

- حبيبتي حاسس إن ده هيبقى فيه إرهاق عليكِ..

- بالعكس، دوشة العيال هتنسيني نفسي وهتخليني ما أعرفش أفكر في أي حاجة.

اقترب مني صفوت وضمني إليه، ذاك الحضن قد أدفع عمري كله في سبيل أن لا أُحرم منه..

- خلاص تمام حبيبتي بس بشرط لو حسيتِ في يوم إنك تعبتِ وإن الموضوع مرهق يبقى ما تضغطيش على نفسك ونشوف حاجة تانية غيره.

- تمام أوي، أنا من بكرة هروح أقدّم ورقي.. أنا كنت جهزت كل حاجة وكنت مستنية بس إنك توافق.

- همممه ده بُعدي عنك خلاكِ تفكري بشكل إيجابي آهو.

- ربنا ما يجيب بُعد تاني أبداً.

- يارب.

نظرت بعمق داخل عينيه.

- صفوت إنت بجد كنت قادر على البُعد ده؟

- أنا لو قلتلك إني كنت بموت في الثانية ألف مرة من شوقي ليكِ هبقى بظلم اللي كنت حاسه فعلًا.

- أمال ازاي هنت عليك كده..

- كنت مخنوق أوي منك وكنتِ وجعاني.

- سلامتك من أي وجع.. أنا آسفة بجد.

- خلاص اللي حصل حصل، المهم إننا بنبتدي صفحة جديدة بس عايزك تعرفي حاجة.

- إيه؟

- عايزك تعرفي إني بحبك إنتِ.. إنتِ بس وإن أي خطأ خطأته زمان لا يمكن أعمله تاني.

- حاضر.

- اعرفي ده كويس وافهميه أوي.

- حاضر واللّه..

- يعني خلاص؟ هتتغيري بجد المرة دي؟

- أيوه.. بحبك.

- وأنا روحي في حُبك.

****

كنت كعادتي وحيداً أنفث دخان سجائري وأنا أتصفح صفحتها الشخصية على موقع «الفيس بوك» ضحكتها جميلة، عيناها يشوبهما سر عميق يدور بي داخل فنجان قهوة.. ليتني كنت قهوة تقف على عتبة شفتيها فتذوب في عسل رحيقهما! دق جرس هاتفي.. نظرت برتابة إلى شاشته لأجد مروة تتصل..

- آلو..

- فينك يا سامو؟

- ما فيش قاعد في البيت.

- تحب آجيلك؟

- مش عارف..

- إيه الرد ده؟ معاك حد؟

- لأ..

- طب تحب نخرج؟

- ماليش مزاج لا.

- وحشتني.

نفثت دخان سجائري بتوتر وشراهة ثم أردفت قائلًا:

- وانتِ يا بيبي، بقولك إيه تعالي يلا من غير تفكير.

- أنا جاية.

- ماشي.

- تحب أجيبلك حاجة معايا؟

- لأ..

- عندك سجاير اللي بحبها؟

- عندي..

- بطعم إيه؟

– النعناع.

– إممم مش بطالة.. مسافة السكة.

أغلقت الهاتف ومنيت عيني مرة أخرى بصورتها لتبقى محفورة داخلي، وتساءلت بيني وبين نفسي لماذا قلبي يتعلق بهؤلاء البعيدات جداً عني! لا إجابة ولا تفسير ولا يوجد حتى منطق! ومنذ متى حياتي بها منطق؟ أنا الجنون اللا متناهي.. خرجت إلى الشرفة لأتنفس قليلًا من الهواء النظيف، وعندما نظرت للأسفل وجدت رجلًا ملثمًا يضع ورقة بيضاء فوق سيارتي، هرولت سريعًا إلى الأسفل ولكنني لم ألحقه، فتحت الورقة لأجد مرة أخرى نفس العيون مرسومة في نصف الورقة! ركلت السيارة بقدمي وجلست أسب وألعن! مَن هذا الأحمق الذي يلعب لعبة الموت ويتحداني! وكيف تجرأ وأخذ يمارس معي أساليب تبث السم داخل أوراق حياتك بكل هدوءٍ!

****

كنت في المطبخ أبحث عن العصير المفضل لي ولم أجده، ناديت ريم بضيقٍ..

– فين العصير اللي بحبه؟

- أنا آسفة بجد، جُمانة خلصته لما كانت عندي وما كنتش أعرف يا حبيبي إنك راجع.. وإلا كنت عملت حسابي وجبت منه تاني.

داعبتها بضيقٍ قليلًا:

- ممم، طب لما جُمانة تيجي مرة تانية قوليلها ده العصير اللي صفوت بيحبه فممنوع تشربي منه..

- هههه إيه الكلام ده، لا طبعًا ما أقدرش.

- ليه؟

- عشان عيب..

- هههه طيب، أنا نفسي فيه أوي بصراحة فهنزل أشتري منه.

- ماشي حبيبي، بس خُد تيليفونك معاك.

- طيب.

****

كنت أنظر إلى الساعة التي تشير بأنها الثانية عشرة صباحًا حتى سمعت صوت مروة وهي تقول:

– صفوت!

فتحت باب الشقة لأجدها قبالة جاري المستأجر الجديد والذي ينظر لها بهلع واندهاش:

– مروة؟

كدت أسألهما كيف يعرفان بعضهما البعض حتى وجدت زوجته تخرج خلف زوجها سريعًا وهي تقول:

– صفوت نسيت التليفو...

صعقت زوجته ورأيتها تنظر بشك وريبة لزوجها ومروة.

– مروة! إيه اللي جابك هنا؟

نظرت لها مروة باستعلاء:

– إنتِ مالك! هو أنا كنت داخلة بيتك!

نظرت إلى زوجها وقالت:

– بتعمل إيه دي هنا يا صفوت؟!

– مش عارف يا ريم، أنا نازل أجيب العصير زي ما قلتلك ولقيتها في وشي!

****

دخلت مروة شقتي بعدما شرحت لصفوت وزوجته أنها صديقتي.. نهرتني بغضبٍ.

- لو كنت أعرف إنك ساكن مع المتخلفين دول ما كنتش جيت.

- إهدي طيب.. همَّا دول اللي حكتيلي عنهم قبل كده.

- أيوه همَّا.

- يا الله على الدنيا الصغيرة.

- شفت كانت هتاكلني إزاي، لولا إنك قلت إني جاية ليك كان زمانها افتكرتني بخونها مع جوزها..

ضحكتُ بخبثٍ وقلت:

- على أساس ما خنتيهاش فعلًا قبل كده!

أخرجت سيجارة وأشعلتها بيدها التي ترتجف توترًا وضيقًا:

- آه خنتها، عشان جوزها ده حيوان أصلًا وكان بيجري ورا أي كلبة.

– بس هو دلوقتي مش كده.

– ما أعرفش بقى كده ولّا مش كده، طظ وما يهمنيش.

تذكرت في بداية معرفتي بمروة حين سردت لي قصتها مع صديقة لها خسرتها، كنت آنذاك عائدًا من إحدى سفرياتي وتعرفت عليها بسبب مشروع من مشاريعي. سألتها عن حياتها العاطفية فأجابتني بكل صراحة:

– أنا كنت بحب واحد خاين وبخون نفسي معاه.

– مش فاهم؟

– يعني كنت بحب واحد خاطب زميلة ليّا، حاجة كده في منتهى العك!

– فعلًا؟ وايه اللي حصل؟

– مفيش عرفِت، فَجّت المكتب عندي في الشغل وعملتلي فضيحة.

– وهو؟

– ههههه جبان طبعًا! غيّر رقمه واختفى بس بعد ما كتبلي مسج، إنه عمره ما هيحب غير ريم

خطيبته.

صحوت من شرودي ونظرت لمروة التي كانت هي الأخرى تنفث سجائرها بألم.

- إيه حنيتِ لما شفتيه؟

- لا طبعًا! بس افتكرت أد إيه كنت ساذجة.

- إنتِ حبيتِ صفوت بجد؟

- عايز الحق؟

- آه؟

- صفوت ليه طريقة كانت حلوة كده، يعرف يدخل بيها حياتك! يظهر ليك على إنه ملاك وإنك عمرك ما هتشوف حد أحسن منه، إنما في الحقيقة هو عامل زي التعبان اللي بيلف بالراحة أوي لحد ما ينقض على فريسته وما يسيبش فريسته إلا لما تكون طلعت في الروح..

- كأنك بتتكلمي عن واحد غير اللي أنا بشوفه.

- إنت كراجل مش هتشوف الوش اللي صفوت بيوريه للبنات..

عودة الكتب حرامية

- مش يمكن إنتِ عايزة تشوفيه بنمط معين..

- أنا ولا عايزة أشوفه ولا يشوفني! أنا ما بكرهش أده.

- يبقى كنتِ بتحبيه.

- ده أحقر شخص شُفته! صفوت ما بيعرفش يحب غير نفسه.

- ويحب ريم..

- حتى ريم ما بيعرفش يحبها صح! اللي زي صفوت صدقني أناني أوي، ياخد أكتر ما يدّي.

ثم اقتربت مني بحنان وأخذت تلعب في شعري بهدوء وهي تنظر مباشرة في عيني:

- أقولك على سر؟

- قولي؟

- عينك فيهم جاذبية بتخليني مهما لفيت وشُفت، أبقى عايزة أجري أستخبى بينهم.

- هههه بتجيبي الكلام الحلو ده منين..

عودة الكتب الرائعة

– من الدنيا اللي ما بتسيبش حد إلا وتعلمه.

ضحكت بسخرية لاذعة وأردفت قائلًا:

– طيب ما تيجي يا دنيا ندخل ننام..

– يلا بينا..

علاقاتي بالنساء كانت تثير غرابة جميع من حولي.. لدي المال الذي يجعل أي فتاة تريد القرب مني ويجعلني أستطيع أن أختار من أريد ولكني كنت أحب الحرية كما ذكرت سابقًا.. لم تكن الحرية من عاداتي قديمًا، فقد كنت حبيسًا لأعوام طويلة لقصة حب فشلَتْ فشلًا ذريعًا ومن بعدها أردت أن أكون رحّالة في حياة جميع كل النساء.. رجلٌ يهبط في ليلة يتيمة فوق ربوع دنياهم ينهل كيفما شاء وما يريد، ثم يلقي السلام ويرحل.. مروة كانت مثلي.. كانت تعشق الحرية.. لا تريد رجلًا يحبسها بحصارِه.. لا تريد أن تكون تُحفة رجلٍ واحد يحركها كيفما شاء.. هي حرة نفسها، متى أرادت أن تأتيني، تأتي.. نتحدث دون حدود ودون خجل.. أسافر وأجوب بلاد العالم وحين أعود إلى القاهرة تحادثني وتطلب مني أن أزورها زيارة سريعة وقصيرة.. لا تريد مني شيئًا.. لا أحبها ولكن هي؟ لا أعلم..

ذات يوم وقبل أن أرحل نادتني بصوت يملأه الحنين.

- هتوحشني يا سامو..

- ما تقلقيش هروح منك فين..

- أقولك على حاجة.

- قولي..

- ساعات بخاف أحبك.

جحظت عيناي لثوانٍ ثم قلت لها بجفاءٍ:

- تبقي عايزة تحطي نهاية لحكايتنا..

- ما تقلقش، أنا عارفة حدودي.. أنا زيك طير مالوش بيت ولا سقف.

- ده عشان مصلحتك يا مروة.

- وعشان مصلحتك إنت كمان.

- ما تخلنيش أندم! أنا صريح وواضح معاكِ من الأول.

- وأنا كمان صريحة من البداية.. مافيش حب..

- طيب ولما انتِ عارفة كده؟ إيه بقى؟

- يمكن احتياج.. ما علينا.. لما ترجع من بَرّه مش هوصيك، إبقى كلمني.

- حاضر..

- باي يا بيبي.

- ههههه باي يا مجنونة.

****

«آسيا، يوسف»

كنت في حجرة المكتب في منزلي كالعادة، نظرت إلى الساعة لأجدها العاشرة مساءً، ما هذا الصمت المخيم في المنزل؟ أين آسيا؟ لماذا لم تأتِ وتسألني عن العشاء كعادتها؟ نهضت من مكاني وخرجت إلى الصالة لأجدها تأكل وحدها أمام التلفاز! انزعجت وسألتها:

- غريبة؟ ما سألتنيش إذا كنت عايز أتعشى ولّا لا!

- عادي، قلت لما هتستوعب الوقت من حواليك، هتخرج لوحدك تدور على الأكل.

- ممم، شكلك كالعادة زعلانة!

– لا.

– متأكدة؟

– آه..

– يعني انتِ شايفة إن مفيش حاجة؟

– هشوف إيه يعني؟

– يعني شايفة إن مفيش حاجة؟

– ما أنا بقولك هشوف إيه.

– مالك يا آسيا؟

صمتت قليلًا ثم التفت لي وعيناها تشوبهما الدموع.

– تعبت أشرح ليك وأقولك إني محتاجة وجودك! أنا يمكن بقيت محتاجة وجودك أكتر من الأول ومش عايزة كل شوية أزن عليك يا يوسف!

لا أستطيع أن أتحمل دموعها، سرعان ما احتضنتها وربتت فوق ظهرها بحنان وحب.

– طب قوليلي أعمل إيه في الشغل اللي عندي ده؟

– يعني هو انت لوحدك اللي بتشتغل؟

– أنا بس عايز أسألك، هو أنا يعني ببقى قاصد أضايقك؟

– لأ..

– طيب يعني أكيد غصبن عني

– وأنا كمان غصب عني.. إنت مش عارف في إيه جوايا.

– طب احكيلي في إيه؟

شعرت أن هناك شيئًا ما يجول بداخلها ولكن ما هو؟ لا أدري؟ شيء ثقيل فوق كاهلها تريد أن تزيحه ولكنها لا تستطيع..

– مالك، سكتّ ليه؟

– مش عارفة أشرح.

– طب هقولك على حاجة حلوة.

– ايه؟

– إيه رأيك ننزل؟

– بجد؟

– آه واللّه؟ تحبي ندخل سينما حفلة٩ ؟

– فيه أفلام حلوة؟

– نشوف ولّا تحبي نلف بالعربية؟

– تيجي نروح نقعد على النيل؟

– يلا بينا..

– اللّه! أنا بحبك أوي بجد.

– وأنا بموت فيكِ يا عبيطة.

ذهبنا إلى الغرفة لنرتدي ثيابنا فوجدتها فجأة تقف في الردهة وتقول لي:

– يوسف..

– أيوه..

نظرت خلفها فجأة ثم نظرت لي بخوف:

– يوسف، أنا بخاف من هنا أوي.

– مش فاهم؟

– الشقة دي فيها حاجة!

– إنتِ تاني يا آسيا؟!

– يوسف أنا أول ما جيت أعدي من هنا حسيت بحاجة.

– أيوه يعني بتحسي بإيه بقى عشان يخليكِ تقولي إن الشقة مش عارف إيه!

– الطاقة نفسها يا يوسف! بتحس! بتخليك تحس إن المكان فيه حاجة غلط! فيه حاجة مش مظبوطة!

– آسيا، يلا بينا نخرج ونبقى نشوف بعدين اللي بتقوليه ده.

****

في حبه كالطفلة أنا، القليل منه يرضيني.. كنت أريد أن أحكي له عن الرسائل المجهولة التي تأتيني ولكني خشيت.. خشيت من أن يغضب، أن أضايقه.. ثم أنا قمت بالتصرف السليم وحجبت رقم هذا المجهول من الاتصال بي مرة أخرى، فلماذا أحكي شيئًا قد يعكر صفو مزاجنا.. أعلم بمدى انشغاله

في عمله وسعيه الدائم للأفضل وعلى الرغم من ذلك أراد أن يُطيّب خاطري.. ارتديت ثيابي سريعًا وخرجت معه في السيارة وحين وصلنا إلى النيل هبطت من السيارة وجلست أمامه في صمت.. مرت دقائق وأنا أشم نسيم الهواء العليل ويدي بين يد يوسف .. شعورٌ جميلٌ لا يوجد أزهى منه..

كنت سأغوص في دوامة أفكاري أكثر ولكن جعلني يوسف أخرج عن الصمت حين قال:

– عارفة؟

– إيه؟

– كنت محتاج أوي قعدة زي دي.

– وأنا أوي.. وانت جنبي وفي حضني.

– أنا طول الوقت جنبك.. جايز عندي قصور في إني ما بعرفش أعبّر بس أنا دايمًا جنبك وحواليكِ.

– على أد ما بكون زعلانة منك، بس مجرد ما بتحاول تراضيني بنسى كل زعلي.

– أنا بس مش عايزك تزعلي مني.. والله ضغط الشغل مش مخليني أكون على راحتي أوي ولا رايق..

- حاضر، هحاول.. إنت بس خليك معايا.

نهض يوسف إلى السيارة وأدار مسجل السيارة وأختار أغنية عمرو التي نحبها كثيرًا.

يا حبيبي مين في اللي إحنا فيه

دا اللي احنا فيه دا ماحدش فيه

كل اللي بحلم جنبك بيه

قبل ما أفكر فيه بلاقيه

طول ما انا شايفك جنبي أنا مطمن من قلبي

حبيبي يا كل حبايبي و العالم وما فيه

طول ما انا شايفك جنبي أنا متطمن من قلبي

حبيبي يا كل حبايبي والعالم و ما فيه

ثم اقترب نحوي وسرت داخل أنفي رائحة عطره التي تثير بداخل كل مشاعر الهيام وهمس في أذني:

- بحبك..

- ده أنا اللي بحبك..

– تحبي ناكل آيس كريم؟

– إيه الدلع ده كله.

– عشان ما أقدرش على زعلك.

– لا حبيبي خلينا نقوم نروّح دلوقتي عشان الوقت اتأخر وبكرة نبقى نروح ناكل آيس كريم.

– آآه خدتِ على الخروج بقى كل يوم.

– ههههه وما آخدش ليه! طالما حبيبي معايا.

– دايمًا معاكِ.

– يارب..

– طب يلا بينا.

– يلا بينا.

صحوت اليوم التالي كلي نشاط وعزيمة وارتديت ثوبًا أبيض ذا أكمام شفافة طويلة وفي وسط الثوب حزام رقيق لونه أزرق، لثمت قُبلاتي فوق وجنتيّ يوسف وهرولت سريعًا إلى عملي.. قابلتني فجر بابتسامتها الجميلة:

- صباح الخير حبيبي.

- صباح النور فجورة، عاملة إيه؟

- الحمد اللّه، إنتِ عاملة إيه؟

- أنا مبسوطة أوي.

- يارب دايمًا حبيبي.. بقولك إيه، غالية تعبانة شوية وخدت إذن.

- إيه ده مالها؟

- لا عادي تعبانة شوية مش أكتر، يمكن إرهاق الشغل.

- طيب تمام.. إنتِ فيكِ حاجة؟

- مش عارفة، يمكن أنا كمان محتاجة راحة.. ما علينا المهم عملتِ إيه مع يوسف؟

- اتكلمنا الحمد اللّه.. أتمنى ما آجيش بعد يومين أشتكي من تاني هههه.

- هههه طيب هروح أعد حلقة مستر كريم.

– ماشي.. وأنا هستنى الحلقة بتاعتي ونتقابل بعدها.

– تمام.

دخلت إلى حجرة مكتبي لأجدها مليئة بباقات ورود البنفسج! لوهلة ظننت أنها من يوسف حتى اقتربت إليها وقرأت تلك الجملة التي أثارت بداخلي كل الرعب مجدداً:

«مش بلوك اللي هيخليني ما أعرفش أوصلك، الورد ده هيخليني أحس إني معاكِ في نفس المكان وقريب منك.. بتنفس نفس الهوا اللي بتتنفسيه.. صباحك بنفسج يا أحلى وأصعب وردة شُفتها في حياتي».

****

(١١)

«آسيا، يوسف»

اجتمعت كلٌّ من فجر وغالية وآية مساءً بعدما أنهيت عملي أنا وفجر كما طلبت منهن، في حديقة قريبة من منزلي، وهناك ما إن رأيتهن حتى بكيت.. بكيت ذعرًا، فربتت غالية فوق ظهري:

– مالك يا آسيا؟ في إيه؟

– مرعوبة ومش عارفة مين البني آدم اللي شغال يبعتلي مسجات وحاجات على مكتبي ده وخايفة أحكي ليوسف.

سألتني فجر بعدم فهم:

– ليه خايفة؟

– ما أعرفش، أنا ما أعرفش مين البني آدم اللي بيبعت ده وما أعرفش مدى خطورته، خايفة لما أقول ليوسف الموضوع يحصل فيه تهور.

نظرت لي غالية بشفقة.

- بس أنا مع فجر، أعتقد إنتِ محتاجة تحكي ليوسف.

أيدتها آية قائلة:

- خصوصًا، إنه عارف كل خطواتك يا آسيا، ده حد مخيف وخطر وجوزك فعلًا لازم يعرف.

- طب باللّه عليكم، هقوله إيه؟

- قوليله، في حد بعت مسجات وانتِ عملتِ بلوك ومع ذلك لقيتيه بيبعت ورد على المكتب

- ايوة مين البني آدم؟

فقالت فجر بخوفٍ:

- أيا كان هو مين يا آسيا.

- فجر، مش هينفع أعمل أي حاجة غير لما أعرف مين البني آدم ده! مش يمكن حد عايز يضايق يوسف وعايز يخوفني عشان أروح أحكي ليوسف وبالتالي يوسف يغير فيتهور فيحصل أي حاجة تضره؟

أومأت غالية برأسها:

- أيوه ممكن .. طب انتِ ناوية تعملي إيه؟

- أنا ناوية أعمل عبيطة لحد ما أشوف نهاية الموضوع ده إيه.

قاطعتني آية:

- بس هو بيستغل ده يا آسيا! هو بيستغل خوفك، وانشغال يوسف عنك!

وأيدتها فجر قائلة:

- أنا شايفة آية كلامها صح وإنك تقولي ليوسف ده الحل الأسلم والصحيح.

أجابتهما غالية:

- يا جماعة بتقولكم ممكن يكون فيه إنّ في الموضوع..

- ماشي إحنا هنخلينا معاها للآخر وهنشوف مين البني آدم.

- بليز خليكم معايا، عشان أنا خايفة أوي.

سألتني آية بتفحص:

– قوليلي يا آسيا، هو فيه وقت معين بيبعت فيه؟

– تقريبًا آه، إشمعنى؟

– إمتى الوقت ده؟

– لما بكون في الشغل.

نظرت لها فجر بشكٍّ وقالت:

– شكلك بتفكري في اللي بفكر فيه؟

ردت آية وهي شاردة:

– واحد بيختار الوقت اللي بالذات يوسف مش جنبها فيه!

فجر وهي شاردة أيضًا بتفكيرها:

– صح، وده بيأكد إنه مش سهل! البني آدم ده مش مجرد معجب بمذيعة بتظهر في برامج! ده حد مهووس بيكِ يا آسيا!

بكيت من توتري وهلعي فربتت كلٌّ من غالية وآية على ظهري وقالت لي غالية:

– ما تخافيش يا حبيبتي، إحنا حواليكِ..

وطمأنتني فجر:

– أيوه ما تقلقيش.

وأكّدت آية مجدداً:

– بس خليكِ قريبة من يوسف دايماً وابعدي تفكيرك تماماً عن الإنسان ده ولو حصل حاجة بلغينا.

****

كنت عائدة من العمل وكانت حالتي يرثى لها، انتظرت المصعد فجاء واحد خلفي، لم أعره أي اهتمام.. ربما جاري أو ربما زائر، لا أعلم من يقطن معي في نفس العمارة.. يقول لي يوسف بأني انطوائية وأنني غير باقي الزوجات اللاتي يقمن علاقات مع سابع جارة وربما يحفظن جميع من يقطنّ معهن في نفس المنطقة.. أما أنا فلا أدري بأحد ولا أحب أن يدري بي أحد.. كم جارة لدي؟ لا أعلم.. أنا حتى لا أكترث لهن حين أراهن.. في العيد الماضي، كنت قادمة من الخارج فرأتني إحدى الجارات فقالت بصوتٍ عالٍ:

– كل سنة وانتِ طيبة يا حبيبتي..

- وحضرتك طيبة.

أجبتها باقتضاب شديد وهرولت إلى شقتي، لا أريد فتح أي نقاشات ولا أريد منها أن تتخطى الحدود.. جاء المصعد أخيراً وصعدت إليه وصعد معي جاري، شعرت بنظراته تحاصرني حتى شعرت وكأن تلك النظرات ستغتصبني! محشورة في ركنٍ من أركان المصعد وتنحشر معي نظراته التي سحبت الأكسجين كله من المصعد!

سألني بهدوء وبصوته الرخيم:

- الدور الكام؟

- التاني يا افندم.

تحرك المصعد ولكن ما بال هذا المصعد بطيء اليوم على غير عادته! وإذ فجأة يهتز المصعد ثم يتوقف في المنتصف! ماذا؟ علقنا؟ ما هذه الدعابة السخيفة! نظرت لجاري الذي ظل يضغط على جميع الطوابق لعل المصعد يتحرك فصرخت ذعراً:

- ما تقولش إن الأسانسير علّق بينا..

- واضح كده..

- لالالا، ما ينفعش! طب نادي أي حد، نادي البواب.

أخذ جاري ينادي البواب بصوتٍ عالٍ ولكن ما من مجيب! أين هؤلاء الجيران المترصدين لي دومًا بفضولهم؟ هل اختفوا الآن؟ وقت الحاجة اندثروا؟

أخرجت هاتفي من حقيبتي بخوف وهلع وحاولت أن أتصل بيوسف ولكنه لا يلتقط أي شبكة لعينة..

- اعمل أي حاجة بليز، أنا بخاف أوي.

- طيب إهدي، إهدي ما تخافيش أنا معاكِ.

نظرت بخوف أكثر حولي وحاولت مجددًا أن أنادي عليهم جميعًا ولكن لا يوجد سوى الصمت يسمعني.. بدأت أوصالي ترتجف وبدأت برودة الخوف تسري بشدة داخل عروقي حتى شعرت بأن قدمي تتجمد ويدي أيضًا.. لدي مخاوف شديدة تجاه المصعد إثر حادثة لي حينما كنت صغيرة!! بل إنني أكره أن أركب المصعد وأفضّل الدرج ولكن لولا تعبي وإرهاقي.. لهذا صعدت في المصعد! فقت من شرودي على صوت جاري وهو يقول لي:

- إنتِ كويسة؟

كنت أشعر بالاختناق وعدم التوازن، لا أعلم ماذا يحدث لي؟ ولكن الخوف يأكلني، سألني مجددًا:

- إنتِ كويسة؟

اقترب مني أكثر، كنت أريد أن أنهيه عن الاقتراب ولكن حالتي تسوء أكثر، اقترب ومسك يدي برفقٍ شديدٍ:

- حاسة بإيه؟

- مش قادرة آخد نفسي، ودايخة..

- ما تخافيش، ده بس من خوفك.

صوته يصلني بشكل خفيف جدًا، وعيني تغمض لا إراديًا، الاختناق يجعل قدمي تتهاوى ولكنه يمسكني جيدًا.. ملت بين أحضانه وما عدت قادرة فهمس لي:

- ما تخافيش أنا معاكِ.

وإذ فجأة يتحرك المصعد ويصل للطابق الأرضي مجددًا وينفتح الباب ليراني يوسف بين أحضان هذا الجار الغريب!

****

(١٢)

«خالد، إليانا»

طلبت من خالد أن أذهب وحدي إلى المشفى من أجل الجلسة الجماعية، في البداية اعترض وأراد أن يكون معي ولكني أرغمته على أن يتركني وحدي.. ركضت إلى الشجرة التي يجلس بأسفلها صقر دومًا.. وجدته ينظر إلى معصمه، جلست في صمت بجانبه.. دقائق مرت دون أن يتحدث أحدٌ منا ثم التفتنا سويًا في آنٍ واحدٍ وقلنا:

- وحشتيني.

- وحشتني..

- كنت خايف ما تجيش..

- ليه؟

- مش عارف، ومش عارف إذا من حقي أحس اللي حاسه ناحيتك ده ولا لا..

- ششش، مش عايزة أسمع أي كلام سلبي، عايزة أستمتع باللحظة اللي بكون فيها معاك.

- بقيت أفتقدك أوي.

- وأنا بقيت بَعِدّ الوقت عشان آجي هنا وأشوفك.

- حاسس إن الحياة اختلفت.

- هتصدقني لو قلتلك، إني بقيت أحس لأول مرة ليها طعم!

- عارفة بقيت أنام وأدعي بكرة يجي عشانك.

- وأنا بقيت عايزة أعيش الحياة دي! ما بقتش رافضاها.

- طيب وبعدين يا إليانا؟

- خلينا نتأكد من إحساسنا.

- ولما نتأكد؟

- وقتها هنفكر نعمل إيه..

مسك يدي لأول مرة وقبّلها، أغمضت عيني من نشوة السعادة التي غمرتني، تلك المشاعر التي أحسها لأول مرة أشعر بها! أهذا الحب الذي سيبقيني على قيد الحياة!

****

لا أدري ما هذا التحول الذي أصاب إليانا؟! تغيَّر طرأ عليها، لستُ على يقين إن كان للأفضل أم للأسوأ ولكنها تستجيب للعلاج النفسي الذي تخضع له.. أراها مقبلة على الحضور للجلسات الجماعية.. وبينما كنت أنتظرها في المنزل، إذ فجأة دق جرس البيت، ذهبت لأرى مَن الحاضر فوجدت باقة من الزهور المفضلة لي وبطاقة داخلها مكتوب «حمد اللّه على سلامة إليانا» مرفقة بصورة لطائر الصقر! لم أفهم مَن الذي أرسلها وكيف عرف عن إليانا؟! ولماذا أرسل لي صورة لطائر الصقر؟! فقت من شرودي وحرقت البطاقة فأنا لا أريد أن تعرف إليانا أن هناك أحداً يعلم عن أمرها وألقيت بباقة الورد والصورة خارج المنزل..

عادت إليانا من الخارج وما إن رأتني حتى ابتسمت لي وقالت:

- بتعمل ايه؟

- مفيش كنت قاعد سرحان شوية.

- تحب نخرج؟

لم أجبها من هول الصدمة! هل حقًّا هذا المشهد حقيقيّ؟ هل هي بالفعل طلبت للتو أن تخرج معي؟ بكامل إرادتها؟

نظرت لي وأنا أنظر ببلاهة وقالت:

- مالك؟ سكت ليه؟

- هو اللي أنا سمعته ده بجد؟

- أه؟ تحب نخرج؟

- طبعًا، أحب جدًّا.

- تمام، أنا هغيّر وهلبس حاجة كاجوال كده، عشان نفسي نروح الملاهي.

- الملاهي!

- أه!

- إنتِ بتتكلمي جد؟ هنروح أنا وانتِ الملاهي؟ نلعب ونجري وكده

- أيوة.. مالك في إيه مندهش أوي كده؟

- أصل مش قادر أصدق.

- حاسة إني عايزة اتنطط وأفرح وألعب وأضحك.. بص، عايزة أشتري حلويات كتير ومصاصة ولبان وعايزة بلالين.. أقولك عايزة دباديب كتيرة كمان..

ضحكت لها بسعادة وبهجة، لم أرَ إليانا من قبل في تلك الحالة ولكن حمداً لله، العلاج بدأ مفعوله؛ لذا سأحقق كل أمانيها..

- حاضر يا حياتي، هعملك كل اللي نِفسك فيه.

****

«مالك، ليال»

ذهبت إلى المركز المختص بمشاكل المتزوجين في الموعد الذي أخذته بعد فترة انقطاع طويلة.. وعندما رآني الأخصائي سألني:

- عاش مين شافك.. يا ترى سبب غيابك إيه؟

- يعني زي ما انت عارف، ليال وتصرفاتها الغريبة.

- لسه واقفين عند نفس نقطة الخلاف؟

- تقريباً آه، والموضوع بدأ يزيد أكتر..

- مش إنت بتقول إنها عارفة إنك بتيجي هنا؟

– آه..

– طيب ما تخليها في يوم تيجي معاك.

– مين ليال! طبعًا هترفض.

– جرب؟

– صدقني هترفض.. ليال شايفة إن الغلط عندي أنا وإن أنا اللي لازم يلاقوا ليّا حل.

– طب جربت تتناقش معاها وتشوف؟

– إحنا تقريبًا فقدنا حلقة التواصل اللي تخلينا نتناقش زي أي اتنين طبيعين.

– طب إيه اللي مخليك مستحمل؟

– إني لسه بحبها مثلًا؟

– يبقى طالما لسه في حب، يبقى لسه فيه فرصة قُدّامك تحيي ألف حلقة وحلقة وصل.

– حاضر، هحاول أقنعها تيجي.. بس إنت عارف حالتها.

– عارف وعشان كده محتاج أشوفها أوي.

- تمام هحاول..

كدت أخرج من المركز حتى رأتني تلك الأخصائية التي طلبت من الاستقبال تغييرها لي، ابتسمت لي بهدوء وإقتربت تحييني قائلة:

- مبسوطة، إنك قدرت تتغلب على حاجة جواك..

- شكرا ليكِ.

- بقولك صحيح، فيه حاجة شاكة فيها كده، كنت حابة لما تكون فاضي تيجي عندي المكتب أحكيلك عليها.

نظرت لها باندهاش فأردفت هي سريعًا قائلة:

- لو حابب أنقل شكوكي ده للمختص بمشكلتك، أنا عادي.. بس الحاجة اللي عندي مهمة ولصالحك إنك تعرفها..

خرجت من المركز وأنا كلي حيرة، ما هي الشكوك التي تساور تلك الأخصائية؟! وكيف سأقنع ليال أن تأتي المرة القادمة معي؟ بالطبع إذا طلبت منها المجيء ستموج غضبًا.. عدت إلى المنزل ووجدتها تصرخ قائلة:

- حرام عليكِ بقى! ما بطلتيش عياط وزن.. تعبت معاكِ بجد جبت آخري منك!

مرة أخرى شلت حركتي ولم أقوَ على فعل شيء.. بادرت بالسلام فردّت السلام على غير عادتها.. نظرت لها بشفقة وحزن:

- مالك؟

- تعبت واللّه! تعبت

اقتربت منها بهدوءٍ وحاولت أن أحتويها فتركت نفسها لي مما أثار دهشتي، همست في أذنها:

- بالراحة، اهدي..

- عايزة أرتاح بقى.

قربتها لأحضاني أكثر، أغمضت عيني وكأني لا أريد تلك الصورة أن تختفي من مخيلتي.. أريد من هذا المشهد أن يبقى الأخير.. سلامٌ غير عاديّ غزا جسدي ما إن لامست جسدها الأملس.. نظرت لي بضعف واستسلام ثم قالت:

- بتحبني؟

- طبعًا يا ليال...

- زي مالك ما بيحبني؟

- يعني إيه زي مالك؟ أومال أنا مين؟

- إنت حد غريب..

كدت أجيبها لولا أنها تأوهت وأخذت تبكي حتى النشيج، بكاؤها يعصرني حد الأسى، احتضنتها بقوة وكأني أريد من الحب الذي يسكن أحشائي ينتقل إليها عن طريق الحضن.. أوليس في الحضن مُهجَة! ولي في حضنها دهرٌ خالدٌ!

اشتقت إليه كثيراً، اشتقت لزوجي «مالك» ومَن أعيش معه تحت سقف واحد أعيش معه رهينة.. اختطفني واختطف زوجي مني.. سلبني معنى الحياة وسلب فرحتي وابتسامتي.. ما أعانيه ليس اكتئاب ما بعد الحمل، ما أعانيه هو بسبب ما يحدث من هذا الرجل.. ذهبت إليه اليوم بكامل إرادتي وطلبت منه أن يحتضني.. أحتاج أن أشعر بحنان مخبأ في جحوره.. أحتاج منه أن يشعر بي ليعيد لي ما سلبه مني.. ليعيد لي دُنياي.. أخون مالك؟ بالطبع أخونه! أخونه لأنه ليس معي الآن، من يوجد في تلك الحجرة البغيضة شخص آخر.. شخص لا أعرفه ولكن أحتاجه جداً.. ركضت إليه أبكي بين ذراعيه، أنوح غياب لذة الحياة ومنتهاها، أقيم الحداد في كنفه لعله يحس بضراوة ما يبقيني

مقيدة بين جنبات عالمه.. لا أحفل إن كنت باقية على العهد أو لا ولكن هذا الاحتياج الذي يعتصرني أقوى من كل شيء.. أنانيتي جعلتني أهرب منه إليه.. أهرب داخل عينيه، أغوص في قُبلة من شفتيه..ألوذ فرارًا بين صدره الدافئ! وأعلم أنه يريد أن يصبح مثله في كل شيء.. أغوص أكثر وأدفس رأسي في حضنه أكثر وكأني أريد أن ألمس ما تبقى لي من مالك.. همس لي بصوتٍ خفيفٍ:

- وحشتيني أوي.

- ومالك واحشني جداً..

- محتاجك أكتر ما انتِ محتاجاني، محتاج أحس بكل حاجة منك، محتاج ترجعيلي.

- وأنا كمان..

كنت أجيبه وأنا مغضمة العينين، خاضعة لكل ما يفعله بي هذا الرجل، يتحدث معي وأنا أجيب مالك وأترك هذا الرجل يعبث معي حيثما شاء.. انهالت قُبلاته عليّ بشوق عارم، هو يقبّلني وأنا في مخيلتي أقبّل مالك، هو يستنشقني وأنا أستنشق مالك من خلال مساماته.. انصهر معي وتركت العنان له، لا أدري كيف! ولكن الاحتياج، الاحتياج الذي يبقيك على شفرة الموت ترقص! الاحتياج الذي

يعلقك بين سبع سموات العذاب والألم.. غابت كل القيود واستشهدت داخل فراش الاحتياج!

****

اشتريت ثوبًا جديداً لطفلتي الصغيرة الجميلة.. أحب تقبيل يدها، أن أقبّل أناملها واحدة تلو الأخرى.. أحب قدمها الصغيرة جدًّا.. ناعمة الملمس.. أعشق جسدها الذي أضع عليه زيت «جونسون برائحة الأحلام» هل للأحلام رائحة؟ نعم حين يكون الحلم طفلًا صغيرًا فرائحته تكون جنة! هي الجنة الخالدة التي أهرب إليها من الواقع برمته.. جعلتها ترتدي ثوبها الزهري الجديد، الآن تبدو لوحة فنية جمالها لا يضاهيه جمال.. لملمت أغراضي التي أحتاجها وحقيبتها وذهبت بها إلى الحضانة وأودعتها لهم ثم اتجهت للمركز .. قابلتني الأخصائية وسألتني:

- ها عاملة إيه مع جوزك دلوقتي؟ إديتِ نفسك فرصة.

- أيوه، حاولت واديته فرصة.

- وردّ فعله؟

- كان فرحان، وفضل حلو معايا لمدة يومين وبعدها اتغير تاني.

- إزاي؟

- زعيق وقسوة.

- طب وأخباره إيه مع البنت؟

- لسه..

- معقول لحد دلوقتي رافض وجودها؟

- مش بس كده، تخيلي رجعت في يوم البيت لقيته متعصب وبيكسر في لعبها اللي بشتريها ليها! بس لحد إمتى هفضل ساكتة ومستحملة ده؟

- طيب مافيش حد من أهله تقعدي تتكلمي معاهم؟

- للأسف مفيش! وغلبت معاه، غلبت أخليه يحس ببنته ويقدر النعمة اللي عنده.

- طيب ما تحاولي تخليه يجي؟

- لالا، هو ما يعرفش إني باجي هنا، أنا أصلًا مش عايزاه يعرف.

- ليه؟

- هيفضل يتخانق معايا ويعند.. مالك عنيد أوي وممكن ده يعمل فجوة كبيرة بينه وبين البنت وأنا بحاول أقضي على ده.

- صحيح ما قُلتليش اسم البنوتة إيه؟

- هنا وهي الهنا اللي في حياتي فعلًا.

- ماشاء اللّه، ربنا يحميها ويخليهالك يارب.

- يارب ..

- طيب هديكِ واجب تاني تحاولي تعمليه ويارب يجيب نتيجة.

- إيه هو؟

- بصي يا ستي، هتطلع من هنا على شغله، هتاخدي معاكِ حاجة هو بيحبها.. شوفي إنتِ هو بيحب إيه وخديه معاكِ تمام؟

- تمام جداً وبعدين؟

- بعدين هتعزميه على الفطار في مكان هادي وراقي وحلو.

- حلو وبعدين؟

- وبعدين هتاخديه لحد الحضانة..

- بس هو مش هيوافق..

- لا ما انتِ مش هتقوليله، هتاخديه من غير ما تقوليله وهناك أول ما توصلي قوليله بهدوء وامسكي إيده بالراحة وقوليله بحُب تعالى معايا جوة..

- تفتكري هقدر أعمل كده؟

- طبعًا هتقدري..

- هحاول ربنا يستر.

- والمرة الجاية تعالي وقوليلي إيه اللي حصل، بس حاولي ما تغيبيش كتير عشان أقدر أساعدك بشكل أكبر.. كل ما انتظمتِ في الحضور كل ما كان أفضل..

- طيب..

****

كنت في المكتب أعمل، وإذ بظرف أحمر آخر جاء لي من مجهول! مجدداً هذا الظرف؟ ماذا يريد منّي هذا الشخص؟ هل يريد أن يصيبني بجنون؟ فتحت الظرف لأجد دواء لا أعلم ماذا يفعل! ألقيته في سلة المهملات.. اتصلت بي ليال، أجبتها بلهفة:

- أيوه حبيبتي.

- وحشتني.

- وإنتِ أوي.. بتعملي إيه؟

- مافيش بفكر أشتري كام قصة كده لهَنا.

- ممم، طيب.

- مالك؟

أجبتها بسقم وبرتابة:

- عادي، مافيش.

ثم سكت لفترة طويلة فأردفت قائلة:

- مش معقول يعني كل ما أكلمك عنها تحسسني إني بكلمك عن حد نزل علينا من المريخ؟!

- مش عارف أقولك إيه..

- ماتقولش حاجة خلاص، أنا غلطت إني كلمتك.

- إستني طيب.

- عايز إيه؟

- إنتِ زعلتِ؟!

كاد الهاتف أن ينكسر بسبب صراخها الحاد والمزعج جدّاً:

- هو انت يفرق معاك زعل ولا قرف..

- في إيه يا ليال بتتكلمي كده ليه! ما تحسني إسلوبك.

- إسلوب إيه يا مالك! إسلوب إيه! مش كفاية إني عايشة حياة معاك تكفر أي بني آدم وتقولي إسلوب.

حاولت أن أتمالك أعصابي ولكن مشاعري احتدمت بداخلي فخرجت إلى الهواء الطلق حتى أستطيع أن أتحدث على راحتي:

- بقلك إيه شغل المجانين بتاعك ده مش عليًّا.

- مجانين!

سكت قليلًا وضغطت على فك أسناني:

- ليال، اقفلي..

- لا مش هقفل.

- عايزة إيه يا ليال!

- أنا مش على مزاجك وقت ما تحب تقفل لازم أقفل! إوعى تفتكر إنك هتقدر تتحكم فيا! ما اتخلقش ولا راجل يتحكم فيًّا!

- تحكم إيه بس يا بنت الحلال!

- أنا أمي كان عندها حق لما قالت إن كل الرجالة قرف وما يجيش من وراهم إلا الهم.

- يا شيخة ما تخلينيش أغلط فيها وهي ماتت ربنا يجازيها على اللي عملته فيكِ يا شيخة.

- احترم نفسك.

- هو إيه أصله ده؟

- زي ما سمعت! فاهم؟ لما تتكلم عن أمي تتكلم باحترام..

- باي يا ليال..

وأغلقت الهاتف في وجهها، تلك المجنونة تقودني إلى طريق وعر تملأه أمراضها العليلة.. ولكنه ليس ذنبها، إنه ذنب تلك الإنسانة التي تعفنت في قبرها الآن.. هي مَن ملأت رأسها بالأفكار العفنة! كنت أسمعها دومًا تقول لها «الرجال هنا يا عزيزتي، شرقيون لا يأبهون لكِ ولا لمشاعرِك! يأبهون لذاتِهم فقط، إياكِ أن تنخدعي في رِقّتهم فهذا الحبل المخادع الذي يسحبونك به لهم وحين تصلين لهم يجعلونك أسيرة تحت قدمهم ويلفون ذاك الحبل حول رقبتك، فتموتين شنقًا! تموتين من نقص الحرية، الحنان، الاحتواء والحب! ظلت تغزل لعناتها عليها حتى جُنت وحتى أخرجت كل ما بداخلي من قسوة وجحود! أو ربما هي من أوهمتني بأنني جاحد وقاسٍ!

* * * * * * *

(١٣)

«ريم، صفوت»

صحوت من نومي وبحثت كالمجنون عن ريم حين لم أجدها بجانبي، لم نتحدث سويًا من بعد الليلة الماضية حين رأت مروة.. وجدتها في المطبخ تعد الفطور، احتضنتها من الخلف وقبّلت عنقها بولّهٍ شديد.. التفتت لي بابتسامة:

– صباح الخير حبيبي.

حمدت اللّه أنها لم تقابلني بصد أو جفاء، اعتقاداً منها بأني كنت على موعدٍ مع مروة!

– صباح النور يا روحي أنا..

– بحضرلك الفطار آهو ..

قبّلت يدها بنهمٍ شديدٍ.

– تسلم إيدك، بس إيه الروقان ده كله!

– عشان واحشني وعشان عايزة أعوّض كل دقيقة غياب حصلت بينا.

– ربنا ما يجيب غياب تاني..

صمتت قليلًا ثم أكملت حديثها:

– أينعم أنا اتخضيت أول ما شفت مروة إمبارح، وكنت عمري ما هصدق إنها صدفة لولا إن صاحب الشقة ده قال إنها تبعه.

– الحمد اللّه، وإلا كنتِ ظلمتيني..

داعبت وجنتي وقرصتها قرصة خفيفة وقالت:

– ده من حبي فيك مش أكتر..

ليتها دومًا بهذا المزاج وهذا التحسن، كم تبدو كهرّة صغيرة لطيفة، تملأ الشقة بالطاقة والسعادة.. فطرت معها وتحدثنا في الكثير من أمور الحياة ثم ودّعتها بقُبلة وذهبت إلى عملي..

****

ذهب صفوت إلى العمل واتصلت بجمانة التي كنت قلقة حيالها، ثلاثة أيام وهي في اختفاءٍ تامٍ.. أجابتني بصوتٍ ناعس:

– أيوه يا ريم.

– إيه يا جمانة، فينك كده؟

– في البيت..

– غريبة يعني ما أعرفش عنك أي حاجة من تلات أيام.

– معلش حبيبتي، كنت في مشكلة كده.

– مشكلة إيه!

– واحدة قذرة بعتتلي صورها مع جوزي، فكنت عايزة أشوف آخرها إيه!

– يا نهار اسود! بيخونك؟ مش أنا ياما حذرتك؟

– طيب ما أنا عارفة يا ريم إنه بيخوني من وقت للتاني..

– نعم!

– أيوه طبعًا، إوعي تفتكري إني نايمة على وداني، أنا عارفة كل نزواته من أول يوم جواز لينا بس بقول طالما بيرجع ليّا أنا في الآخر يبقى هخرب بيتي ليه!

– إنتِ بتتكلمي بجد يا جُمانة؟ إنتِ إزاي قابلة تعيشي كده؟

– ريم، أنا عايشة في عز ما حدّش يحلم بربعه، أخرب ليه بقى الإمبراطورية بتاعتي عشان حاجات فارغة..

– جوزك يخونك ويلمس غيرك ويقول كلام حب لغيرك وتقوليلي حاجات فارغة؟

– هو بيختار مين في الآخر؟

– ما بتتحسبش كده يا جمانة؟ وفين كرامتك وكبريائك؟

– هينفعوني يعني لما أطلق وأبقى لوحدي انا وابني لكلاب السكك تنهش فيّا؟

– لا طبعًا في عُرف مين اللي بتقوليه ده!

– في عُرف الناس وأهلي يا ريم..

– إنتِ قولتِلهم إنه بيخونك؟

– طبعًا

– وقالوا ليكِ إيه؟

– قالولي نفس الكلام اللي اقتنعت بيه وبقوله لك دلوقت..

– أنا مش قادرة أستوعب؟ ومش عارفة أقولك إيه!

– أنا اللي غاظني جبروت القذرة دي! إنها بتبعتلي الصور عشان أعرف بخيانته وأتطلق وطبعًا هي بقى يخلا لها الجو..

– طيب ما هو ممكن فعلًا يا ريم يعمل كده؟

– وهو هيلاقي منين واحدة عارفة كل قرفه وساكتة ومتعايشة كمان.

– هو عارف إنك عارفة؟

– أصل مش غبي إنه ما يحسش إني عارفة.

– هو إنتِ بتعرفي تنامي آخر الليل عادي كده؟

– خلاص اتعودت.

– ده أنا لما بشكّ بس في صفوت النوم بيطير منّي! ببقى حاسة إني مش عارفة أعيش عادي كده..

– عشان إنتِ هبلة وساذجة بس.

أغلقت معها الهاتف وهاتفت صفوت فورًا معللة اتصالي بأني اشتقت إليه ولكني كنت أريد التأكّد

من وجوده في العمل.. وبعدما أنهيت اتصالي به رن جرس المنزل، وعندما ذهبت لأفتح وجدت رسالة مكتوب عليها «الشك طوق نجاتك» لم أفهم تلك العبارة! وكيف يكون الشك طوق نجاة؟ ومَن هذا الشخص الذي يتعمد دومًا أن يفتح نوافذ الشك كلها داخلي! من صاحب تلك الألغاز؟ وإلى ماذا يريدني أن أصل؟! كدت أصرخ بصوت عالٍ ولكنني خفت أن يظنني الجيران قد جننت.. هاتفت مرة أخرى صفوت وكدت أخبره ولكن توقف الكلام في حلقي! فهناك أسرار تبقى عالقة بالنفس لا تبرح، لأن في البوح بها الهلاك للجميع!

****

خرجت أتنزه قليلًا في ضواحي القاهرة، متعة السير فيها ليلًا تضاهي متعة السفر حول العالم.. الشوارع هادئة، النسيم يتطاير من حولك، روائح الأزقة العاتية يأخذك بسحره إلى الماضي.. ليتني كنت صغيرًا ولم أكبر.. أو ليت تلك الأزقة منحتني حياة أفضل.. وجدت قدمي تقودني إلى المقهى الذي رأيتها فيه.. تلك الحورية التي تجعل قلبي يدق رغمًا عنه! كنت قد أغلقت أبوابه منذ القدم.. منذ أن جُرِحت!! مرضت باِسم الحب في الماضي وفترة شفائي لم تكن سهلة.. هل أنا شُفِيت؟ لا أظن؟ أو ربما، لست أدري.. ولكن قلبي يئنّ حين أرى حوريتي.. قالها حليم يومًا «عيناها سبحان

المعبود» أعلم إنه كان يقصدها هي.. هي وحدها.. ليتني عرفتها في السابق قبل أن يقتلني وهم الغرام.. ليتني عرفتها قبل أن أصبح سفاحًا يستبيح وأد الهيام.. ولكن ماذا نفعل في أمنيات صعبة التحقيق.. جلست في المقهى وطلبت مشروبها الذي تحبه وجلست أنظر إلى الطاولة التي تجلس إليها، تقرأ إحدى رواياتها أو تعمل أحيانًا.. أكاد أجزم أنها تحب الأدب البوليسي من خلال قراءتها دومًا لروايات «أجاثا كريستي» تلك الناعمة تقرأ عن الغموض وحكايات القتل.. كيف يتحمل قلبها الرهيف أن تسمع وتتخيل شعور الغدر! مثلها خُلِقَ من أجل الحب.. هي من هؤلاء الرُسل المحمّلين بالسلام والحُب لنشره وسط الغابات التي نعيش في وسطها.. أتساءل أحيانًا ما شعور المقربين لها؟ هل يدركون معنى النعمة؟ هل يصلُّون ألف مرة شكرًا للّه على وجودها؟ هل يتعبدون في الكنائس داعين من الرب أن يحفظها؟ وأفكر أوقاتًا كثيرة لو كنتُ غلافًا لإحدى الروايات التي تقع بين أناملها كيف كنت سأكون! أنا في حضورها أكون ولا أكون! ما زال آخر لقاء لي بها عالقًا في ذهني لا يبرح! ما زال همسها وشمًا فوق صمامات قلبي.. كل شيء يخصها معلّقٌ في ذاكرتي للأبد.. كنت في قمة شرودي وإذ بالقدر يرسل لي أجمل هدية، رأيتها تأتي كعادتها بكل هدوءٍ وتجلس على طاولتها المعتادة، طلبَتْ كوب

قهوتها الذي أحفظه جيداً وسرعان ما انهمرت في عملها.. لا تشعر أبداً بمن حولها.. جلست أحدق بها وأتابعها بنهمٍ شديدٍ، أحبس رغبة مجنونة على وشك الانفجار تجعلني أريد أن أركض إليها وأقبّلها كمجنون ليلى حين يقبّل محبوبته! رفعت رأسها وألقت نظرة سريعة للعالم من حولها ثم نظرة لي وعادت مجدداً تطرق رأسها للأسفل وتتابع عملها! يا إلهي تلك النظرة التي لم تتعدّ ثواني أردفتني شهيد العشق! في محراب حُبك يا سيدتي قد أنشد جميع الألحان.. ومن أجل نظرة قد أشرب كأس الألم حتى آخره دون أي تفكير أو ندم.. أتاها اتصال فأجابت برِقّة نحرت كل قواي.

– أيوه حبيبي! آه تقريباً فاضلّي شوية كده وأخلص.

لا لن أسمع ما قالته، أذني لن تستقبل تلك الحقيقة المؤلمة! حوريتي لي أنا فقط.. حوريتي ليس لديها حبيب، أنا حبيبها.. أنا فقط.. لا لن أجعل الماضي يعود من جديد، لن أجعله يكرر ما فعله بي مرة أخرى! لن أعيش مجدداً فيلم الجميلة والوحش!

****

«آسيا. يوسف»

كاد قلبي يتوقف رعبًا حين رآني يوسف في أحضان جاري الغريب! ولكن حمداً للّه علامات الإعياء كانت واضحة وبقوة، وعلى الرغم من أنه وقف لثوانٍ ليدرك المشهد الذي أمامه حتى ركض لي بفزع وحملني هو بين أحضانه وقال لي بتوجس وخيفة:

– حبيبتي فيكِ حاجة؟

– ما تقلقش، هي كويسة هو بس شكلها داخت، أو عندها فوبيا من الأسانسيرات.

– آه، ده حقيقي.. شكرًا ليك جدًا.

نظر لنا قليلًا ببلاهة ثم استأذن وذهب إلى شقته.. التفت سريعًا ليوسف:

– ما أعرفش إيه اللي حصل بجد، أنا أول ما الأسانسير وقف، خفت وبدأت أترعش وما حستش بنفسي

– ولا يهمك حبيبتي، المهم إنك بخير وكويسة دلوقت.

– آه، بليز خلينا نطلع شقتنا، بس خلينا نطلع على السلالم.

– طيب ما أنا معاك أهو

- معلش، أنا خايفة دلوقتِ مش عايزة أجربه تاني.

ثم أردف بسخرية:

- وتضيعي عليّا الحضن اللي هاخده..

- بس بجد عشان أنا ما أعرفش إزاي ده حصل واللّه.

- أنا بيني وبينك كنت عايز أخنقه بس أنا عارف إنه أكيد كان بيمسكك عشان ما تقعيش.

- أنا أصلًا أول مرة أشوفه.

- إيه ده؟ إنتِ ما تعرفيش مين ده؟

- لا طبعًا هو أنا أعرف حد هنا في العمارة.

- ده يا ستي يبقى...

ثم قطع حديثنا صوت هاتفه الذي جعله يدخل إلى المكتب ما إن وصلنا إلى الشقة وكأن شيئًا لم يحدث لي! آه كم أمقت هذا العمل الذي يأخذه مني دومًا! بدلت ثيابي وأحضرت الغداء ثم ناديته برتابة:

- يوسف، يلا الأكل..

- حاضر، عشر دقايق بس.

– يا يوسف أنا جعانة!

– حبيبتي بخلص شغل ضروري، عشر دقايق.

– يوسف بعدين الأكل هيبرد وهتزعقلي وتقولي لازم أكله سخن.

– يوه بقى يا آسيا، متزنيش! في إيدي حاجة ضروري بخلصها.

كلماته جعلت الغصة تقف في حلقي كَشَظية نار تلهب جسدي كله، وتتلف أعصابي.. كدت أنفجر غضبًا فيه ولكن أتتني رسالة من رقم مجهول جديد «إدي نفسك فرصة تسمعيني، أنا عارف إنك محتاجة حاجات كتير وأنا نفسي أعوضك بيها».. لم أتمالك نفسي، غضبي، سخطي، يأسي، تخبطي، وحزني من يوسف واهتمام ذاك الغريب جعلني أقف في نصف الصالة أبكي.. أبكي بلا حساب.. دموعي تنهمر بلا توقف.. أضناني عدم التقدير وهلكني الاحتياج! انزويت في أحد الأركان ونشيجي مستمر بلا رحمة، يأخذ أنفاسي للأعلى ثم يهبط بقسوة فيخبط في صدري بشدة.. وضعت يدي على فمي في محاولة أن أكتم كل هذا البكاء، ولكنه كان أقوى فخارت قواي حتى وقعت على الأرض أنوح.. خرج يوسف يبحث عني في أرجاء الصالة حتى وجدني على الأرض، أبكي بضعفٍ

– يا يوسف أنا جعانة!

– حبيبتي بخلص شغل ضروري، عشر دقايق.

– يوسف بعدين الأكل هيبرد وهتزعقلي وتقولي لازم أكله سخن.

– يوه بقى يا آسيا، متزنيش! في إيدي حاجة ضروري بخلصها.

كلماته جعلت الغصة تقف في حلقي كَشَظية نار تلهب جسدي كله، وتتلف أعصابي.. كدت أنفجر غضبًا فيه ولكن أتتني رسالة من رقم مجهول جديد «إدي نفسك فرصة تسمعيني، أنا عارف إنك محتاجة حاجات كتير وأنا نفسي أعوضك بيها».. لم أتمالك نفسي، غضبي، سخطي، يأسي، تخبطي، وحزني من يوسف واهتمام ذاك الغريب جعلني أقف في نصف الصالة أبكي.. أبكي بلا حساب.. دموعي تنهمر بلا توقف.. أضناني عدم التقدير وهلكني الاحتياج! انزويت في أحد الأركان ونشيجي مستمر بلا رحمة، يأخذ أنفاسي للأعلى ثم يهبط بقسوة فيخبط في صدري بشدة.. وضعت يدي على فمي في محاولة أن أكتم كل هذا البكاء، ولكنه كان أقوى فخارت قواي حتى وقعت على الأرض أنوح.. خرج يوسف يبحث عني في أرجاء الصالة حتى وجدني على الأرض، أبكي بضعفٍ

شديدٍ.. ركض لي وأخذني بين أحضانه وسألني بلهفة:

– مالك؟

– تعبت منك يا يوسف.

– معقولة! كل العياط ده عشان قُلتلك إديني عشر دقايق بس أخلص اللي ورايا!

– الفكرة مش في كده ومصمم تتفه من مشاعري.

– لا يا آسيا، إنتِ اللي بجد مش مقدّرة يعني إيه شغل ويعني إيه يكون ورايا حاجة ضروري أخلصها!

– .....

– قُلتلك حاضر جاي، مفروض ما تزنيش وتسيبيني، عشان أكيد مش بلعب وأكيد مهتم بيكِ وأكيد أنا مش كل الكلام الفارغ اللي بتقوليه لي دايمًا وتتهميني بيه!

صرخت بحرقة:

– ده مش كلام فارغ، دي مشاعري اللي دايمًا مستهتر بيها.. شغلي زي شغلك! ويمكن أنا أنجح منك كمان!

دقيقة صمت سكنت فوق المكان بثقلها! تلك الكلمات التي تفوهت بِها كانت مثل السكين طعنت حبيبي في كبريائه.. رُباه، بماذا تفوهت أنا! نظر لي نظرة حادة:

– عارف، ومقدر عظمتك الكبيرة دي! ومش محتاج تفكريني إنك مذيعة معروفة وليها جمهورها العظيم وأنا مجرد مخرج بيسعى هنا وهناك عشان يعلا.. عشان ما يجيش الوقت اللي تفضلي تعايريني فيه..

– أنا ما عايرتش يا يوسف، أنا بس..

– خلاص يا آسيا، ما تحاوليش تجملي أي كلمة قولتيها عشان الموضوع ما يبوخش أكتر.. أنا نازل..

– استنى هنا..

وركضت خلفه ألحقه:

– سيبيني يا آسيا،ههدا مع نفسي.

– خليني أكمل كلام..

– لسه فيه كلمة توجع أكتر ما قُلتِهاش؟ ولّا لسه فيه دبش ما رمِتهوش؟

– يوسف من فضلك! قدّر إني تعبانة.

اقترب مني وصرخ وهو يجز على فك أسنانه:

– وأنا مين يقدر تعبي؟

– أنا..

– لا واضح بدليل اللي قلتيه من شوية.. سيبيني اللّه يرضى عليكِ دلوقتِ عشان لا طايق أقعد معاكِ ولا طايق أبصلك!

غادر وتركني! وإذ برسالة أخرى تأتي «هكلمك وهتردي عليّا، عشان بس تسمعيني، مش عايزك تتكلمي حتى» نظرت إلى الرسالة بحنقٍ شديدٍ! كنت أظنه يهذي ولكنه اتصل حقًّا! ظل الهاتف يرن برقمه، يرن وأنا أنظر له وأبكي.. لم أجبه، بقيت أنظر للهاتف ولكنه رن مرة أخرى، وفي كل مرة ينقطع الاتصال أظن أنه تعب ولكنه يفاجئني باتصاله مرة أخرى.. لم أصدق ذاتي حين فتحت الخط ليأتيني صوته:

– كنت هموت لو ما ردتيش عليّا..

لم أجب ولكني بقيت أبكي في صمت.

– عارف ظروفك، عارف إنك متجوزة وعارف إنك بتحبيه بس سيبيني أحبك.

– .....

– بحبك..

– إنت عايز مني إيه بقى!

– عايزك ليّا. نفسي أخدك في حضني وأخفف عنك كل وجع حساه.

– .....

– عارف إنك دلوقتي إنتِ محتاجاني أوي... وعارف إنك محتاجة تفهمي أنا مين.

– أنا مش عايزة أعرف إنت مين..

– بس أنا نفسي دلوقتي أطبطب عليكِ وانتِ بتعيطي! طب أقولك على حاجة، شكلك وانتِ بتعيطي أكيد هيكون جميل..

– عرفت منين إني بعيط!؟

– إحساسي بيكِ، وصوتك باين عليه..

لم أستطع إكمال تلك المكالمة، أغلقت في وجهه وعدت إلى بكائي من جديد!

****

(١٤)

«خالد، إليانا»

صحوت من نومي ووجدت خالد نائمًا بجانبي، تفحصت ملامحه ثم نهضت إلى المرآة وتفحصت ملامحي.. لم أرى أي تشابه بيني وبينه؟ سمعت سابقًا أن كل روحين متصلين سويًا، تتطابق ملامحهما.. أكاد أقسم أن سمية صديقتنا سابقًا أصبحت تشابه زوجها وكذلك ليلى وأحمد ونجوى وسعيد! أما أنا، لا يوجد أي تطابق! أنا لم أخلَق له.. حاولت مرارًا وتكرارًا أن أقنع نفسي بأنه حقيقة جميلة ولكن الآن أيقنت ماذا كنت أفعل في نفسي.. قلب مثلي يتغذى على الموت لا يمكنه أن يأبه لقلب مسالم مثل خالد.. لا بُد من مغامرة قوية تحطم الصمت المحاط بي منذ سنوات عديدة.. هذا ما فعله بي صقر! حقا إنه صقر، استطاع أن يقتلعني من جذوري، من قلاعي، من كل الحصون التي بنيتها حولي، رغم الأشواك والهلاك! نظرت مرة أخرى لخالد فشعرت بأني على وشك القيء، ركضت سريعًا إلى الحمّام وتقيأت بالفعل! وجهي أصفر تمامًا وجسدي كله يرتجف.. نهض خالد مذعورًا حين سمع صوت تقيؤي وقال:

– إيه اللي حصل؟

– ما أعرفش، صحيت حاسة إن معدتي مقلوبة وعايزة أرجّع.

– شربتِ حاجة؟ كلتِ حاجة؟

– لا مش اللي في بالك! ما عملتش في نفسي حاجة..

– طيب قومي حبيبتي، قومي خلينا نروح مستشفى.

– مالوش داعي، تلاقيني خدت برد في المعدة ولّا حاجة.

ما إن أكملت الجملة حتى تقيأت مرة أخرى!

– لا يا إليانا شكلك تعبان أوي، وشّك أصفر! لازم نروح لدكتور

– إففف بقى يا خالد، قُلتلك مش عايزة.

– حبيبتي أنا بس قلقان عليكِ..

نهرته بصوتٍ عالٍ:

– بطل تقول حبيبتي في كل كلمة كده! بطل تبقى ملزق أوي كده، إفف مش مستحملة نفسي

وإنت بتضغط على أعصابي..

وقف برهة في صمت وظل ينظر لي ببلاهة، فدفعته بعيداً عني وخرجت إلى الصالة، كل شيء فيه يجعلني أنفر منه أكثر! لم أعد أطيق نظراته، صوته، حديثه الرقيق معي، خوفه، قلقه، رائحته.. كل ما فيه يثير توتري وضيقي أكثر.. أتى خلفي وقال:

- إنتِ مضايقة مني في حاجة؟

- لا..

- أومال فيه إيه يا إليانا؟

- تعبانة شوية ومقريفة يا خالد، عادي! إيه مابتحصلش؟

- لا بتحصل بس مستغرب طريقتك..

- ما أعرفش أنا بجد دلوقتي مقريفة أوي فممكن بعد إذنك أقعد لوحدي!

- ياه؟ للدرجة دي مش طايقاني؟

- آه..

حواديت الكتب

- تمام يا إليانا، أنا آسف إني صحيت من عز نومي مخصوص ليكِ، وهروح أنام تاني لو حسيتِ بقى إنك محتاجاني بالغلط إبقي صحيني وناديني..

- ....

لم أجِبه، كنت أريده أن يرحل بعيداً عني بأي شكل وبأي ثمن، قاسية! جاحدة ولكن مثلي لا بُد أن يكون هكذا.. دهر طويل وأنا أتجرع الوحدة والقسوة فكيف سأكون؟! انتظرت قليلًا حتى تأكدت أنه غطّ في سبات عميق ثم هاتفت صقر:

- وحشتيني..

- وانت أوي، عامل إيه حبيبي؟

- كويس، بفكر أخرج النادي أجري شوية زي ما اتطلب مننا، حاسس إني محتاج أتنفس هوا نضيف..

- كنت هقولك هعمل ده أنا كمان، بس بصراحة تعبانة.

- مالك؟ تحبي نروح للدكتور سوا حبيبتي؟

- ما أعرفش لو تعبت أكتر هقولك..

- طيب وجوزك فين؟

- نايم، مش حابة يعملي أي حاجة، لسه متخانقة معاه.

- ليه؟

- كان عايز نروح للدكتور وبصراحة كنت مقريفة فزعقتله.

- طيب والوضع ده هيفضل كده لإمتى؟

- تفتكر يا صقر أبتدي أفاتحه في موضوعنا؟

- طبعًا! أنا مقدر إنك خايفة على مشاعره وكل حاجة، بس إنتِ ما بتحبيهوش وإحنا مش عايزين نستمر كده لا دي طبيعتي ولا دي طبيعتك!

- صح، إنت صح.. طب قولي أعمل إيه؟

- لا دي مش هينفع أنا اللي أقولك عليها، شوفي إنتِ هو ممكن يتقبل إزاي ويفهم منك إزاي وفاتحيه ولو إنه صعبان عليّا..

- إشمعنى؟

– عشان ما حدّش يقدر يفرط فيكِ، اللّه يكون في عونه.

– أقولك حاجة بصراحة.

– قولي؟

– خالد كويس أوي وعمره ما عمل حاجة وحشة عشاني، بالعكس كان دايمًا يعمل كل حاجة حلوة ليّا، وكان بيصعب عليّا في كل مرة يجري بيّا للمستشفيات عشان ينقذني.. واحد غيره كان زمانه رماني وقال أنا مالي ومال المعقدة دي!

– فاهم قصدك.

– بس هو ما عملش كده! ده غيّر بيتنا مخصوص لما الجيران بدأوا يلسنوا علينا في بيتنا القديم.

– أول مرة أعرف ده..

– عشان ماكنتش بتكلم عنه! أنا لاحظت تقريبًا إن عمري في أي جلسة ما اتكلمت عنه كتير.

– وأنا لاحظت ده...

– بس أصل هقول إيه؟! هو أنا غلطت يا صقر لما اتجوزته؟ أنا كنت فاكرة إني بحبه!

- إنتِ اتجوزتيه وانتِ صغيرة يا إليانا، واحد إدالك كل اللي كان ناقصك، افتكرتِ إنك بتحبيه..

- عارف، هو اللي اهتم بكل تفاصيل الفرح! وكان لما بيزعل ويشتكي ليَّا كنت بزعقله وأهدده إني همشي من حياته..

- مش مستغرب إنه قبل بالوضع ده..

- ليه؟

- عشان زي ما قلتلك من شوية، صعب اللي يعرفك يفرط فيكِ.

- أنا زعلانة من نفسي وزعلانة عليه، زعلانة على إني عملت فيه كده من غير ما أقصد، أنا كنت عايزة أحبه وكنت موهومة ولما الحياة خدتني عرفت إنه صعب!

- إيه اللي صعب؟

- صعب إنك تجبر نفسك تحب حد، قلبك ما بيدقش ليه! هتقول مع الأيام هحبه! هتعدي الأيام عليك وانت مهما البني آدم ده يعمل معاك إيه مش هتعرف برضو تحبه! هيتخلق جواك تعوُّد، عِشرة أو مودة لكن حب؟ لا

– ده انتِ طلعتِ فيلسوفة بقى؟!

– الحياة هي اللي عبارة عن درس فلسفة كبير كل ما تفتكر إنك فهمته تلاقي معنى جديد بين السطور ظهر لك ما كنتش شايفه قبل كده!

– طيب وبعدين يا إليانا؟

– هبتدي من النهارده أمهد له!

****

«مالك، ليال»

عدت من الخارج لم أجد ليال كعادتي في المنزل، ولكن لأول مرة أكون ممتنًا لخروجها.. أخرجت كيس البالونات الذي طلبته من الإنترنت وبدأت تجهيز الصالة كلها بتلك البالونات الحمراء.. الرابعة عصرًا وصل الطعام من المطعم كما أمرت ووضعته على الطاولة بشكل لائق ورومانسي.. حقًّا أنا لا أفقه في كل تلك الأمور ولكن شكرًا لمساعدي الشخصي ومساعد أي شخص حائر « الأستاذ جوجل» لمساعدته لي.. بحثت عن أغنية هادئة لأشغّلها حين تأتي ليال من الخارج، كمٌّ مهول من الأغاني وجدتُه أمامي! منذ متى لم أسمع أغاني؟ لا بُد أنني اختفيت عن هذا العالم لمدة قرن! أو ربما

كان هناك سباق المليون أغنية فظهرت جميعها مرة واحدة؟! استغرقت ساعة وأنا أسمع هذه وتلك حتى أخيرًا استقررت على أغنية لأصالة.. انتظرتها قرابة الساعة وأنا أحاول أن أتصل بها مرارًا وتكرارًا وهي لا تجيب! قلقت عليها كثيرًا حتى ردت:

- أيوه يا مالك، معلش كنت في الجنينة مع هَنا والدنيا هنا إزعاج وموبايلي في الشنطة.

كظمت غيظي وتمالكت أعصابي بصعوبة بالغة:

- طيب هتيجي إمتى؟

- آهو، مسافة السكة.

لا أدري متى ينتهي هذا العبث! لماذا كلما حاولت أن أقترب منها خطوة من جديد، تدفعني بغبائها بعيدًا عنها؟! ثم تأتي وتصرخ في وجهي بأني قاسٍ! أين القسوة يا امرأة حطّمتْ ولهي وشغفي بها فوق صخرة علتها!!

بعد نصف ساعة من الانتظار، سمعت صوتها وهي تتحدث مع هَنا! هه يا لتلك المهزلة! نهضت برغم كل الإنهاك النفسي الذي بدأ يأكل من ريع شبابي وأضأت الشموع وأدرت الأغنية التي أعددتها ومع

دخول ليال الشقة صدحت أصالة بصوتها الجبار قائلة:

نفسي أسألك سؤال بسيط مش لاقية أي إجابة ليه

ليه بلاقى ف قُربي منك كل شيء أنا نِفسي فيه

ليه بنادي الناس بإسمك وابقى خايفة إني أخاصمك

حاسة إني بقيت بقاسمك في الهوا اللي بعيش عليه

ليه بشوف الكل شكلك ليه بعيش دايماً مشاكلك

حاسة إني نّصي شكلي واني نّصي التانى شكلك

فيك حاجات موجودة فيّا حبة حبة تزيد شوية

إحنا فينا حاجات كتيرة زي بعض وهيَّ هيَّ

كل حاجة عملتهالك حاسة إني بعيش بدالك

ورغم إني قوية ببقى في كل حاجة محتاجالك»

اقتربت منها برقة وحملت منها ما كانت تحمله ووضعته على الأريكة ثم مسكت يدها وجعلتها تلف حولي كالفراشة.. أيامٌ طويلة مرت كدت أنسى

فيها طعم الحب؟! بالمناسبة هل للحب طعم؟ أم قلوب أحبَّتنا هي التي تضيف نكهتها للحب فتجعل له طعمًا ولونًا ورائحة؟! طعم حبي لليال طعم الصبار اللاذع المُر مخلوط بطعم التوت الذي ينسيك قليلًا المُرَّ الذي جعل لعابك يسيل بسببه! هي تلك الأنثى القادرة على تحريك كل مشاعرك بهدوءٍ قبل أن تصفعك في وجهك بإعصارها.. سالت دمعة رقيقة من عينها وقالت:

– إيه المفاجأة الحلوة دي؟

– عجبتك!

نظرت بانبهارٍ لكل شيء ثم لي:

– أووي..

– عارفة إن بقالي كتير أوي ماشُفتش النظرة الحلوة دي منك.

رفعت حاجبها قليلًا وبابتسامة ماكرة:

– أنهي نظرة؟

– نظرة إني أعمل حاجة تعجبك! أنا كنت بدأت أفقد الأمل في إني أعمل حاجة تعجبك من تاني.

- أنا فعلًا كنت محتاجة مفاجأة حلوة زي دي!

- عجبك المكان؟

- أوي! البالونات والأكل اللي انت مش طابخه ده والأغنية كمان كلامها تحفة أوي.

اقتربت منها بدفء وشوق جارف لأن أسرقها إلى الغرفة وأنهل من عبقها.

- تعالي معايا..

- طيب إستنى..

- إيه؟

- هودّي هَنا الأوضة بتاعتها

قلت لها بهدوء غير معتاد:

- ماشي حبيبتي..

- إيه ده! أول مرة يعني ما تزعقش.

- ههههه، روحي يا ليال وديها وتعالي بسرعة، أنا واقف هنا مستني.

وبالفعل لم تستغرق سوى خمس دقائق وأتت لي تركض:

– دلوقتي نقدر نقعد سوا..

نظرت لها بتعجب وسألتها:

– نامت؟

تلعثمت:

– آه، هي أصلًا نايمة!

– نايمة؟

– آه!

– طيب ليه ماخلتهاش نايمة هنا؟

– لا طبعًا! هنا فين حبيبي! هنا دوشة أوي

– طيب هي مش محتاجة تاكل؟

– لا هي نايمة..

بدأت ملامحها تتوتر والضيق ينتابها فسألتني باستغراب:

- فيك حاجة؟

- لا!

- أصل مش متعودة منك تسأل كتير..

- هو أنا أسأل تضايقي، ما أسألش تضايقي؟!

- لا بالعكس، أنا مبسوطة.. أنا فرحانة.. أنا.. أنا حابة ده جدًا..

- طيب تحبي نروح ليها نتأكد؟

- لا..

ثم مسكت يدي سريعًا واتجهت بي لغرفتنا، منذ وقت طويل لم أشعر بلهفتها لي، رجفة جسدها حين ألمسه.. انهالت بقبلاتها عليّ وكأنها تهرب من أمرٍ ما! أشعر بها تركض من شيء في قُبلاتها المحمومة والسريعة جدًا! نظرتُ لها بقلقٍ:

- ليال..

- إيه يا حبيبي.

- إنتِ بتترعشي ليه؟ إنتِ خايفة من حاجة؟

- لا بس انت واحشني أوي..

- إيدك كلها ساقعة أوي زي ما تكوني خايفة ومرعوبة.

وضعت يدها على فمي وهمست في أذني:

- هششش، بحبك..

- وأنا كمان، عشان كده قررت أفاجئك بحاجة هتفرحك أوي.

أغمضت عينيها وقبّلت فاهي وكأنها تصر على إسكاتي، فعدتُ مجدداً أقول:

- أنا موافق أروح معاكِ الدكتور عشان أتعالج زي ما كنتِ بتطلبي مني عشان أقدر أتغيّر.

فتحت عينيها ونظرت لي بوجهٍ أصفر وأزالت كل شعرها المنثور على وجهها وقالت بصوتٍ يرتجف من المجهول:

- إيه!

* * * * * * *

(١٥)

«ريم، صفوت»

اليوم عيد مولدها، تلك التي سرقت الكثير مني ورحلت بعيداً جداً عني! كانت الحب السام الذي لوّن مبادئي باللون الأسود.. لا أعلم لماذا تذكرت عيد مولدها؟ ربما لأنني ما زلت أقف في محراب أسود حالك من بَعد فراقها عني على الرغم من أني لم أعد أحبها؟ تلك الإنسانة التي قدمت لها كل ما أملك وكل ما تريد ولفظتني خارج مجرتها كحشرة حقيرة تُداس فقط بالأقدام! بحثت عنها كثيراً وفقدت كل السبل التي تجعلني أصل إليها! قطعت كل حبال الوصل التي قد تجعلني يوماً أعثر عليها! ولكني توقفت عن البحث عنها منذ فترة، وتوقف هوسي بها! ولكن علتي التي جاءت من سَكرة فراقها لم تحلّ عني! يوم التشتت احتلّ كل عقائدي.. ما زلت تسيطر عليّ بعض الخيالات المريضة.. وما زلت أسير بعض مذاهبي الهزيلة.. شبح ما عانيته معها كان يكبر معي يوماً عن يوم.. كنت أظن سأشفى تماماً ولكن تأخر العلاج وربما لا يوجد علاج! لست أدري.. لكن تلك الأخرى أشعر بأني معها في نقاءٍ تام! عرفت الكثير من النساء، عرفت الجميلة والقبيحة، الطويلة والقصيرة، الخجولة والجريئة ولم تسرقني واحدة من ماضٍ عكر

سواها! ولكن لماذا حظي دومًا سيء؟ لماذا أحب المستحيل؟ لماذا أنجذب للواتي لن يحبونني أبدًا! ولكن تلك النقية أتيت لها متأخرًا! أتيت لها بعدما سُحِقَ العمر تحت قدم تلك الملعونة القديمة! أعلم اسمها ولكنني لا أحب أن أناديها باسمِها، أراها حورية نقية! أسميها حوريتي، نقيتي، جميلتي فكل الأسماء في عشق عينيها مجرد حروف! ليتني يا جميلتي أتيت لكِ قبل أن يهوى قلبك غيري! حين أراها معه، تحتقن العروق في وجهي وتكاد تكون على وشك الانفجار! أراه يمسك يدها ويتنعم بجمالها! أمقته وأودّ قتله حين أتخيل حضنه لها! لماذا سبقني هو وكسب قلبها! لماذا أخذ تلك النعمة له وحده؟! ولماذا حين أردت أن أثبت لنفسي وذاتي أن لا مجال للحب في هذا العالم جاءتني هي وعصفت بأفكاري في عرض الحائط!

آه من وجدٍ لوّعني في السابق وفي الحاضر! هل خلقت من أجل الوحدة؟ هل أنا رسولٌ في معاني الألم والغياب والأنين؟! لست أدري..

جلست على جهاز حاسوبي المحمول وتفحصت الكثير من الصور و«مقاطع الفيديو» التي تحوي داخل جعبتها الكثير من معاني الحب، الكره، النفاق، الألم، الخيانة، الغدر والندم! كلها موضوعة في ملف واحد أسميتُه «شقة جاردن سيتي» تلك الشقة التي تحمل الكثير من الحكايات المعلّقة

على جدرانها! قد تبدو شقة عادية عتيقة وحديثة في آنٍ واحدٍ، تقع في أرقى المناطق في مِصر ولكنها قبر ملعون يسرد حكايا ملعونة بمرض اسمه «الحب» !

قطع تفكيري صوت الهاتف وإذ بمروة تتصل بي، أجبتها سريعًا:

– رجعتِ من السفر إمتى؟

– لسه حالًا، وبصراحة وحشتني.

– طيب وماجيتيش ليه؟ مش عادتك ما تجيش..

– مش عايزة آجي وأشوف حد ما ساكن في نفس عمارتك، تعالى انت.

– تعبان يا مروة معلش، تعالي انتِ.

– مالك يا بيبي؟

– ما أعرفش مزاجي وحِش أوي.

– مممم كل ده عشان أنا اللي سافرت المرة دي وسِبتك؟

– هههه، بقلك إيه بطلي رغي وتعالي إحكيلي عملتِ إيه في سفرك.

– خدت تان فظيع وعملت تاتو يجنن يا سامو.

– عملتيه فين؟

أجابتني بغنجٍ ودلالٍ:

– هههه لا سر..

فأجبتها بحديث بين طياته الكثير من الدناءة:

– طيب ما تيجي بقى عشان أشوفه.

ضحكت بصوتٍ عالٍ يذكرني بمدى قذراتي وقالت:

– طالما كده، يبقى وحشتك وتبقى إنت بجد تعبان ومحتاج حضني.

– أوي..

– إنت الوحيد اللي بكسر عند حدوده كل حاجة.

– خافي على نفسك بقى.

– إطمن، رميتها في التهلكة من زمان.

أغلقت اتصالي معها ونظرت للحاسوب قليلًا، ثم أغلقته ومسحت دمعة سقطت سهواً ودون أن أشعر! ربما سقطت لتنعي ضميري الميّت منذ أعوام! أو ربما سقطت حداداً على قلبٍ وُئِدَ؟ أو ربما سقطت ضعفاً؟ ربما و ربما وربما وتبقى ربما عالقة بين الحياة والموت أمام كل التساؤلات!

****

كانت في حجرتها حين سمعتها تشهق من التعجب والاندهاش ألف مرة! قادني فضولي إلى الحجرة وطرقت الباب ثم دخلت، وجدتها تنهي مكالمتها وتقول لي بتعجب رهيب:

– تخيل جّمانة بسألها دلوقتي عاملة إيه وأطمن عليها لقيتها بتقولي إيه؟

– إيه؟

– سافرت إمبارح المالديف مع جوزها!

– طيب وفيها إيه؟

– هو إيه أصله ده؟ يا صفوت ده خاين

– يمكن بيحبها..

– إنت أكيد بتهزر صح؟

– ليه؟

– عشان ما حدّش بيحب وبيخون يا صفوت!

– ساعات يا ريم بنحب ناس، ومع ذلك غصب عننا بنضعف ونخون بس إحنا في الأول وفي الآخر بنحبهم ياريم.

– لا يا صفوت، جوزها ده من فترة بيخونها وعنده نزوات كتير أوي.

– بس يا ستي هي مبسوطة كده! شاغلة تفكيرك بيها ليه؟!

– عشان مش حابة طريقة تفكيرها دي، كده غلط ليها.

صرخت بغضب في وجهها:

– هي حرة، إنتِ مالك!

نظرت لي باستغراب:

– إنت متعصب ليه أوي كده؟

– عشان ما بحبش جُمانة صاحبتك دي، بس بعصر على نفسي مِية لمونة عشان إنتِ بتحبيها وشاغلة وقتك وتفكيرك فيها وفي مصلحتها وفي قرفها! ما تولع هي وجوزها .. إحنا مالنا!

– تمام، مقدرة إنك بتكرهها بس أنا ذنبي إيه تتعصب عليَّا..

– أنا آسف واللّه يا حبيبتي..

– ماشي تمام حصل خير.

رقّ قلبي لها، فاقتربت منها وقبَّلت جبينها بحُب:

– أنا بجد آسف، ما تزعليش مني.

– خلاص مش زعلانة حبيبي..

– طب إيه رأيك نقلد صاحبتك اللي ما بحبهاش دي ونسافر؟

– إيه ده بجد؟

– أه!

– طب وشغلك؟

– هرمي كل حاجة ورا ضهري وأقضّي معاكِ إسبوعين حلوين.

– اللّه! إسبوعين مرة واحدة.

– أيوه وفي المكان اللي نفسك تروحيه.

– تحب نروح اليونان؟

– ممكن، بس عايز نروح كده مكان هادي وحلو..

– اليونان حلوة..

– فيه اللي أحلى منها، خلينا نفكر في مكان تاني.

– طب إيه رأيك نروح المالديف، بصراحة كنت دايمًا أقول لجُمانة نفسي أروحها؟

– لالالا، ونبقى مع جُمانة في نفس البلد..

– حبيبي المالديف مليانة جزر يعني مش هنروح في نفس المنطقة اللي فيها جمانة.

– افرضي الصدفة إننا بقينا سوا!

نظرت لي بدلالٍ:

– أصل بصراحة نِفسي أروح هناك أوي ولما جُمانة قالتلي، كنت مكسوفة أقولك إن نسافر هناك.

– نفسك أوي يعني؟

– جدا..

– ماشي، ولو إن كان نفسي نروح في مكان بعيد عن كل الناس، مكان فيه أنا وانتِ بس.

قالت على مضض:

– طيب حبيبي خلاص لو مش حابب، خلاص بجد، نبقى نسافر هناك في وقت تاني.

– لا خلاص ولا يهمك، ما أقدرش أعرف إن نفسك في حاجة وما أعملهاش..

قفزت في أحضاني ببهجة وحماس طفلة ستذهب رحلة لأول مرة في حياتها.. أشعر أوقاتًا بأن قلبها الطيب كثيرٌ عليّ.. وأحب تلك الأنثى الهادئة، المخلصة والمحبة لمنزلها.. وأشعر بالفخر أني دومًا في بداية أولوياتها.

****

لم أصدق أذني حين طلب صفوت مني أن نسافر! فدومًا كنت أرجوه أن نسافر وكان يعتذر بسبب انشغاله.. اليوم شعرت بأني ملكة يريد أن يدللها.. هنيئًا لي بزوجي الحبيب الذي عاد لي أخيرًا.. تعترضني الشكوك مراتٍ عديدة ولكني سرعان ما أقذفها خلفي وأسير بحبي للأمام.. لا أريد شيئًا يعكر صفو حياتي.. في هذه الرحلة سأتحدث معه عن الإنجاب! تأخرنا في هذا القرار.. كثيرًا ما تشاجرت معه بسبب هذا الموضوع وكان رده دومًا واحدًا!!

– لما نتفق وتبطلي تشكي فيّا، ساعتها أقدر أقول إننا ممكن نجيب طفل.

– يعني إنت مش عايز طفل يربطنا ببعض؟!

– أنا عايز يا ريم، بس بخناقنا بتاع كل يوم ده يبقى لا ألف مرة..

– وخناقنا ده ليه؟ من فراغ؟

– آه من فراغ.

– لا ده من أفعالك يا صفوت..

– أنا ما بعملش أي حاجة، دي كلها أوهام جُوّه دماغك.

– لا يا صفوت..

– لا إيه؟ مسكتِ عليّا حاجة؟

– دي مشكلتي! مش عارفة أمسك عليك حاجة.

– عشان يا ريم بتحاولي دايمًا تخلقي مشكلة! فاضية وماعندكيش حاجة فبتقولي لنفسك يلا أما أقوم أشك في صفوت شوية.

– صفوت إنت عمرك ما حسستني بالأمان عشان أبطل أشك!

– أحسسهولك إزاي؟! هو إنتِ مدياني فرصة؟ مراقبة ٢٤ ساعة وكل حاجة عايزة تعرفيها وعيونك في كل حاجة تخصني!

– قلتلك ده مش من فراغ! ده من حبي ليك..

– حبك هيقتلنا في يوم يا ريم! يبقى ليه عايزة تجيبي طفل يدوق من مرارك ده؟!

– مراري؟!

– هو انتِ مش واخدة بالك ولّا إيه؟ إن كل يومين مشكلة جديدة وشك جديد! تقدري تِعِدي معايا غيّرنا بيتنا كام مرة؟!

– أنا بغيّر البيت لما بلاقيك بدأت تميل لواحدة من جيرانا!

– خدي بالك من كلامك ياريم! كلامك ده تهمة ليّا..

– تقدر تقولي إنت ليه عمرك ما شكيت فيّا ولا إني في علاقة بأي حد من الجيران؟

– إيه التخاريف اللي بتقوليها دي؟

– مش تخاريف! بس عشان بعمل حدود ومراعية بيتي وجوزي! على العكس تمامًا منك! اللي ببقى حاطة إيدي على قلبي وأنا بفتح الباب عشان أرمي الزبالة لأشوفك بتضحك مع جارة هنا ولا واقف ترغي مع جارة هنا..

– جيران يا ريم، وده عادي جدًا!

– لا مش عادي يا صفوت..

– شفتِ حياتنا كلها شك وجاية تقوليلي عايزة بيبي!

– عشان نفسي أخلف منك!

– لما ربنا يهديلك عقلك، ساعتها هقولك ماشي.

قتلني هذا النقاش، جعلني أشعر بأني أركض خلفه أميالًا.. أميالًا.. لم يتفهم أبدًا أسبابي، لم يخلق لي أعذارًا فحين كنت أحاول دومًا أن أتفهم وقوفه المتكرر مع إحدى جاراتنا في إحدى شققنا السابقة! قلت لنفسي مرارًا وتكرارًا أنه شهم يساعدها ولكن نظرات عينيها لم تكن أبداً بريئة.. حقي أن أخاف على منزلي وزوجي الذي تعبت في الحفاظ عليه! سأناقشه مجدداً هناك حول موضوع الإنجاب.. أو ربما أجبره، يكفي ما ضاع من حياتي سُدى خلف الخوف! سأتحمل القرار وحدي إن رفض مجدداً وسيرضى فيما بعد بالأمر..

****

سافرنا إلى جزر المالديف كما أرادت ريم، المكان جميل جدّا، يبعث على زرع الطاقة والحياة بداخلك.. يسحب عنوة كل المشاعر السلبية والأرق والإنهاك ويضخّ بداخلك الحب وضياء جماله.. في إحدى الأمسيات طلبت من الفندق أن يجهز الغرفة بالشموع والورود الحمراء، اليوم عيد مولد ريم ولهذا قررت أن نسافر بعيداً عن ضوضاء القاهرة وأحتفل معها وحدي في هدوءٍ وحبٍّ.. اشتقت لأيام الحب التي جمعتنا سويّا قبل الزواج.. تلك الأيام الصافية، البريئة التي لم يكن يشوبها أيّق من القلق أو الحيرة أو العذاب.. أعد الفندق حجرتنا كما

أردت وحين عدنا من الخارج طلبت منها أن تغلق عينيها.

– اقفلي عينك حبيبتي..

– إيه ده، حاضر.. آهو.

مسكت يدها وقبلت أناملها واحدة تلو الأخرى ثم دخلنا سويًّا الحجرة وأمرتها أن تفتح عينيها.

– اللّه! إيه المفاجأة الحلوة أوي دي!

اقتربت منها من الخلف وحوطت بذراعي خصرها وهمست في أذنها:

– كل سنة وانتِ معايا يا أحلى حب في حياتي..

التفتت لي وذابت معي في قُبلة بطعم الفانيليا من شفاهها.

– وانت معايا دايمًا يا أول وآخر حب.

– عشان كده قُلتلك نسافر، حبيت أحتفل السنة دي بعيد ميلاد مختلف ليكِ.

– أنا بجد مش عارفة أقولك أد إيه مبسوطة! أنا ما كنتش واخدة بالي من التاريخ وناسية تمامًا.

– بس أنا ما أقدرش أنسى أي حاجة ليكِ..

– صفوت؟

– يا نن عيون صفوت..

– بتحبني؟

– متهيألي إحنا عدينا الحب بمراحل.

– نفسك تعيش معايا على طول؟

– دايمًا وللأبد..

اقتربت مني بغنجٍ ودلالٍ أكثر..

– طيب مش آن الأوان بقى، يكون لينا بيبي حتة منك..

بُغت من هول الطلب ولكني لم أشأ أن أعكر صفو اللحظة، ابتسمت بتوتر:

– أكيد يا حبيبتي، بس نصبر كمان شوية.

– نصبر ليه؟

- نصبر نرجع القاهرة وهناك أنا تحت أمرك، خلينا نفرح دلوقتي ونستمتع بس..

****

لم تعجبني ردة فعل صفوت حين فتحت النقاش مرة أخرى في مجال إنجابي منه! ولكني كنت مثله أيضًا لا أريد أن أعكر صفو اللحظة.. لقد عانى من أجلي كثيرًا فقررت أن أؤجل أي نقاش لحين عودتنا إلى القاهرة.. كنت في السابق قد اتخذت قرارًا بأنه إذ لم يوافقني هذه المرة فلن أخضع لقرارته الأنانية ولكن ما سمعته في هذه الليلة جعل الخوف يدب في قلبي! كنت في منتصف نومي، حين شعرت بالعطش فنهضت ولم أجد صفوت نائمًا في الفراش بجانبي، خرجت وأنا أسير على أناملي حتى لا يشعر بخطواتي وكأن حدسي يعرف ماذا سألقاه بعد قليل.. وجدته يتحدث في الهاتف ويبكي! تعجبت مع مَن يتحدث صفوت ولماذا يبكي؟! جملته ما زالت ترن في أذني

«خايف، خايف أوي، خايف تعرف وتحصل مصيبة وبعدها تروح منّي! هعمل إيه وقتها».

****

(١٦)

«آسيا، يوسف»

مرَّ يومان وأنا في حالة شرود تام، لا أشعر بمن حولي، عقلي رحل إلى عالمٍ غامض! عالم يخلو من كل المشاعر المتعبة والإنهاك الجسدي والنفسي الذي أشعر به.. وعلى الرغم من ذلك، هذا العالم لم يكن ورديًا ولكنه يجرني أذيالًا وأذيالًا إلى المجهول. كنت في المكتب حين أتت غالية وفجر كعادتهما لي لنجلس سويًا قليلًا.. نظرت لي غالية وقالت:

- مالك؟ فيكِ حاجة؟

اكتفيت بابتسامة يشوبها الكثير من الإرهاق:

- ماشي الحال..

- لا بجد مالك؟

فوافقتها فجر قائلة:

- آه بقالك يومين مش كويسة؟

لم أتمالك نفسي أكثر، شرعت أبكي كطفلة فقدت ذاكرتها فجأة حين كانت تلهو في وسط المدينة،

ولم تعد تتذكر والديها، ولا أي شيء يخصها! بكيت كامرأة فقدت نجليها تحت الأنقاض وبقيت هي حيّة تُرزق تموت ألف مرة من الحرمان والفقدان! بكيت كرجلٍ منكوب نجا بأعجوبة من حربٍ دامت أعوامًا وحين عاد إلى أهله وقريته وجدهم هالكين كلهم.. بكائي لم يكن عاديًا هذه المرة..

سألتني فجر بذعرٍ:

– إيه ده؟ ليه كل ده؟

– تعبانة أوي..

غالية بحزنٍ:

– مالك حبيبتي؟

– فاكرين الرقم اللي حكتلكم عنه؟

فجر بتعجب:

– آه؟ ماله؟

– رجع يكلمني تاني بس من رقم تاني.

غالية باندهاش أكثر:

- إيه؟! ده قاصد بقى يفضل وراكِ..

- مش بس كده..

- أومال؟

- زي ما يكون بيحس بيّا! في الوقت اللي ببقى متخانقة فيه مع يوسف ألاقيه بيبعت لي مسجات معناها إنه معايا ومهتم بيّا.

فجر باستنكار:

- هو مين ده اللي معاكِ! هو يعرف إيه عنك أصلًا؟

- ما أعرفش يا فجر، بس شكله يعرف عني كتير

- يعرف إيه! هو انتِ مصدقة كلامه؟ يا بنتي أراهنك إنه أصلًا بيقعد يألف وخلاص.

أيدتها غالية قائلة:

- أيوه يا بنتي فيه صنف من الرجالة، أسطوانته اللي بيدخل بيها على أي بنت بتبقى شبه دي.. أنا حاسس إنك فيكِ حاجة! عيونك حزينة وانتِ أصلًا بتبقي في قمة سعادتك! واللي يجي يقولك أنا معاكِ وحواليكِ وبهتم بيكِ وحاجات فكسانة أوي وهُمّا عايشين في مية البطيخ أساسًا.

- مش عارفة، بس هو طلب مني يتكلم فون معايا وغصب عني ضعفت وسمعت كلامه بس ما قدرتش أكمل وقفلت في وشه..

ربتت فجر فوق ظهري:

- إنتِ بتحبي يوسف يا آسيا، وكل اللي إنتِ فيه ده عشان إحساسك بالتقصير منه تجاهك مش أكتر، لكن لازم توقفي الحيوان ده عند حده!

مرة أخرى وافقتها غالية على كلامها قائلة:

- أيوه، كنت هقولك غيري رقمك بس برضو واحد زي ده شكله مش سهل وممكن يجيب رقمك لو غيرتيه ألف مرة! لكن لما تصديه دايمًا هيزهق ويتعب ويمشي في حال سبيله..

- حاضر.. ربنا يقويني على شيطان نفسي وعليه يارب.

- ويهديلك يوسف يارب.

مرة أخرى سألتني فجر:

- هو يوسف لسه مقصّر معاكِ؟

- يوسف كويس واللّه وبيحبني هو بس مش عارف إزاي يتأقلم على إن اللي كنت بوافق بيه زمان مش قادرة أوافق بيه بعد جوازنا.

- طبعًا وليكِ حق! هو إيه أصله ده؟!

قاطعتها غالية قائلة:

- يا بنتي إهدي وما تخليش البنت تشعلل أكتر.

فأجابتها فجر:

- لا على فكرة ما أقصدش، بس يوسف لازم يفهم إنه زوج دلوقت، مش صاحب ولا حبيب! يعني لازم يفهم يعني إيه الحياة الزوجية مشاركة واهتمام وكل حاجة، عشان ما يكونش فيه فجوات بينهم حد مقرف يستغلها!

أومأت غالية رأسها:

- عارفة واللّه، أنا بس كنت عايزة نهدّيها.

- لا نهدّي إيه وبتاع إيه، أصل دول صنف مصطفى أبو حجر! لو اتساهلتِ معاهم خلاص بقى هي كده هتتشل

ضحكت من حديث فجر فأردفَتْ سريعًا قائلة:

– أيوه كده اضحكي، ما حدّش واخد منها حاجة.. طب تحبي نروح للواد السوري بتاع الشاورما يديكِ واحدة شو بدك تاكلي، تخليكِ تنسي نفسك والعالم كله.

فتضحك غالية بسخرية:

– بقى فجر مصطفى أبو حجر هي اللي بتقول كده..

– ههههه بقولكم إيه يا توم أند جيري يلا كل واحدة على شغلها بقى من فضلكم..

وإذ باتصالٍ يقطع حديثنا، قلبي رجف من الخوف ولكن ما إن رأيت الشاشة حتى هدأت دقات قلبي وانتظم تنفسي، إنها صديقتي من لبنان، أجبتها على الفور:

– سارة وحشتيني أوي، إنتِ ما بتسأليش ليه؟

– هلاء بحكيك خبرية، إستني أقلب مصري معاكِ..

– ههههه طيب، إيه الخبر بقى؟

– هاجي مصر يا اختي..

– بتهزري! آية تعرف؟

- لا لسه، حبيت أعملها مفاجأة، وكنت عايزة أعملهالك إنتِ كمان بس كده مش هلاقي اللي ياخدني من المطار..

- ههههه طيب قوليلي جاية إمتى؟

- راح اوصل على طيارة بالليل، بس بقولك إيه يا آسيا تكوني في المطار أول ما أوصل لأحسن أنا ما أعرفش أي حاجة هنا، ما تشردينيش..

- ما تقلقيش، هستناكِ أنا ويوسف.

- طيب، ماشي ونروح لآية نفاجئها.

- طيب أوكي هقولها إني هزورها بكرة علشان ما أعتقدش لما هتوصلي هنقدر نشوفها.

- طب ما نطب عليها في البيت..

- يا بنتي انتِ هنا في مصر مش لبنان..

- أوفف لسه هستنى لبكرة..

- سارة..

- نعم؟

- روحي حضري شنطتك يلا يا ماما وهبقى أستناكِ، ابعتيلي بس صورة من التذكرة.

- طيب تمام..

أغلقت معها الهاتف وابتسمت، كنت في قمة سعادتي، صديقة أخرى عزيزة عليّ ستأتي وتكون بقربي أكثر.. هي بالفعل قريبة رغم المسافات والبُعد ولكن في هذا الوقت كنت أحتاج جداً لكل أصدقائي حولي.. كنت أريد أن أشعر بقربهم أكثر من أي وقتا مضى.. شعور بأن لديّ عزوة تحميني من تخبطاتي وتحميني من ذاك الشيطان الذي يتسلل برويّة لحياتي.. صحوت من شرودي على صوت رسالته المبعوثة لي على الهاتف «يارب تكوني بخير دلوقت.. لو بس تخليني أشوفك وأطمن عليكِ أكترا» حذفت الرسالة بغضبٍ شديدٍ وألقيت الهاتف بعيداً عني..

****

لم يكن مجال الإعلام سهلًا عليّ وعلى آسيا.. مراتٍ عديدة كنت على وشك أن أطلب من آسيا أن تعتزل هذا الوسط بسبب ما نراه من ممارساتٍ منافية للأخلاق، أخشى عليها كثيراً وأموت ذعراً من أجل ألا يخدشها أحدٌ ولكنني ضعيف جداً أمام رغباتها.. أنا بلا رغبة في سبيل تحقيق أمانيها،

أعلم كثيرًا بأنه يبدو للمرء ويبدو لها أيضًا أني غير مكترث بها ولا أهتم! ولكن يعلم اللّه كيف يخفق هذا القلب باسمها ومن أجلها.. هي العبق الذي يضخ الحياة داخل شراييني، هي النسيم الذي يحلق في سمائي بلا حدود، هي الرغبة ومنتهاها، الأمل اللا محدود، السلام الذي من بعده الهلاك والخراب.. وحدها تستطيع أن تروّض الطوفان الذي قد يحرق أي شخصٍ في غيابها عني.. قلت لها مرارًا وتكرارًا عقليتي تختلف عن عقليتك.. أنتِ تفكرين بقلبك بينما أفكر أنا بعقلي! أفكر في مصلحتك ودنياكِ.. تصرخ وتثور دومًا بالاهتمام! ولكن أوليس اهتمامي بأن أعلو بها لمستوى أفضل هو اهتمام؟! تحزن حين أغوص في عملي! ولكن من أجل مَن؟ ولماذا؟ أوليس من أجلها؟ هي تعلم كم أسعى لأن أصبح مخرجًا لبرنامجها التي تحلم به.. حلمها، حلمي.. أشعر بها وأشعر بتغييرها الذي طرأ عليها من يومين! هناك شيءٌ يشعل الحيرة داخل مقلتيها.. حين أسرقها بين أحضاني من العالم قلبها يخبرني أن هناك علةً ما.. مساء أمس سألتها:

- مالك حبيبتي؟

- مالي؟

– حاجة مضايقاكِ غير الموضوع اللي بيضايقك دايمًا مني؟

ظلت صامتة لثوانٍ ثم قالت:

– لا، ليه بتقول كده؟

إنها تهرب بعينيها بعيدًا عني عيني! هناك أمرٌ ما!

– لا فيه حاجة، هو أنا يعني مش عارفِك!

– عادي حبيبي ممكن يكون إرهاق الشغل.

– إنتِ خلاص ما بقتيش تحبيني.

فزعت ونظرت لي بهلعٍ:

– لا طبعًا! ليه بتقول كده؟

– بهزر معاكِ، ليه خُفتِ كده.

– ما أعرفش، أصلي استغربت ليه بتقول كده يعني.

– طيب مش هتقوليلي مالك بقى؟

منحتنني قُبلة زهدت بداخلها الحياة وما فيها ثم قالت بحب:

- بحبك أوي، وواحشني حضنك.

أخذتها بين أحضاني أكثر وهمست لها:

- وأنا بحبك أوي.

- ربنا يخليك ليّا وما يحرمنيش منك ولا يجي اللي يفرقنا أبدًا عن بعض.

نظرت إليها بقلق:

- إن شاء الله مش هيجي اللي يفرقنا عن بعض، بس غريبة الدعوة دي!

- ليه غريبة؟ أنا دايمًا بدعيها.

- إنتِ في الطبيعي بتقولي ربنا يخليك ليا وما يحرمنيش منك.

توترت قليلًا ثم قالت:

- عادي يعني حبيبي.

عدت من شرودي للواقع ونظرت إلى الساعة التي كانت تشير بموعد انتهاء العمل، لملمت أغراضي وعدت سريعًا إلى المنزل وهناك استقبلتني بابتسامتها الرقيقة المعهودة وقالت لي:

– حبيبي بالليل هنروح نجيب صاحبتي سارة من المطار.

– سارة بتاعة لبنان؟

– آه..

– إيه ده، أخيرًا هتيجي مصر..

– آه، أنا مش مصدقة نفسي، بتقولي حد ساعدها وسهلها عملية سفرها لهنا.

– طيب حلو واللّه، خلاص تمام نروح نجيبها مفيش مشاكل.

قاطع حديثنا صوت رسالة أتت لها على هاتفها التي ما إن رأتها حتى جحظت عيناها واصفرت ملامحها ووقع منها الكأس الذي كانت تشرب منه!

****

(١٧)

«خالد، إليانا»

ذهبت إلى إليانا حيث كان لديها جلسة علاج جماعية، لم تكن تعلم بقدومي وأحببت أن أفاجئها.. دخلت إلى المكان وحين اقتربت وجدتها تجلس على حدة وبمفردها مع صقر ويمسك يدها وما إن رآني حتى ذعر وترك يدها فأتت لي سريعًا بقلق:

– خالد!

– مين ده يا إليانا؟

– ده صقر.

– أيوه يعني مين، عشان يمسك إيدك كده؟!

– تعالى نروّح وهفهمك كل حاجة!

ثم دفعتني إلى السيارة وأنا ما زالت نظراتي تحرق هذا «الصقر» الذي يريد سرقة ممتلكاتي مني! وما إن وصلنا إلى المنزل حتى التفتُّ بغضب لها:

– مين صقر ده!

- خالد أنا كنت عايزة أفاتحك في الموضوع ده بقالي فترة، بس ما كنتش عارفة أقولك إيه!

- إليانا جاوبيني! مين صقر ده؟

- ما أنا أهو هتكلم!

- ما تقوليش ألغاز ولا شعر! جاوبي على أد السؤال بسرعة! مين صقر ده؟

- تمام زي ما تحب، هجاوبك مباشرة ومن غير ألغاز ولا شعر! صقر ده اللي حسيت إني بحبه..

صدمتني؟ لا تلك المخلوقة سكبت لهيبها فوقي وحرقتني تمامًا! الآن قلبي به ندوب وحروق من الدرجة الأولى! ماذا قالت؟ قالت تحبه؟ هل سمعي جيد؟ هل أنا في وعيّ تام؟!

- إيه؟

- أيوه يا خالد، أنا اكتشفت إننا لازم ننفصل عن بعض وانت تعيش حياتك وتدوّر على واحدة تحبك بجد وتديك الحب اللي اتحرمت منه بسببي وأنا أعيش مع الحب اللي لأول مرة أحس بيه، بس ما كنتش عارفة أفهمك ولا أقولك إزاي.

- إنت واعية بتقولي إيه؟

- أيوه..

- ده أنا كنت قلت إنك اتحسنتِ وبقيتِ كويسة! معقول لما اتحسنتِ يبقى بسبب إنك حبيتِ حد غيري؟!

- ده فعلًا حصل لما عرفت صقر.

- يعني عايزة تفهميني إن اكتئابك وميولك الانتحارية راحوا لما عرفتِ صقر؟!

- إنت عارف إن طول عمري محتاجة للحب والاهتمام.

قاطعتها بانفعال:

- وأنا عمري ما حرمتك منهم..

- صح، إنت صح واللّه بس أنا غصب عني ده حصل واللّه، واللّه ما كنتش عايزة أجرحك.

ابتسمت بألم:

- لا كتر خيرك.

- أنا آسفة بجد، بس أنا ما قدرتش أحبك وكنت فاكرة إن قلبي ما بيعرفش يحب بس لما شفت صقر...

قاطعتها مجدداً بغيظٍ:

- إنتِ فعلًا اللي زيك قلبه ميت ما يعرفش يحب! إنتِ اللي زيك أناني نرجسي يعرف ياخد كل حاجة حلوة بس من اللي قدامه ويرميها في الزبالة! ولا يعمل حساب ولا يهمه أي حاجة...

- خالد أنا متفهمة وضعك ونفسيتك، بس لما تهدا هتفهم.

لم أتمالك أعصابي فصفعتها صفعة قوية تطايرت معها خصلات شعرها.. نظرت لي بجمودٍ وقالت:

- مش هقدر ألومك..

- إنتِ طالق!

- شكراً.

تركتني وذهبت تلملم أغراضها! ما زلت في صدمة من برودها معي! لم تعرني أيًّا من الاهتمام بل حتى أسفها مريض، معتل وخائر، ازددت غضبًا فاتجهت لها مرة أخرى وصرخت بها:

- إنتِ إزاي كده!؟

– خالد، أنا عارفة إني غلطت في حقك بس واللّه ما كنت حابة ده!

– إليانا أنا استحملت اللي راجل ما يستحملهوش عشانك؟! وانتِ جاية بكل بساطة دلوقت تقوليلي همشي..

– عشانك وعشاني لازم فعلًا أمشي..

– وحبي ليكِ؟

– ....

– قوليلي؟ وحبي ليكِ!

– مش عارفة أقولك إيه..

– إنتِ معاك الحق! أصل هتقولي إيه؟ هتقولي إنك جبلّة مثلًا؟ ولّا هتقولي إن الحيوان عنده وفاء أكتر منك؟! هتقولي إيه وإنتِ ناكرة لكل اللي قدمتهولك! ده إنتِ ماشية زي ما تكوني اشتريتِ كيس شيبسي ولقيتِ طعمه مش على هواكِ فقررت ترميه في الزبالة وتشتري غيره!

– كفاية بقى يا خالد، ما تصعبهاش علينا أكتر من كده..

- همه أصعبها؟! ده انتِ واخدة القرار ومجهزة نفسك! أصعبها ليه ولّا ازاي بس...

- خالد..

قاطعتها بعصبية:

- ششش مش عايز أسمع حاجة منك تاني.

ووجدتني ألملم بغضبٍ أغراضها وألقيها في حقيبتها وأغلقها بقوة وأدفعها خارج الشقة ثم أغلقت الباب وخارت قواي وجلست أنوح كالأطفال على ما فقدته من سنين كثيرة دفنتها من أجلها وحدها وفي النهاية ركلتني خارج مجرتها بكل سهولة! ركلتني دون حتى أن تمتعض لفراقي وكأن فراقي ووداعي هبة من السماء! قدمت لها كل ما هو وردي باليد اليمنى لتستقبلني بكل ما هو مؤذي وملوث باليد اليسرى! تحملت عناء مجازفتها بالموت أكثر من مرة! كنت أخشى النوم حتى لأصحو على خبر خسارتي لها! كرست كل وقتي، مجهودي وعنائي من أجل أن أنتشلها من بحر الظلام الغارقة فيه بداخله! ثم ماذا حدث! تشكرني البلهاء لأني طلقتها! ويحها من امرأة ظالمة مجردة من كل الأحاسيس!

****

لا أدري ما هذا البرود الذي أصابني وكيف تعاملت أمام ثورة خالد بكل هدوءٍ وبرودٍ، أعلم أنه يراني خائنة لكل ما قدمه لي ولكن ماذا سأفعل معه إن كنت أحيا معه مثل الميّتة.. صقر هو من أعادني للحياة.. حبي له وحبه لي جعلني أسرق الحياة من أنياب الموت الذي كان يفترسني كل ليلة لمدة سنوات طويلة.. لا وقت لي لأن أضيعه في الحزن والبؤس مرة أخرى.. فعند صقر الحياة ويجب أن أحصل عليها بأي ثمنٍ.. قابلت صقر كما طلبت منه وهناك ركضت له بشوق عارم:

- طلقني..

- بالسهولة دي؟

- ما قدِرش يستحمل فكرة إني ما بحبهوش.

- طب وإنتِ قُلتيله إيه؟

- هقوله إيه! أي حاجة هيقولها هيبقى عنده حق؟!

- خايف..

- ليه؟

- هو إحنا صح يا إليانا؟

- وليه هنكون غلط؟

- الوجع والألم مش سهل وأنا وانتِ جربناه سنين ودُقنا يعني إيه نموت بحسرتنا ومش لاقيين حد حاسس بينا.

قاطعته سريعًا بخوف:

- عشان كده ما صدقت لقيتك ومستعدة أبيع العالم كله عشان نكون سوا.

- يعني مش هتندمي أبدًا إنك سيبتي خالد وبقيتِ معايا؟

- أندم؟ وأنا أخيرًا لقيت الحب بين إيديك.

- طب وخالد؟

- ماله؟

- حاسس إنك محتاجة تقعدي تاني معاه تفهميه إن ده كان غصب عنك.

- هو انت مهتم أوي كده ليه بيه؟!

- وانتِ ليه مش مهتمة بيه نهائي ولا بمشاعره ولا كأنه كان بني آدم في حياتك! على فكرة ده

بيخليني أخاف منك!

- أنا اللي بدأت أقلق منك ومن موقفك المتردد..

- أنا مش متردد يا إليانا، أنا بس مش عايز نصحى في يوم نلاقي خالد مكاني ومكانك وراح موّت نفسه بس ما حدّش لحقه! عارفة هتحسي بإيه؟

- مش عايزة أفكر فيها بالزاوية دي

- لا لازم! عشان كده بقولك اتكلمي تاني وتالت وعاشر معاه، لحد ما تتأكدي إنه مش هياخد سكة كنا فيها في يوم..

كدت أجيبه لولا أني شعرت بدوار في الرأس وإحساس بقيء بشع، تركته وركضت إلى الحمّام سريعًا وتقيأت حتى ارتاحت معدتي.. خرجت بعد دقائق ليسألني صقر بلهفة:

- مالك حبيبتي؟

- ما أعرفش، شكله برد في معدتي.

- طيب تعالي نروح للدكتور.

- لا مش مهم، هبقى آخد أي دوا.

- لا تعالي نروح، مش هطمن إلا لما يشوفك..

- طيب.

واتجهنا للطبيب وبعد الكشف نظر لنا وابتسم وقال:

- مبروك المدام حامل.

وقع الخبر علينا كطير حطّ فوق رؤوسنا، لم أدرِ ماذا أقول وكيف أتصرف.. شكر صقر الطبيب ورحلنا من عنده.. دقائق طويلة مرت علينا دون أن يتحدث أحدٌ منا.. نظرلي بحزن وقال:

- هنعمل إيه؟

- هستنى العدة تخلص ونتجوز..

- وخالد؟

أجبته بضيق وغضب:

- هو انت تقرب لخالد وأنا ما أعرفش؟

- لا بس مهم يعرف إنك حامل.

– ليه؟! عشان يقف في نص طريقي ويمسكني من إيدي اللي بتوجعني!

– أومال ناوية على إيه؟

– ناوية طبعًا أخبي عليه ومش هقوله.

– إيه!

– أيوه، خالد لو عرف إني حامل مش هيرحمني وهياخد البيبي مني أول ما يجي.

– بس ده حقه!

– لا ده حقي أنا بس..

– هو انتِ فعلا مصرة تخوفيني منك يا إليانا! أنا ليه حاسس إني بكلم واحدة ما أعرفهاش؟!

– إنت اللي متغير يا صقر! إنت اللي فجأة بقيت مهتم بخالد وبحالته.

– عشان إحنا وجعناه يا إليانا ولّا إنتِ مش حاسة؟

– تمام معاك إنه إتوجع! بس أكيد ما قصدناش نعمل ده..

– أقولك على حاجة وما تزعليش؟

– قول..

– أنا بقيت خايف منك ومن تصرفاتك، طريقة تفكيرك باردة ومخيفة.

– ده عشان إنت فجأة صحيت وقررت تهتم بخالد وبنفسيته وباللي هو محتاجة واللي المفروض يتعمله!

– اللي بتتكلمي عنه ده كان جوزك وقبل ما يكون جوزك كان صاحبك في الجامعة!

– واللي أعرفه إنك دلوقتي حبيبي وهتبقى جوزي وانت تهمني برضو..

– أنا مش هقدر أتحمل مسئولية إني أحرِم أب إنه يعرف إن عنده إبن!

– يعني إيه؟

– يعني خالد هيعرف إنك حامل..

– تبقى بتكتب له سبب إنه يفرقنا من بعض..

– لو مكتوب لينا النصيب سوا هنشوفه..

ثم تركني وذهب! ماهذا الهراء الذي تفوّه به وذهب؟! ماذا قال؟ سيخبر خالد؟! ويحك يا صقر، كيف تفكر هكذا!!

****

كنت جالسًا في الصالة أنفث الكثير من دخان السجائر، حين سمعت صوت جرس الشقة يرن.. ذهبت بخطوات بطيئة جدًا وفاترة وفتحت الباب لأجده واقفًا أمامي! كدت أنهال ضربًا عليه ولكنني تركته وعدت مجددًا إلى الداخل، أتى خلفي وقال:

- أنا عارف إنك شايفني بشع وعندك الحق..

- هو انت حافظ نفس أسطوانتها ولّا إيه..

- صدقني الحب ده ما كانش بإيدنا ولا اختيارنا، وصدقني أكتر أنا حاولت كتير أمنع نفسي.

- بس حبيتها غصب عنك! لا والصراحة هي تتحب! ما انتم الاتنين بتحبوا الموت زي نن عنيكم! وهي يتعملها تمثال في عدد المرات اللي فكرت فيها تموت..

- الموضوع مش كده..

- أنا عشت حياتي كلها لوحدي، مش عارف ليه! بس ما كانش حد حواليّا ولا جنبي وأول ما شُفت إليانا هي الوحيدة اللي قدرت تكسر الحاجز ده..

فقلت له بسخرية:

- لا والشهادة للّه إنت برافو عليك، قدرت تعمل معاها في شهور اللي فضلت أعمله سنين.. جيت بكل سهولة خدت قلبها وعقلها وروحها اللي دفعت عمري كله عشان أكسبهم..

- خالد أنا مش عايزك تدخل في حالة أنا مش هحب أشوفك فيها أبدًا!

نفثت دخان سيجارتي في وجهه بتقزز واشمئزاز وقلت:

- والأستاذ تهمه مشاعري أصلًا؟!

- طبعًا تهمني!

- هه، ممكن أعرف سبب زيارتك؟ أصل لو جاي عشان تقول الكلام الخايب ده فأرجوك تاخد بعضك وتمشي حالا، لأني ماسك نفسي بالعافية..

- لا وجاي أقولك حاجة مهم تعرفها!

– إيه؟

– إليانا حامل..

ماذا؟ هل قال إنها حامل؟ يا لهذا القدر! الآن؟ الآن يأتيني بطفلٍ؟ بعد ما ماتت كل السبل بيني وبين إليانا؟! كم تمنيته من قبل ولكنه لم يأتِ وكنت أظنها تتناول حبوب منع الحمل ولكن يبدو لا! ماذا سيفعل هذا الطفل بين كنف أم تعشق الموت وتستلذه؟! ماذا سيفعل بين كنف رجل خطف والدته من قلب والده! لا لن أتركه لك يا إليانا ولو كان الثمن هو موّتك!

****

(١٨)

«مالك، ليال»

عدت من العمل وكنت متشوقًا لرؤية ليال لأخبرها بأنني قدّمت على إجازة لمدة أسبوع حيث كنت اتخذت قرارًا بشأن يخصها وكان لا بُد أن يتم.. لم أجدها في المنزل.. ذهبت إلى غرفتها أبحث عنها ولم تكن موجودة.. لا أدري ما الذي دفعني لأفتش الحجرة.. فتشت تحت وسادتها وفتشت فراش الطفلة الصغيرة، ثم شرعت بتفتيش حقائبها وفي النهاية ذهبت لخزانة الملابس وفتشت بها وإذ بي أرى شريط أقراص يشابه ذاك الدواء الذي كان يُرسَل لي في ظرف إلى المكتب! اندهشت وتعجبت؟ وتساءلت ما هذه الأقراص؟ ولماذا كانت تُرسَل لي؟ أخذت الشريط ونزلت سريعًا إلى الصيدلية التي تقع في أول شارع الذي نقطن به وهناك سألت عنه..

- مساء الخير.

- مساء النور يا فندم.

- لو سمحت ممكن أعرف ده دوا إيه؟

تفحصه الصيدلي ثم قال لي:

- دي حبوب منع الحمل..

- إنت متأكد!

- أيوه يا فندم.

- تمام، شكرًا أوي.

خرجت من هناك وأنا مُخدّر من هول الصدمة! ماذا قال؟ حبوب منع الحمل؟ لماذا تأخذ ليال تلك الحبوب؟ ومن يعلم بهذه الحقيقة وحاول أن يرسلها لي؟! مَن هذا اللعين الذي يعلم تفاصيل أنا ذاتي على غير دراية بها؟! عدت إلى المنزل أترنح من حيرتي وعذابي، وهناك وجدتها تنظر لي ببلاهة:

- إيه ده رجعت بدري؟

- آه..

- تحب أحضرلك الأكل؟

- إيه رأيك نتفسح أنا وانتِ وهنا..

فغرت فاهها وتجمدت حركتها واصفر وجهها:

- إيه؟

– نخرج، نتفسح؟

– آه..

– مش شايفك مبسوطة برضو؟

– لا أنا بس بستغربك..

– ليه حاسس إنك متوترة؟

– لالا، أنا بس مش متعودة..

– طيب ممكن طلب كمان؟

– إيه؟

– نِفسي تيجي معايا مركز حلول مشاكل المتجوزين اللي بروحه، أصل الأخصائي عايز يشوفك ويسألك عني حاجات..

– آآ، لا ماليش مزاج ممكن نخليها يوم تاني.

توترت وشعرت برجفة تسري في جسدها، فاقتربت منها بهدوء واحتضنتها:

– عشان خاطري، محتاج تيجي معايا.. محتاج نعدي التلج اللي بينا ده.

صمتت قليلًا ثم قالت على مضض وهي ترتجف ذعرًا:

- ماشي.

- طيب يلا بينا.

- هنروح دلوقتي؟

- آه، يلا وبعدين نتغدا بّره ونخرج.

- طيب، هغير لهَنا وآجيلك..

- طيب..

وسرعان ما ركضت إلى الداخل فانتظرتها بالصالة، وما هي إلا دقائق حتى خرجت وقالت:

- يلا بينا..

نزلنا سويًّا وتوجهت بها إلى المركز، من بعد ما أخبرتني بهِ الأخصائية الجميلة هناك وتشاوري مع الإخصائي المسئول عن مشكلتي قررنا بأنه يجب أن يرى ليال على الفور وهناك دخلنا إليه فقال على الفور:

- أخيرًا جيت ومعاك المدام..

– ليال..

– أهلًا بحضرتك.

نظرت له بقلق وأجابته بتوترٍ شديدٍ:

– أهلًا..

– قوليلي بقى إيه المشكلة اللي بتعاني منها بسبب مالك

زاغت نظراتها يمينا ويسارا وشعرت بعصبيتها ثم قالت بتوجس و خيفة:

– إنه...

ثم صمتت فسألها الأخصائي:

– أيوه قولي؟

– إنه ... يعني إنه ما بيهتمش ببنتي من ساعة ما خلفتها.

– البنوتة اسمها إيه؟

– هنَا..

نظر لي الأخصائي وسألني:

- ليه يا مالك ما بتهتمش بهَنا..

استنشقت هواء كثيرا ثم زفرت وأجبته بهدوء:

- عشان مفيش حاجة اسمها هَنا..

إلتفت لي ليال بذعر وقالت:

- إيه اللي بتقوله ده؟

فسألني الأخصائي سريعًا:

- يعني إيه؟

- يعني مراتي عمرها ما خلفت! ده غير إنها بتاخد حبوب منع حمل أصلًا!

وقفت وتجولت في الحجرة بجنون وجزع وأخذ الرذاذ يتطاير منها من سرعة حديثها:

- إنت بتخرف تقول إيه، هَنا موجودة! أنا مش مصدقة إنك بتعمل فيها وفيًّا كده؟! مش عشان مش عايز تعترف بيها تقوم تمحي وجودها من الحياة..

نظر لها الأخصائي:

- طيب هي هّنا فين؟

- أنا حطيتها هناك في الأوضة بتاعة رعاية الأطفال اللي إنتم عاملينها..

- تمام خلونا نروح.

- أيوه، أيوه خلونا نروح، أنا عايزة بنتي فورًا وأمشي من هنا، الراجل ده أصلًا خاطفني.

قمنا وتوجهنا إلى الحجرة وهناك سأل الأخصائي رجل الأمن الذي يجلس على الباب:

- عايزين ناخد هَنا مالك.

نظر الرجل أمامه في دفتر التسجيل ثم قال:

- ما فيش طفلة هنا بالاسم ده.

وَهلَت ليال وصرخت بفزع:

- يعني إيه ما فيش حد بالإسم ده؟ فين البنت؟ أنا إدتهالك.. بُص تاني كده في الدفتر! أكيد هتلاقي إسمها وانت مش واخد بالك.

– لا يا فندم أنا قريت الورقة اللي متسجلة بتاريخ النهارده ومفيش حد بالإسم ده.

اقتربت مني وقالت:

– فين البنت؟ ليه بتخطفها مني؟

– وهخطفها منك ليه يا ليال!

– عشان إنت مش مالك! إنت خطفت مالك وخطفت مني هَنا! أنا كنت هبدأ أحبك رغم إنك مش جوزي بس لو سمحت ما تاخدش مني بنتي..

– بس أنا مالك يا ليال! ما حدّش خطفني ولا حد خطف هَنا! ده وهم إنتِ بقالك فترة عايشة فيه وما كنتش عارف أواجهك بِده..

انهارت من البكاء وخارت قواها وسقطت على الأرض تقبل قدمي وهي تقول:

– لا ما تقولش إن مفيش هَنا، إنت خطفتها! أيوه إنت خطفتها؟! أنا تعبت في حملها وخلفتها، لا ما تقوليش إنها مش موجودة؟! ما تقوليش إن الحقيقة الوحيدة اللي فاضلة ليّا من بعد موت أمي وهم!

نظر لي الأخصائي وقال:

- أنا هطلب دكتور نفسي ليها فورًا.

فارتعدت ونظرت لي:

- لالالا، أنا مش مجنونة؟ مش انت بتحبني؟ قولّهم.. قولهم يا مالك إني مش مجنونة! ورجعلي هنا عشان خاطري.. دي هي اللي مصبراني معاها.. طب بص، بص هوريك الفستان الجديد اللي جبتهُ لها.. أقولك أنا مش هضايقك بيها، إنت مش حاببها، خلاص مش لازم.. بُص إحنا نروّح البيت وأوعدك مش هطلب تعملها أي حاجة أبدًا.. بس نرجع البيت..

لم أتمالك أعصابي فأخذت رأسها أقبّلها بإنهاك وضناء وبكيت كثيرًا فعادت مجددًا تقول:

- أنا شفتك مرة بتعيط قُدّام سريرها، إنت بتحبها أنا عارفة، بس بتكابر.

- كفاية بقى يا ليال، أنا كنت بعيط عشان الوهم اللي انتِ عايشة فيه ده.. حرام مش قادر أستحمل العذاب ده! إحنا ما خلفناش يا حبيبتي.

نظرت حولها بخوف ثم بكت مجددًا بانهيار ثم ابتسمت وقالت:

- أومال أنا كنت بشيل مين؟ كنت بغيّر لمين؟ كنت بفسح مين؟ يعني أنا كل ده كنت بعمله للهوا؟ ما تقوليش مفيش هَنا وتسكت! قولي أنا كنت بعمل ده لمين يا مالك؟! أصل اللي بتقوله ده يعني قصدك إني مجنونة؟! بس أنا يا حبيبي مش مجنونة.

- إنتِ مريضة بس مش مجنونة.

اقتربت مني ووضعت يديها الاثنتين فوق وجنتيّ ونظرت بعمقٍ من بين دموعها وقالت لي بهلع:

- حبيبي، افتكر كويس، إحنا خلفنا قبل ما مامي تموت، وهي كان نفسها في بنت وانت كان نفسك في ولد وبعدين لما جت بنت هي سمتها هَنا وانت اتضايقت أوي ومن ساعتها وانت مش عايز تقرب لهَنا.. إنت بس متضايق.. لكن حبيبي هتهدا دلوقتي.. هتهدا وتخاف عليًّا وعليها.. إنت بس متضايق وكمان ما بتحبش ماما بس ماما خلاص ماتت والله خلاص ماتت.. ماما مش هتضايقك تاني.. ولو مضايق من الاسم عشان هي اختارته خلاص نغيّر إسمها أنا موافقة، بس هاتولي بنتي بليز..

- ليال..

– هيِ خلاص مش هتضايقك تاني، هي ماتت.. لكن هنا بنتي الوحيدة.. فما تعملش فينا كده.

– ليال..

– لا يا مالك، لا إنت عارف إن نِفسي أخلف منك صح! أو قصدي أخلف من مالك..

جاءت سيارة المشفى النفسي وحاولوا أن يأخذوا ليال التي ثارت كالمجنونة وظلت تصرخ في كل مكان:

– ما حدّش يصدقه، ده خاطف جوزي وبنتي.. أنا كويسة، هو قِدِر يخدعكم.. ما حدّش يصدقه هو حرامي، خَد بنتي مني وخد جوزي وعايز يخطفني أنا كمان.. حرام عليكم انقذوني منه..

لم تهدأ إلا حين أعطوها مخدرًا لتهدأ وتنام.. ذهبت معها المشفى وهناك قال لي الطبيب:

– للأسف ليال بتعاني من حالة متأخرة من مرض نفسي اسمه «متلازمة كابجراس» ده بيخليها تتوهم إن فيه حد شبهك واخد مكانك أو خاطفك وهو اللي عايش معاها ومع تاريخها اللي انت حكيتهولي، ده ممكن يكون نتيجة فقدانها لوالدتها وإحساسها الشديد بالعقدة اللي كانت

مع والدتها وصدمتها فيك وعدم تقديرك لفقدانها لوالدتها ده خلوها تتوهم إن ليها طفلة وإنها خلّفتها قبل موت مامتها وإن الأم هي اللي اختارت الإسم وتصرّفِت مع رفضك لوهمها إنك مش مالك فبالتالي إنت مش هتحس بيها ولا هتؤمن باللي هي مؤمنة بيه..

- طيب وإيه العلاج يا دكتور؟

- هتخضع هنا للمراقبة وللعلاج النفسي طبعًا..

- ممكن أدخلها؟

- طبعًا بس هي حاليًا نايمة.

- تمام..

دخلت إلى حجرتها وجلست على مقعد أمام فراشها ومسحت على رأسها بهدوءٍ وجلست أقبّل يدها الناعمة بجنون.. آه حبيبتي لو تعلمين كم تعذبت من أجلك! كم تحملت من أوهامٍ من أجل أن تبقي معي تحت سقف واحد في راحة وأمان ولكن حين قصصت حكايتي للأخصائي، طلب من أجلك أن نذهب للمشفى.. صحت ليال ونظرت لي بضعفٍ وهمست بتعبٍ شديدٍ:

– أنا مش تعبانة يا مالك..

قبّلت يدها مجدداً بحب فقالت بإعياء:

– أنا بحبك وبحب بنتي.. أنا عايزة أعيش في هدوء..

أغلقت عينها وبدأت تهلوس بوهنٍ:

– قولها تسيبني أحبك..

– هي مين دي؟

لم تجبني فعدت أسألها مجدداً:

– مين دي اللي تسيبنا يا ليال؟

أجابتني بمشقة بالغة:

– ماما، ماما مش عايزة تسيبنا والراجل اللي خطفك يشبهك أوي وفاكر إني مش عارفة إنك مخطوف.

– طب نامي وارتاحي..

وقبّلت جبينها ونهضت.. عدت إلى المنزل وأنا في حالة يرثى لها! لم أصدق ما مررت به اليوم؟! ما مررت به اليوم كان أصعب امتحان قد يضع فيه الإنسان!

ذاك القلب الذي أحببته لم يعد كالسابق وجاء مكانه قلب وعقل عليل.. صغيرتي الآن ترقد بالمشفى وحدها تصارع ماضيها وأفكارها الملوثة! تحارب وتناضل أوهامها من أجل أن تعود لي بسلام! حبيبتي الآن تنعي وتقيم الحداد على طفلة لم تأتِ الحياة! طفلتها ماتت في خيالها! قتلتها بواقع مؤلم! قتلتُ اليوم طفلتها وسحقت وجودها بقسوة وبلا رحمة! حبيبتي تظنني الآن خائنًا، ألقيت بها بعيدًا وهربت.. لا تعلم أنه من أجل مصلحتها من أجل أن تسير على قارعة طريق علاجها.. يكفي عبثًا وأوهامًا تأخذ من حياتنا سويًّا! أريد أن أحيا معها في أمان! أريد أن أستعيدها من ذاك المرض اللعين.. وبينما كنت شاردًا في أفكاري، تذكرت أمرًا مهمًا! ذاك الظرف اللعين الذي أرسله لي يومًا ذاك المجهول لقد وضع بداخله فيلمًا تسجيليًّا عن المرض والأقراص التي تأخذها ليال! مَن هذا الذي يعرف عني وعن ليال الكثير؟ دبَّ الرعب في قلبي وأخذت أفكر، وبينما أنا أفكر دق جرس باب المنزل فذهبت لأرى مَن الزائر! وتحيّرت حين فتحت الباب لأجد رسالة مكتوبًا عليها «الآن تظهر لك الحقيقة المفقودة عليك بالاختيار وليس الانتظار، أوقات الحقيقة تكون أبعد مما هي عليه في الواقع فاحترس».. نزلت سريعًا لعلي أجد من وضعها ولكن الطريق كان فارغًا من المارة! تساءلت من يكون هذا الشخص؟ ماذا يريد مني ومن

حياتي؟ وكيف له أن يعرف بكل تلك الحقائق! حتى الحقائق التي كانت مغيّبة عني هو كان على علمٍ بها؟! أي وقحٍ هذا يترصد لمنزلي؟ سرقني الوقت وأنا أفكر في حالي وما آلت إليه الأمور حتى توصلت لقرار مهم وأخيرا! يجب أن أرحل من هذه الشقة الملعونة.. عامين قضيتهما بداخلها يبدو أنني كنت تحت مجهر فيهما! يجب أن أبعد زوجتي عن أي فضيحة، سأعالجها بعيداً عن كل العيون المراقبة.. سأبحث عن والدها وأتحدث معه، آن الأوان أن يذوب الجليد القابع وسط علاقتهما.. ليال تحتاج إلى والدها الآن أكثر من أي شيء! ليال تحتاج إلى الحب والاهتمام والحنان والرعاية.. وإلى كل شيء!

****

ألقاني ذاك المعتوه داخل المشفى، بعد أن خطف مني زوجي وابنتي! خدع الجميع وقال لهم بأنه زوجي! زوجي لا يتركني وحدي أبداً! مالك يخشى عليّ من نسمات الهواء! مالك يتفهمني ويفهم حالتي، أما ذاك فإنه جاحد وقاسٍ! سرق أحلامي، حبي، حياتي، طفلتي ونقلني إلى هنا وكأني مجنونة! لا لست مجنونة! أنا إنسانة أحبّت أمها كثيراً، حاولت أن تغيّر مفاهيم والدتها عن الرجال ولكنها لم تستطع! تركتها والدتها وحيدة بعد إنجابها لطفلة تشبه والدتها كثيراً! والدتي كانت على حق! هؤلاء الرجال أعداء «نون النسوة» لا

يفقهون في علم الإناث سوى احتياجاتهم هُم، غريزتهم فقط هي التي تجوع وتحتاج لكل أنثى من قبيلة النساء! أما مشاعرنا، أحاسيسنا، احتياجاتنا المعنوية لا قيمة لها أمام رغباتهم هُم! نحن ليس سوى دمى تتحرك حسب أهوائهم! لكن مالك لم يكن مثلهم.. بينما ذاك الذي يريد أن يتحكم فيّ، منهم! يشبههم كثيراً.. به نفس الصفات الملوثة! دمه فاسد يجري بداخله كرات الكره والنرجسية! ذاك الرجل يتغذى على طعني، وسلبَ مني معنى الحياة! لن أتركه يعبث معي كيفما شاء! لن أرضخ له! سأقاوم دوماً حتى أثبت لهم صحة أقوالي.. هم غير مدركين بأنه استطاع الضحك عليهم! سمعت الطبيب يخبر إحدى الممرضات بأني أعاني أحد أمراض التوهم، لا يعلم أنه وقع تحت وهم الرجل الذي يدّعى بأنه مالك.. مالك لا يمكن أن يلقيني في مصحة ويرحل بعيداً عني.. مالك الذي تحديّت والدتي من أجله، لا يمكنه أن يعاملني كما يعامل هؤلاء الرجال إناثهم بقسوة.. تلك التصرفات هي من شأن ذاك اللعين الذي سلب مني حياتي وجردني من ضحكاتي.. الآن أسمع خطوات الطبيب تقترب، سأنام وألوذ فراراً حتى لا يقتل آخر ذرات أفكاري! سيمنحني جرعة دواء سامة تجعلني أغيب عن الوعي لأطول فترة ممكنة! فأرة حقل تجاربهم، يحاولون أن يسيطروا عليّ وعلى أفكاري.. لكن هيهات هذا العقل

يفقهون في علم الإناث سوى احتياجاتهم هُم، غريزتهم فقط هي التي تجوع وتحتاج لكل أنثى من قبيلة النساء! أما مشاعرنا، أحاسيسنا، احتياجاتنا المعنوية لا قيمة لها أمام رغباتهم هُم! نحن ليس سوى دمى تتحرك حسب أهوائهم! لكن مالك لم يكن مثلهم.. بينما ذاك الذي يريد أن يتحكم فيّ، منهم! يشبههم كثيراً.. به نفس الصفات الملوثة! دمه فاسد يجري بداخله كرات الكره والنرجسية! ذاك الرجل يتغذى على طعني، وسلبَ مني معنى الحياة! لن أتركه يعبث معي كيفما شاء! لن أرضخ له! سأقاوم دومًا حتى أثبت لهم صحة أقوالي.. هم غير مدركين بأنه استطاع الضحك عليهم! سمعت الطبيب يخبر إحدى الممرضات بأني أعاني أحد أمراض التوهم، لا يعلم أنه وقع تحت وهم الرجل الذي يدّعى بأنه مالك.. مالك لا يمكن أن يلقيني في مصحة ويرحل بعيداً عني.. مالك الذي تحديّت والدتي من أجله، لا يمكنه أن يعاملني كما يعامل هؤلاء الرجال إناثهم بقسوة.. تلك التصرفات هي من شأن ذاك اللعين الذي سلب مني حياتي وجردني من ضحكاتي.. الآن أسمع خطوات الطبيب تقترب، سأنام وألوذ فراراً حتى لا يقتل آخر ذرات أفكاري! سيمنحني جرعة دواء سامة تجعلني أغيب عن الوعي لأطول فترة ممكنة! فأرة حقل تجاربهم، يحاولون أن يسيطروا عليّ وعلى أفكاري.. لكن هيهات هذا العقل

متيقظ لأفعالهم المشينة.. هذا العقل لن يتركهم أبداً أن ينعموا بسلام.. أشعر ببرودة الدواء تسري بين شراييني.. مشاهد كثيرة تدور في زقاق عقلي الآن! صوت أمي ولعنها لأبي، صوت شجاري مع مالك! صوت طفلتي المخطوفة! صور متلاحقة وأصوات تطارد نومي! كلها بسبب الدواء تقتحمني، جسدي يرتجف من السقيع! جسدي يرتجف من الوحشة المظلمة التي أجلس فيها الآن! أنا الآن في العالم المغيب، في عالم بعيداً عنهم جميعهم.. عالم تكسوه مشاهد متلاحقة لكل مخاوفي! الهلع يسيطر عليّ بإتقان وكل ما ينقصني يجتاحني ويكسر صمتي.. عقلي سينفجر! الأفكار تزلزلني، لا بُد من وقفة! لا لم أعد أتحمل الألم الذي بداخلي! ألم جامح يعصفني.. سأصرخ، نعم ففي الصراخ راحة! نهضت من العالم الذي كنت أغوص فيه بصرخة عالية شرخت الصمت الساكن في المشفى كله..

* * * * * * *

(١٩)

«ريم، صفوت»

عدنا من الإجازة التي أعدّها لي صفوت، لم أتحدث معه بشأن ما سمعته حين كان يتحدث في الهاتف ولكن ما سمعته أذاع بداخلي الشك مجدداً.. انتظرت عودته من العمل وأحضرت له الغداء وبعدما انتهى واجهته بسؤالي:

- إنت عندك مشكلة يا صفوت في الخلفة؟

- إيه؟! ليه؟

- جاوبني بصراحة!

- لا طبعًا! إيه الهبل اللي بتقوليه ده؟

- أومال خايف أعرف إيه عنك فتبقى مصيبة؟

- مش فاهمك..

- واحنا مسافرين سمعتك بتقول...

قاطعني بعصبيته وغضبه المفترس:

- إنتِ إيه! عمرك ما هتتعلمي؟ عمرك ما هتبطّلي تتجسسي عليّا! ما اتعلمتيش من طلاقنا؟

- أنا ما كنتش أقصد أتجسس عليك! أنا قمت من عز نومي فجأة فلقيتك بتتكلم في التليفون.

- سبحان اللّه! زي كل مرة.. ما تبقيش قاصدة وألاقيكِ بتتجسسي عليّا..

- ما تلفش وتدور يا صفوت! إنت ليه مش عايز تخلف مني!؟ وإيه اللي خايف منه؟

- أقولك ليه؟

- أيوه..

- عشان ما بقتش طايق العيشة معاكِ، فأكيد مش هربط نفسي بيكِ بطفل.

- إنت بتقول إيه؟

- أيوه، حياتي معاكِ بقت كلها شك وجحيم وغيرة، ما بقتيش زي زمان الحضن اللي بلاقي فيه دفا يبقى نعيش سوا ليه؟

- وحبي ليك راح فين؟ ما بتشوفهوش؟ ولا بتشوف بس نفسك!

– عارفة يا ريم إيه مشكلتك؟

– إيه؟

– إنك عمرك ما قدرتِ قيمتي!

– أنا؟ ده عمري راح بسبب خوفي لَتضيع مني! أنا نسيت نفسي جُوَّه دنيتك إنت..

– أنا هقوم من وشك عشان مش طايق أكمل نقاش معاكِ.

– هه اهرب زي ما انت متعود دايمًا..

– حاضر وده اللي فعلًا هعمله..

****

تركتها وأنا أذم اليوم الذي تزوجت به.. صببت سخطي كله على الطريق وأنا أقود سيارتي.. حتى وصلت إلى منزل أحفظه جيداً، منزل يقودني هو الآخر إلى الجنون.. وصلت إلى المنزل الذي ألوذ فيه بالراحة ولكنه يرفض أن يبقيني على الحياة! اتصلت بصاحبة المنزل وتأكدت أنني أستطيع الصعود إليها.. خطواتي كانت تسابق أفكاري.. صعودي لها اليوم مختلف! ما إن فتحت لي الباب حتى ارتميت بين أحضانها، قبّلتها بحرارة ولهفة

وكأني أنتقم في الجميع بداخل حضنها.. لا أكترث للمجتمع ولا للحب ولا للحياة برمتها، لا أكترث لمشاعر الآخرين! كل ما يهمني كيف أشبع سخطي وذمي.. كيف أهدهده وأحنو عليه.. كيف أذيب الجرح الغائر العالق داخل جوفي منذ أعوامٍ..

نظرت لي بحب كعادتها وهمست:

- وحشتني أوي..

- وانتِ أوي.. تعالي بينا على الأوضة.

سحبت يدها سريعًا وقُدتها إلى الغرفة بلهفة ولم أعِر اهتمامًا لها وهي تقول لي:

- إستنى، أقفل الباب يا مجنون..

- خلي الخدامة تبقى تقفله.

نادت الخادمة وأنا أجرها إلى الغرفة بشوقٍ عارمٍ:

- هدى اقفلي الباب

وما إن دخلنا الغرفة حتى وقفت أمامي وسألتني باهتمام:

- خناقة زي كل مرة؟

- شكلها سمعتني وأنا بكلمك في التلفون في المالديف وبقولك خايف لو عرفت تحصل مصيبة..

تصبب العرق منها خوفًا:

- وبعدين؟

- افتكرتني ما بخلفش

- وانت مش عايز تخلف منها ليه؟!

- إنتِ مجنونة إنتِ كمان؟!

- ليه؟

- أخلف منها وحياتنا كده؟

- بس انت بتحبها يا صفوت..

- ما أنكرش إني بحبها، بس مش زي زمان.. مع الوقت بيقل وينقص.. كتر المشاكل والحصار اللي هي عاملاه عليّا والخنقة خلوني يوم عن يوم أبطل أحبها زي زمان..

- وتخيل رغم ده كله، بتعرف برضو تخونها!

- عشان معاكِ لقيت اللي محتاجه منها وبعدين منا جتلك يوم ما طلقتها وعيطتلك عشان نبقى سوا ورفضتِ تسمعيني!

- عشان أكيد وقتها كانت منهارة وكانت في حالة يُرثى لها!

- يهمك يعني حالتها..

- طبعاً!

- أنا ما بقتش فاهمك! ولا عارف إنتِ إزاي بتفكري؟!

- أنا اللي مش عارفة هي إزاي لما كنت بتكلمني وخدت منك السماعة، سمعت صوتي على إني راجل؟!

- عشان أنا منزل برنامج بيغير صوت اللي بيكلمني، وكنت بشغله لما آجي أكلمك، فكان بيحوّل صوتك لراجل..

- وتقولي إنها مكفراك! ده انت يتعملك تمثال في الخيانة يا أخي!

- بس هي اللي خلتني أوصل للمرحلة دي..

- بس هي بتحبك..

- الحب لوحده من غير ثقة ما يأكلش عيش..

- تثق فيك إزاي؟!

- أنا ما كنتش هبقى كده..

- طيب وناوي على إيه؟!

- ما تتطلقي من جوزك وخلينا نهرب بعيد عنهم..

احتدمت غاضبة:

- قُلتلك مية مرة، ما أقدرش أتطلق منه!

- ليه؟ خايفة ياخد الولد منك!

- مش بس كده! أنا حابة الحياة كده

- حابة تعيشي خاينة على إنك تعيشي حياة نضيفة بعيد عن قرفه وذله ليكِ؟

- أيوة، بس ابني عايش مع أبوه وأنا عايشة حياة كويسة.

- وحبنا؟

- حبنا إنت عارف إنه غلطة.

- وليه مستمرة في الغلطة دي؟!

- .....

اقتربت منها وأمسكت فكها بقوة وغيظ ونظرت لها نظرة نارية:

- قوليلي ليه مستمرة في الغلطة دي!

- عشان بحبك!

- ولما بتحبيني، عايزة تفضلي مع جوزك ليه؟

- عشان غني ومعيشني حياة أي واحدة تتمناها.

- بتبيعيني عشان الفلوس؟

- لا عشان لا أنا ولا انت نقدر نستغنى عن اللي عايشين معاهم! إنت كمان مهما حبك نقص لكن ما تقدرش على بُعد ريم!

- يا سلام؟!

- أيوه، تقدر تقولي لو عرفت بعلاقتنا دلوقت هتعمل إيه؟

- .....

- هتتجنن وتخليها تصالحك بأي شكل.

- جُمانة اللي بتقوليه ده أي كلام! أنا ما بقتش قادر على الحيرة والعذاب دول! لا أنا قادر أعيش خاين ولا أنا قادر أقنعك إنك تتطلقي وتعيشي معايا.. ودايمًا بترفضي.

- وكل مرة هتطلب مني ده برضو هرفض..

- ليه؟! ليه عايشين في العذاب ده؟

- كفاية علينا اللحظات دي، ريم بتحبك وأنا لو قدرت أسيب جوزي مش هقدر أكسر قلبها..

- وأنا؟

- لا أنا ولا انت لينا الحق في أي حاجة.

كدت أجيبها لولا صوت جاء من خلف ظهري أعلمه جيدًا جعل شعر رأسي يشيب في التو واللحظة:

- وأتاريكِ وقتها لما طلقني تقوليلي هخلي جوزي يقنعه! ما كانش يخطر أبدًا على بالي إن جوزك ده هو انتِ! إنتِ اللي بتقدري تقنعيه وتخليه يرجعلي!

التفتُّ أنا وجمانة للصوت وإذ بي أجد ريم واقفة مبعثرة الشعر ووجهها أصفر وملامحها كلها

بائسة وجامدة.. جن جنوني كما قالت جُمانة لي منذ قليل، ركضت إليها وقلت:

- ريم؟! إنتِ هنا إزاي؟

- كنت قاعدة في البيت زي المتخلفة الهبلة اللي مستنية رجوعك عشان أصالحك كعادتي وفجأة لقيت جواب مبعوتلي جواه صور وفيديوهات تقرف ليكم انتم الاتنين ومكتوب جوة ورقة «دلوقتي الحقيقة بين إيديكِ، قرري إنك تختاري ولّا إنك تعيشي في انتظار، إلحقي نفسك ولمي كل حاجتك وسافري لدنيا أفضل» ما صدقتش نفسي وجيت جري على هنا ولقيت عربيتك مركونة بعيد! بقيت عايزة أكدذِب نفسي لحد ما جيت أخبط على الباب فلقيته مفتوح! دخلت ولما قعدت أفتش البيت لأني كنت مستغربة الهدوء اللي في البيت ومستغربة ليه الباب مفتوح، لقيت هدى نايمة مع ابنك في الأوضة وجيت هنا وشُفتك وسمعت كل حاجة.

ذعرت جُمانة وقالت بهلع:

- ريم، إهدي وهنفهمك كل حاجة.

- تفهموني!؟ هه هتفهموني إيه؟ إنكم مع بعض وبتستغفلوني ولا هتفهموني إن دي هفوة!

حاولت أن أمسك يدها فصرخت:

- إبعد إيدك عني..

- ريم، وطي صوتك وبلاش فضايح.

- هو ده اللي همك؟! ولّا خايف على الهانم الخاينة لتتفضح عند جوزها؟!

نظرت لي جُمانة وقالت بخوفٍ شديدٍ:

- صفوت، خدها بعيد وفهمها.. أرجوك..

وكأن الجملة كانت القشة التي قسمت ظهر البعير، فهاجت ريم غضبًا بصوتٍ عالٍ:

- خايفة لابنك وجوزك يعرفوا حقيقتك؟ خليهم يجوا يشوفوا الهانم المحترمة اللي سابت كل الرجالة ولفت على جوز صاحبتها..

- ريم من فضلك..

- أتاريكِ عشان كده ساكتة على خيانة جوزك! ما انتِ مقرفة زيه وبتخونيه! دلوقت فهمت صورة العربية اللي كانت من جُوّه دي كانت إيه!

قالت جُمانة بتعجب:

- صور إيه؟ وعربية إيه؟!

نظرت لي ريم وقالت وهي تصرخ:

- فيه حد عارف بقرفكم ده من زمان! وكان بيحاول يحذرني! مش بعيد يكون واحدة من اللي بيلفوا على جوز السافلة دي عشان عايزة تنتقم منك! عشان أخرب بيتك وأهده فوق راسك ويقدروا هُمّا يوصلوا لجوزك بسهولة طالما عارفة إنه خاين وما بتسيبيهوش برضو!

أجبتها بذعر:

- بعتلك إيه؟

- صورة عربية الهانم، من جُوّه معلقة نفس الميدالية اللي انت جبتهالي قبل كده! بس أنا ما خدتش بالي! لما اتبعتت ليّا صوركم النهارده ومن ضمن الصور، صورتكم وانتم في العربية سوا ومحطوط لي دايرة على الميدالية اللي الهانم معلقاها على مراية العربية اللي في النص من جُوّه! فهمت! دلوقتي فهمت إني كنت عاميا عن حاجات كتيرا! دلوقت بس فهمت يعني إيه الشك طوق نجاتي!

ركضت إلى ريم ووضعت يدي فوق فمها من أجل أن تصمت، فدفعتني بعيداً عنها بقوة:

- وسع كده، إوعي تفتكري إني هسيبك تعيشي حياة سعيدة مع جوزك!

صرخت جُمانة بي:

- صفوت خد المجنونة دي قبل ما تفضحنا أكتر وخليها تهدا..

لم يسعني سوى أن أحمل ريم بقوة وأحاول جاهداً أن أخرجها من منزل جُمانة وبالفعل استطعت فعل ذلك ووضعتها في السيارة وانطلقت سريعًا بها إلى منزلنا.. وما إن وصلنا إلى المنزل حتى ذهبَتْ إلى حجرتها وأخذت تلملم أغراضها.. أوقفتها كالمجنون الضائع:

- بتعملي إيه؟

- طلقني!

- اسمعيني هنا، افهمي..

- أفهم إيه؟ أفهم قذارتك؟ ولّا أفهم إنك أكتر بني آدم مقرف على وش الأرض؟

– صدقيني غصب عني! أنا بحبك فعلًا! أنا ما أنكرش إني غلطت بس...

قاطعتني وهي تصرخ بجنون:

– كفاية كدب وتمثيل! كفاية غش بقى! إنت عيشتني أكبر كدبة.. إنت يا صفوت أحقر واحد في الدنيا!

– إنتِ عندك حق! أنا حقير وندل وجبان بس بحبك..

– حبك ده سم يقتل..

– لالالا، لا أنا عمري ما أقدر آذيك.. إنتِ زي ما قلتِ دي هفوة .. والله ما هتتكرر.

– زمان لما خنتني لما كنا مخطوبين، قُلتلي كده! قُلتلي عمرك ما هتخوني وإنها غلطة! بس ديل الكلب عمره ما يتعدل.. إنت عمرك ما عرفت تحبني يا صفوت!

– لا أنا حبيتك! بس شكك طول الوقت وخنقتك عليّا همّا اللي خلوني ألجأ لجمانة!

– هه جمانة! جُمانة اللي كنت مفهمني دايمًا إنك بتكرهها؟! جُمانة اللي جريت خدتني للمالديف عشان تبقى جنبيها! وقال أنا اللي فاكرة إنك وافقت

على المالديف عشاني! بس أتاريك تعبان لفيت ودُرت عليّا لحد ما خلتني أنا بنفسي، أقولك تعالي نسافر هناك!

- ريم، إهدي..

نظرت لي بهستيرية والدموع تتساقط بغزارة من عينيها:

- يا ترى بقى نمت معاها كام مرة؟ يا ترى لما بتنام معاها بتبقى مبسوط معاها أكتر ما بتبقى مبسوط في حضني؟ بلاش.. هي بتعرف تفاصيلك زي ما أنا أعرف؟ هي بتعرف تستحمل قرفك وعصبيتك ولّا هي كانت بس بتشوف الوش الحلو؟! الوش اللي ما يظهرش لأي واحدة من بنات الدنيا كلهم إلا ريم!

- ريم عشان خاطري إسمعيني.

نظرت لي مرة وصرخت مجدداً:

- هي عارفة بتحب إيه؟ بتاكل إيه؟ بتشرب إيه؟ بتقلق عليك طول ما انت نايم؟! هي كانت هتستحمل خيانتك وتعيش طول حياتها بتبص مية مرة حواليها لتكون مغفّلها!

دودة الكتب حرامية

- حرام عليكِ بقى!

- قولي يا صفوت! قولي هي حبتك زيي؟ هي كانت مستعدة تعيش معاك على كف عفريت؟ طب ليه؟ ليه عملت فيّا كده؟ ليه ده أنا طول عمري عايشة عشانك!

لم أتمالك دموعي فبكيت مثل الطفل الخائب الذي فشل في نفس الامتحان للمرة العاشرة، أكملت قائلة:

- ده أنا كنت بصلي كل يوم يا صفوت وأقول لربنا «يارب، يارب إوعى تحرمني منه لأن هو الحياة اللي بتنفسها» كنت كل يوم أقعد أفكر إزاي هنخلف من بعض!

- واللّه العظيم أنا ما كان قصدي أوجعك..

- توجعني؟! توجعني دي تقولها يا صفوت لو كنت ضربتني قلم، ولّا كنت زعقتلي! إنت عملت اللي أكبر من الوجع.. إنت جبت سكينة ووقفت ورا ضهري وأنا مغمضة قعدت تطعني بيها! وأنا واقفة عمالة أصرخ وأنزف وأنادي عليك عشان تنقذني ومش عارفة إنك انت اللي بتطعني وتقتلني! ما تتكلمش عن الوجع عشان النار اللي جوايا أشد من أي وجع..

دودة الكتب سمر أميمة

- تعالي يا ريم، نمشي من هنا.. هنعزل.. هغيّر شغلي وهآخدك نعيش بعيد.. بعيد عن أي حد ونبتدي صفحة جديدة.

- إنت قطعت كل الصفحات اللي في كتابنا.. ما عادش فيه ولا ورقة ولا رصيد يستحمل خيانة تاني.. وأنا أبقى غبية لو قبلت أصدق راجل أناني زيك!

- أقولك؟ تعالي نجيب البيبي اللي بتحلمي بيه.

- إنت كان عندك حق! ما كانش ينفع أجيب بيبي! لأن اللي زيك ما ينفعش يكون أب؟! أصل هتعلمه إيه؟ هتعلمه الخيانة والغش؟! ولا هتعلمه إزاي يعض الإيد اللي اتمدت ليه..

- ريم لو سمحتِ، اسمعيني..

- طلقني يا صفوت! بدل ما أخلعك! لو راجل خلي عندك كبرياء وكرامة وطلقني..

ثم لملمت أغراضها ورحلت، تركتني كحشرة حقيرة تذوق مرار الموت بعد أن داست عليها جميع الأقدام! حشرة لم تستطع أن تنال حظًا أكبر في الحياة.. نعم كنت أنا حشرة سامة في حياة ريم، سممت لها عمرها.. هي على حق.. حاولت أن أتصل بجمانة فأجابتني وهي تسب وتلعن:

روضة الكتب حرامية

– مش عايزة أسمع صوتك تاني، حياتي اتخربت من تحت راسك، كان يوم اسود لما عرفتك. جوزي هيرفع عليَّا قضية رد شرف وهيحرمني من ابني.. ثم أغلقت الهاتف في وجهي!

حقًّا! الآن هي الأخرى التي أضعت حياتي بسببها تركتني؟! الآن بعدما تحطم عشي الهادئ الجميل فوق رأسي، لعنتني تلك السافلة وأخرجتني من حياتها؟! لا لن أتركك يا ريم.. لن أترك حب العمر يضيع تحت سفح الظلام! سأعمل بكل قوتي وجهدي من أجل أن تعودي لي يا ريم.. أخطأت بالتأكيد أخطأت في حقك! لم أتصرف جيداً.. بحثت عن الراحة بعيداً عن حضنك.. ألقيت حب العمر كله في قمامة الغدر! كنتِ تهتمين لي ولحبي في الوقت الذي كنت أسقيكِ فيه من كأس الكذب والنفاق! تلك الملعونة انتهزت خلافاتنا وجاءتني يومًا مكتبي.. جاءت بحجة أنها تخشى أن يصيب منزلنا الجميل الخراب! لفَّت شباك دناءتها حولي وكبَّلتني داخل دائرتها.. أغدقت عليّ بكل الاهتمام الموجود في الحياة، لتثبت لي بأنك مقصِّرة في حقي! يومًا بعد يوم اقتربت مني رويداً رويداً، جعلتني أنهل من نهر الحرام.. كانت تتصل بي تخبرني عن خيانة زوجها تارة، وعن إهماله لها تارة.. يومًا بعد يوم وُهمت بالحب الذي تكنه ليّ.. فأصبحنا عشيقين في الليل الآثم! الآن أذوق عذاب

سوط الندم ولكن بعد ماذا؟ بعد ما انقطع عني حبل الحياة الذي يربطني بغشاء الدنيا!

****

(٢٠)

«آسيا، يوسف»

كنت مع سارة وآية نتنزه في أحد مجمعات القاهرة حين أتت رسالة لي من ذاك المعتوه الذي يترصدني «ياريتني كنت زي سارة صاحبتك اللي من لبنان، آجيلك من آخر العالم وتكوني متلهفة تشوفيني زيها» رسائله تدب الهلع في أوصالي! تلفت حولي يمينًا ويسارًا حتى نظرت لي آية بشك وقالت:

- في إيه؟ بتدوري على حد؟

- ها! لا أبدًا..

- أومال عمالة تبصي يمين وشمال لحد ما روشتينا معاكِ في إيه؟!

- مافيش يا أية، المهم خلصتم من هنا؟ خلونا نروح مكان تاني.

نظرت سارة بتعجب لي وقالت:

- ليه بدنا نروح مكان تاني؟ مش قلتِ راح نقعد هون اليوم كله؟

- ما أعرفش يا جماعة، أنا حاسة هنا إني مخنوقة ومحتاجة أروح مكان تاني!

تفحصتني آية بشك أكبر وقالت:

- الولد إياه بعتلك حاجة؟!

- ها؟ لا.. بس طاقة المكان هنا سلبية أوي، أنا مش فاهمة إزاي مكان عام زي ده ما ياخدوش بالهم من طاقته!

- مع إني مش مرتاحة لإسلوبك وحاسة إن فيكِ حاجة بس ماشي لو حابة نغيّر المكان نغيّره عشانك وآهو بالمرة نفسح ست سارة!

- تمام، يلا بينا..

كنت أسير بسرعة شديدة ولو كنت أستطيع الركض لركضت! كنت أشعر بعينيه تجوب معي أينما ذهبت! فضولي وخوفي كانا في صراعٍ تامٍ! هذا الشخص يعرف كل شيء عني! يعرف أصدقائي واحدة تلو الأخرى، بل إنه يعرف أسماءهن! يعرف أوقات خروجي من المنزل وعودتي إليه، يعرف متى يعود يوسف من عمله ومتى يتأخر! إنه على دراية بكل تفاصيل حياتي.. زاد فضولي وبدأ يحثني أن أراسله ولكن خوفي كان يصرخ بالهروب! أتت

رسالة أخرى منه يقول فيها «لو عايزة تعرفي أنا مين، أنا مستعد أقابلك بعد ما تخلصي من صحابك».

ماذا؟! هل طلب أن يراني حقّا؟ هل سأعرف مَن هو أخيراً؟ بينما كنت غارقة في أفكاري تذكرت رسالته التي أتتني حين كنت مع يوسف في منزلي حيث أرسل لي آنذاك رسالة قصيرة فحواها «يا بخت جوزك بيكِ دلوقت، قدامك وعايش معاكِ، بينه وبين عينك مسافة قصيرة، إنما أنا بيني وبينك بلاد وبلاد رغم إني قريب منك جدّا وتقريباً عايش معاكِ من غير ما تحسي»! يا إلهي إنه يعيش معي يومي بكل حذافيره.. يعرف كيف يدخل لي من ثغراتي! يجيد ويتقن دور الحبيب جيداً! أما أنا فكنت أغوص حائرة وتائهة بعد كل رسالة يرسلها لي.. أريد أن أسمع وأعيش كل تلك المشاعر التي يقدّمها لي ولكن مع يوسف! أما يوسف فكان يضيع بعيداً عني بينما كنت أغرق في وحل هذا المترصد! وصلت مع أصدقائي لأحد المطاعم وتبادلنا الأحاديث الطويلة، وإذ بآية تسأل سارة فجأة:

- صحيح إنتِ مين اللي قدر يساعدك تيجي مصر بسهولة كده؟

- هلاء خيّ عرف واحد عن طريق الشغل وصاروا أصدقاء وفي يوم كنت عم حاكيكم فسألني ليه

ما بتفكري تزوري مصر! حكيتله إني بدي أكيد بس ما بعرف شو المطلوب للتأشيرة.

- آه وبعدين؟

- بس وفي يوم إجى وحكاني، بدك تسافري ع مصر، قلتله إي أكييد ولو! قالي خلّص جيبي أوراقك وأنا بسهلك الموضوع وبطلعلك التأشيرة.

فسخرت آية قائلة:

- مز صاحب أخوكِ ده؟!

- شو بدي فيه، هلاء كتر خَيْره إن خلاني أفوت على هون وأشوفكن.

كنت جالسة معهما بنصف عقل، فالنصف الآخر شارد في الطلب الذي طلبه مني ذاك المجهول.. ثم جاء وقت توديعنا لبعضنا البعض.. ودعتهما وذهبت إلى سيارتي وهناك وجدت رسالة، نظرت حولي ووجدت الطريق خاليًا من المارة! متى وضعت تلك الرسالة؟ لا بد أنها منه! فتحتها على عجل لأجد تذكرة سينما بعد نصف ساعة! وملحوظة صغيرة: «إيه رأيك تقابليني هناك؟» دخلت سيارتي وأنا أرتجف ذعرًا! هاتفت يوسف سريعًا ولكنه لم يجبني وأرسل لي رسالة تقول: «أنا مشغول دلوقتي،

نتكلم بعدين» تأففت، لأنني كنت في حاجة بالغة أن يثنيني بعيداً عن شيطاني! أن يرجم تلك الأفكار اللعينة التي تتراقص بشقاوة أمام عيني! أرسلت إليه «أنا محتاجة لك» وانتظرت دقيقة، دقيقتين، ثلاث، أربع، عشر وبعده لم يتصل بي! هاتفته مرة أخرى ولم يجبني أيضًا.. ثم دق الهاتف فظننته هو ولكن هيهات! إنها مكالمة من الجحيم، أجبته بصوتٍ مذعورٍ:

- أيوه..

- هتيجي؟

- .....

- مستنيكِ، تعالي... ما تخافيش أنا معاكِ وعمري ما هآذيكِ..

صوته كأنه عرّاب يتقن سري، هاجسي وذعري.. يعرف كيف يصل إلى احتياجاتي فورًا.. بالفعل ولأول مرة، قدت سيارتي إلى المكان المكتوب بالورقة وذهبت إليه.. كنت أريد أن أبقى وحدي تحت سيطرة كبوة الألم والعذاب.. نزلت وهناك اتصلت به وأنا ألعن نفسي ألف مرة فأجابني:

- وصلتِ؟

- أيوه وإنت؟

- وراكِ

التفتّ لأجد الصدمة الكبرى! ماذا؟ هل أنت حقًّا؟ فُغِر فمي ووقفت جميع الحروف معلولة عند طرف لساني من هول المفاجأة! ألهذا كنت تعرف جميع حركاتي وتترصدها بسهولة! أخرجني من فوهة البركان العاصر لظنوني وقال:

- أعرّفك بنفسي، أنا سامو جارك اللي عمرك ما خدتِ بالك منه!

- أنا..

اقترب مني بهدوء وهو ينظر بعمق داخل عيني وقال:

- إنتِ الحورية اللي جَت لي من الجنة، بس جات ليا متأخر أوي..

تلعثمت قائلة:

- أنا لازم أمشي..

- لا، تعالي هتقعدي معايا وتسمعيني... لو مش حابة ندخل الفيلم، ممكن نروح أي مكان سوا..

- أنا ما ينفعش أكون هنا، أنا لازم أروّح.

- تروّحي لمين؟ لجوزك اللي ما بيسألش عنك؟ ودايمًا مشغول في شغله؟

- ما طبيعي يكون في شغله..

- بس مش مقدر قيمتك!

- لا مقدرها..

- ماكنتيش هتبقي محتاجة كل الحب اللي عندي.

غضبت من حديثه! حديثه لعنة طلاسمها معقودة بسحرٍ أسود هالك فقلت سريعًا:

- أنا بحب يوسف.

- عارف.

- يبقى عايز مني إيه؟

- عايز أحبك.

- ما ينفعش.

– ليه؟ ليه الواحد يفضل مع حد ما بيحبهوش لمجرد إنه هو بيحبه؟! ليه ما يدوّرش على اللي بيحبه إلا بعد فوات الآوان!

– أنا مش فاهمة حاجة منك، أنا لازم بجد أروّح..

أمسك يدي وقال بذعر:

– لا مش هسيبك غير لما تعرفي إني كنت بحبك من قبل حتى ما تسكني في العمارة معايا.

– إيه!

– أيوه، كنت أعرفك من أيام ما كنتِ مخطوبة وكنت بشوفك دايمًا في الكافيه اللي بتحبي تروحي فيه جنب الشغل، أقولك بتطلبي إيه؟ أقولك بتحبي تاكلي إيه؟ أقولك بتحبي لون إيه؟

– إزاي عمري ما خدت بالي منك!

– شفتي إزاي الحب حواليكِ دايمًا وبتدوري عليه في الجهة الغلط؟

– إنت مستوعب إنت بتقول إيه؟

– أيوه، مستوعب.. إنتِ اللي مش مستوعبة لسه..

- إيه اللي إنت عايزني أستوعبه؟

- إني الحب اللي نفسك تعيشي جواه.

- لأ..

- أقولك حاجة!؟ قلبي بيتقطع كل ما بسمع خناقاتك مع يوسف! ببقى نفسي أرن الجرس عليكم وقتها أضربه وآخدك في حضني أطمنك..

بدأت عيني تنهمر بدموعها فأردف قائلًا:

- في اليوم اللي ركبتِ فيه معايا الأسانسير ما بقتش مصدق نفسي! عشان عارف إنك ما بتحبيش وبتخافي من ركوب الأسانسيرات ولما عطل ولقيتك بيغمى عليكِ فاضطريت أسندك كنت حاسس إني ملكت العالم كله وانتِ في حضني..

- بس كفاية..

- لا، لازم تحسي بكل حاجة جوايا، عشان دي فرصة كنت عايش أحلم بيها طول الوقت...

- مش عايزة أعرف حاجة..

- لما عرفت إنك هتتجوزي يوسف و بقيتِ جارتي، لعنت الحظ ألف مرة! إزاي هو يبقى معاكِ ومش مقدر قيمتك! إزاي دايمًا بيخليكِ تعبانة وعايشة في حزن...

تحديته قائلة:

- يوسف أكتر بني آدم من أقل حاجة بيعرف إزاي يفرحني..

- بس نادر أما بيعمل كده..

- عشان إنت رافض تشوفه كويس! عايزه يكون بصورة معينة عشان غرض جواك.

- أنا مش عايز! دي الحقيقة اللي انتِ مش مؤمنة بيها...

- لا دي حقيقة مزيفة..

- طيب بلاش، فاكرة يوم عيد ميلادك لما دخلتِ المكتب ولقيتيه مليان بلالين حمرا وهدية كبيرة، تقدري تقوليلي هو بقى عملك إيه يومها؟!

- مش بالهدايا!

- أكيد مش بالهدايا، بس ما كانش فاكر يوم عيد ميلادك، لولا إنك انتِ اللي فكرتيه..

- عشان يوسف كان مشغول في إعداد برنامج جديد وكان مسحول فيه وكان...

قاطعني بحِدّة:

- مهما كان مشغول! يوم زيّ ده مفروض ما يتنسيش.. بلاش، كام مرة كنتِ بتبقي فيها تعبانة نفسيًا وتلاقيني أنا اللي جنبك مش هو!؟

- إنت قاصد ده، قاصد تثبت ليّا وليك إن يوسف غلط! بس ناسي إني مراته هو مش مراتك إنت!

- مستعد أعمل أي حاجة عشان تبقي مراتي أنا!

- أنا مش خاينة وانت مصمم تخليني أبقى كده!

- لا إنتِ مش كده، أنا عارف إنك نضيفة هو بس الوقت اللي خلاني أعرفك متأخر وهو يسبقني! لكن أنا متأكد لو كنتِ عرفتيني قبله...

قاطعته باحتدام:

- هششش مش عايزة أسمع كلام تاني وأنا مجنونة وغبية إني وافقت آجي أشوفك وأسمعك!

أنا بس كنت عايزة أعرف إنت مين!

- عشان عايزاني... إنتِ بتقاوحي نفسك وقلبك يا آسيا!

- أنا همشي من هنا، وهعتبر إني ما سمعتش حاجة وانت هتعتبر نفسك ما قُلتش أي حاجة من الكلام المتخلف اللي قلته ده وهتنساني وتبعد عن طريقي وحياتي..

- وهترمي الحب اللي جه بين إيديكِ؟

- همه الحب الحقيقي هو يوسف بالنسبة ليّا.

- وجيتي ليه طالما حبك يوسف؟

- إنت صح! أنا غلطت وعشان كده همشي وهرمي اليوم الأسود ده كله ورا ضهري.

- لا إنتِ عملتِ الصح إنك جيتِ هنا، أنا المرسى اللي توهانك بيدوّر عليه..

- إنت الموت اللي هيسرقني من كل حاجة حلوة..

- يعني كل ذنبي إني بحبك!

- أنا ما أعرفش حتى إنت مين عشان تحبني!

- أنا واحد مالوش نصيب ولا حظ في الحب! وجيتِ انتِ الوحيدة كسرتِ القاعدة اللي كان عايش بيها!

- إبعد عني وعن حياتي..

- تفتكري هقدر؟

كدت أجيبه لولا أن يوسف هاتفني، أجبته بخوف وأنا أبكي:

- أيوه يا يوسف..

- مالك حبيبتي، معلش كان عندي اجتماع.

- إنت فين؟

- أنا مروّح آهو..

- طيب تعالى بسرعة، أنا كمان هروّح آهو، أنا محتاجة لك أوي.

- ماشي حبيبتي جاي بس قوليلي مالك؟

- مش هينفع في التليفون..

أغلقت الاتصال وهممت أن أمشي فأمسكني سامو بقوة وقال:

– خليكِ معايا أنا..

– وسع كده، إنت أكيد اتجننت.. قلتلك ابعد عن حياتي، أنا واحدة بتعشق جوزها ومش شايفة غيره...

ثم تركته وركضت إلى منزلي وأنا أبكي وأسب نفسي ألف مرة، وأحاسب نفسي حساب الملكين! كيف تهاوى بي ضعفي إلى الحضيض؟! كيف قبلت الهوان! آه من النفس الأمارة بالسوء! ماذا فعلتِ في نفسك يا آسيا؟! كيف تركتِ ذاتك تقودك إلى مذبحة الندم؟ قابلي رياح الألم التي ستأتي جراء فتحك لأبواب الشر!!!

****

تركتني كجرو أجرب في قارعة الطريق وحدي! قررت اليوم أن أظهر لها، يكفي ما أضعته من مراقبة لها في صمت.. حدسي قال بأنها تحتاج لي وهذا حقًا ما شعرته من خلال ذبذبات جسدها الذي كان يرتجف حين لامسته بأوصالي.. تهمس بحب يوسف ألف مرة في الثانية وكأنها تؤكد لنفسها معلومة.. هي تحتاجني أنا وليس هو.. أنا أحق بها منه.. هو لا يدرك قيمتها ولا يدرك كيف من الممكن أن يفني الواحد عمره كله من أجل ابتسامة مشرقة من عينيها! هو أناني جشع يبحث عن ذاته في عمله

ويهملها! هو السبب في أن يترك فجوات لأدخل أنا لها.. أما أنا سأحاوطها بهيامي، لن أجعلها تنظر للحب بحسرة.. لن أترك لها الوقت لتضيعه هنا وهناك، لن أترك الخصام يعبث في مسارات حبها.. سأغلفها داخل أحضاني.. من يمتلك مثلها لا بُد أن يقدس عظمتها! مغفل يوسف، لديه نعمة كبيرة يغفل عنها.. يتركها بالساعات ولا يقدِّر احتياجاتها كامرأة فيترك الباب لأمثالي ليدخلوا إليها! إن كنت مكانه تالله لأخضرم نفسي من أجلها وحدها.. رفضها أعادني إلى الماضي من جديد! جعلني أنظر لسوء قسمتي ونصيبي الشليل.. هاتفت مروة وأنا بي غصة:

- إنتِ فين؟

- أنا في البيت..

- أنا جاي.

- مالك يا بيبي، صوتك مخنوق أوي.

- محتاج أعيط ومش لاقي حضن ممكن أعيط عنده بسهولة غيرك.

- تعالى بسرعة يا سامو، قلقتني عليك.

لا أعلم كيف قدت السيارة، ولكن حمداً للّه بأني وصلت لمروة بسلام، قفزت على الدرج سريعًا لأصل لها وما إن فتحت الباب حتى احتضنتها وبكيت.. بكيت كأني لم أبكِ أبداً طيلة حياتي! بكيت مثلما بكيت حين بُترت يدي اليسرى وأصبحت بلا يد، بكيت عجزي كرجلٍ وحيدٍ يعامَل وكأنه مخاط لزج تشمئز منه حبيبته وتركله بقسوة خارج أنفها!

- أول مرة أشوفك بتعيط كده!

- يمكن عشان حبيت!

بلعت مروة غصتها وابتسمت بهدوء:

- يا بختها..

- مش حاسة بيَّا!

- ليه؟

- عشان متجوزة!

- يا نهار اسود! إوعى يا سامو! إوعى تحب حد قلبه مع حد تاني.. اسألني أنا! أنا حكيت لك عن اللي حصلي واللي خلاني أتحول وأبقى كده!

- ياريت الحب بإيدينا.

- ولو كان بإيدينا كنا هنختار برضو الذل! حاكم إحنا البشر ندوّر على الحزن ونشمه ولو على بعد ألف ميل ونجري ليه بعزمنا كله..

مسحت دموعي وجلست أتأملها ثم قلت:

- أنا عارف إنك حبتيني، بس كنت محتاج أجيلك! أنا بعتبرك صديقتي، أنا وحيد وما عنديش ليا حد.. حتى أهلي مش عايز أزورهم! أنا غريب وسطهم.. بس غصب عني جيت وحكيت ليكِ عذاب حبي من واحدة تانية مش انتِ..

- إنت كنت صريح من الأول معايا إن مافيش حب بينا.. ما خدعتنيش ولا جريت تلف عليّا.

- بقالي سنتين بقاوم حبها، بس من ساعة ما جم سكنوا جديد في العمارة وأنا ما بقتش قادر .

- هي جارتك كمان!

- أيوه..

- يالهوي عليك! ومستحمل إزاي كل ده؟!

- يمكن عشان بحبها!

- وبتشوفها مع جوزها طبعًا؟

– كل يوم وكل ثانية! صورتها معاه ما بتفارقش خيالي أبداً..

– حرام عليك، اللي بتعمله ده.. أحسن حل ليك، تسافر.. تيجي نسافر المرة دي سوا؟

– مشروعي الجديد لسه ما خلصش وما ينفعش أسافر..

– ليه هو مش انت رّحالة زي ما بتقول؟ تعالى نسافرلنا إسبوع ولّا حاجة.

– وهيفيد بإيه السفر وحبها مرسوم جُوّه عيني وموشوم على قلبي! لو لفيت بلاد العالم كله في كل مَعلّم وجوة كل حضارة هلاقي جزء منها..

ابتسمت مجدداً لي بهدوء وقالت:

– أول مرة أشوفك بتحكي عن واحدة كده... أنا كنت فاكرة إن قلبك مات بعد قصتك الأولانية اللي لحد دلوقتي عمرك ما حكيت عنها..

– ولا هحكي، عشان بسبب القصة دي أنا ما بقتش أنا واتبدلت ألف مرة..

– نفسي أعرف مرساك فين..

- ماليش مرسى...اللي زيي مرساه الوجع!

تقتربت منّي واحتضنتي بشوق وقوة وهمست في أذني:

- سلامتك من الوجع..

قلت لها والغصة تذبحني ودموع تسفك بكل رجولتي بعرض الحائط:

- هي وجعي!

- بعد الشر عليك منها..

- خليني أنام النهارده معاكِ هنا، مش عايز أروّح هناك! حاسس إني هتجنن وممكن أروح أخطفها من جوزها بالعافية..

- إنت مجنون!

- خليني عشان خاطري هنا..

- أكيد مش هسيبك تنزل وانت في الحالة دي..

أغمضت عيني قليلًا وإذ برسالة تأتيني منها «لو بتحبني بجد بليز إوعى تأذيني»

نعم أنا كنت بالسابق حقيرًا ومؤذيًا ولكن معكِ يا جميلتي لا يمكنني إيذاءك! مثلك أبكي حظي لخسارته وأموت فداء من أجلك رغم التأوه،البأس، الضياع، التشتت والوجع!

****

ساحر الكتب

(٢١)

«خالد، إليانا»

ذهبتُ إلى إليانا حينما علمت بحملها وهددتها بأني سآخذ الطفل في أحضاني فصحوت اليوم التالي على خبر محاولة انتحارها وتم إجهاض الجنين بسبب انتحارها فطالبت الشرطة بالقبض عليها معللًا بأنها يجب أن تبقى في مشفى للأمراض النفسية وقدمت كل الأوراق التي تثبت ذلك.. لم يتمالك صقر ما حدث وظل يحمل نفسه المسئولية، ثم جاء يوما وطلب منها الرحيل.

– أنا مش هقدر أكمل معاكِ يا إليانا!

– ليه؟

– لأنك بقيتِ خطر على نفسك وعلى اللي حواليكِ.

– ولّا لقيت حب تاني يعوضك؟!

– اللي زيي وزيّك قلوبنا اتعودت على السواد والوحدة! بنحب نعيش في الضلمة، لما بنطلع نحاول نعيش في النور بنعك الدنيا..

– بس أنا بعت كل حاجة عشان أبقى معاك!

- وبعتي البيبي اللي في بطنك! واللي يبيع إبنه يبقى ما يؤتمنش على حياة أبداً..

ثم تركها تغرق في بحر ذهولها وصدمتها.. أما أنا عدت مجدداً لأصدقاء الماضي، عدت إلى الحياة بعدما كنت في عداد الأموات، عدت أقابل كل من ابتعدت عنهم من أجل إنسانة غدارة لا تقدر قيمة التضحية والحب.. قابلتني سمر في أحد المطاعم بناء على رغبتي واعتذرت لها مجدداً عما فعلته إليانا في حقها..

- أنا آسف بجد على اللي عملته إليانا قبل كده في حقك.

- ولا يهمك، اللي حصل حصل خلاص..

- أنا مبسوط إن رجعت شفتك وشفتكم تاني.

- مش عارفة أقولك مبروك وكفارة إنك بقيت حر من السجن اللي كنت ساجن نفسك فيه بعد ما طلقت إليانا ولا أقولك معلش وماتزعلش!

- قولي اللي نفسك فيه.

نظرت لي بلمعة وبابتسامة رقيقة:

- لو على اللي نفسي فيه، فأنا نفسي في حاجات كتير بس يمكن مش دلوقتي وقتها

- أومال إمتى وقتها؟

- لما تخف من إليانا..

ابتسمت لها بهدوءٍ:

- هتقدري تصبري كل ده؟

- اللي خلاني أصبر السنين اللي فاتت يخليني أصبر تاني، مش يمكن لعله خير..

بابتسامة راضية:

- أكيد لعله خير.

****

لن أتحدث عن الفقد.. فالفقد لهؤلاء الذين فقدوا عزيزاً، أو أحد ذويهم.. الفقد لذلك الرجل الذي رحل بعيداً عن وطنه مضطراً.. هو ذلك الشعور الذي يخالج فتاة ليل عن نفسها التي ضاعت.. الفقد قد يشعر به طفلٌ تاه بعيداً عن عين والدته أو والده.. قد يفترس مشتاق يعاني لوعة الشوق.. قد يزأر في حداد أنثى مكلومة على فارسها الذي استشهد

في الحرب.. الفقد قد يعريهم.. قد ينتابك «أنت»، قد ينتابهم هم.. أما أنا فجردت من كل شيء! فماذا هذا الشعور الذي يحرقني كل ليلة؟ أمِثلي قد يشعر بالفقد؟ أنا بحرت بحوره أميالًا أميالًا.. أنا الآن في وحل خطئي .. أنا بترت كل ما يجعلني مثلكم! إذاً ما هذا الذي يأتيني كخفاش يسطو على أحلامي؟! ما هذا الشعور الذي يوقظني كل ليلة أرتعد وأئن من لهيبه؟ من سقيعه في بعض الأمسيات؟ ما هذا الذي يطرق بابي كعجوز شمطاء تريد قتلي؟ أنا حرقت ودمرت كل ما قد يأخذه مني الفقد! فماذا يريد الآن؟ ما هذا الاجتياح الذي يعربدني في منتصف الليل كل ليلة؟ وما بال هذا القلب الذي دبّت فيه المشاعر فجأة؟ كنت جالسة في غرفتي في المصحة النفسية وحيدة، كنت أنظر إلى الغرفة بحسرة وألم! أنا طردت نفسي من الجنة! والآن أبكيها وأنا في وسط الجحيم.. الآن دقت الحسرة ساعتها تعلن الحرب عليّ.. صرخت أنادي الممرضات فركضوا سريعًا لي.. نظرت لهم بخوف:

- عايزة خالد..

- حضرتك إحنا كلمناه كذا مرة وطلبناه يجي وهو رافض.

صرخت كالمجنونة:

- يعني إيه رافض! هاتيلي التليفون أنا أكلمه.

- حضرتك ممنوع إنك تتكلمي في التليفونات..

- إنتِ مجنونة؟! إنتِ بتقوليلي أنا ممنوع!

وشرعت مجدداً أصرخ بجنون، كنت محاصرة بين ذنوبي وبين ما فعلته في خالد! الآن أنا أُرجم بنار الفراق لما فعلته سابقًا فيه.. منحوني إبرة مهدئة ونمت وأنا أهذي قائلة:

- هاتوا لي خالد!

صحوت بعد فترة، لأجد خالد يجلس أمامي، نهضت بلهفة أقول:

- خالد، قولهم خلاص، إني ندمانة، عشان يخرجوني.. أنا آسفة يا خالد.

- إنتِ ليه فاكرة إن أنا اللي مقعدك دلوقتي! إنتِ بتخضعي لعلاج يا إليانا والدكتور لوحده هو اللي يؤمر بخروجك أو لا...

- خالد أنا عارفة إنك بتنتقم فيَّا، بس صدقني أنا آسفة...

- أنا اللي آسف يا إليانا لأن مبقاش في قدرتي إني أنقذك زي زمان.. أرجوكِ أنا جيت لما لقيتهم بيتصلوا بيّا كتير وبيقولوا لي على اللي حصل.. بس ارحمي نفسك وكفاية لحد كده.. اللي بيني وبينك انتهى خلاص.. من فضلك ماتخليش حد يتصل بيا تاني عشان آجي أشوفك.. لأن دي آخر مرة ولازم تفهمي ده..

تركني مجدداً، هو على حق! كنت دوماً وحدي وسأكمل الطريق وحدي...

****

«ريم، صفوت»

حاول صفوت كثيرًا أن يجعلني أتراجع عن قرار الانفصال ولكن لا جدوى من العودة! لا حياة مع رجل خائن.. لن أستطيع النوم إذا قبلت بالعودة! سأشعر بخيانته لي حتى في الحلم! الخيانة ليست خيانة مشاعر فقط! إنما هي خيانة سنين مرت في خدمته لم يكترث لها! هي خيانة ثقة رغم الشكوك منحتها له، هي خيانة مشاعر نبتت بين أحضانه واقتلع ثمارها وألقاها في عرض البحر دون أن يهتم.. لماذا أعود وكيف أعود؟ الآن علمت بأن حقًا عليّ أن ألملم شتاتي وقهري ووجعي وأن أرحل

- أنا اللي آسف يا إليانا لأن مبقاش في قدرتي إني أنقذك زي زمان.. أرجوكِ أنا جيت لما لقيتهم بيتصلوا بيّا كتير وبيقولوا لي على اللي حصل.. بس ارحمي نفسك وكفاية لحد كده.. اللي بيني وبينك انتهى خلاص.. من فضلك ماتخليش حد يتصل بيا تاني عشان آجي أشوفك.. لأن دي آخر مرة ولازم تفهمي ده..

تركني مجدداً، هو على حق! كنت دوماً وحدي وسأكمل الطريق وحدي...

****

«ريم، صفوت»

حاول صفوت كثيرًا أن يجعلني أتراجع عن قرار الانفصال ولكن لا جدوى من العودة! لا حياة مع رجل خائن.. لن أستطيع النوم إذا قبلت بالعودة! سأشعر بخيانته لي حتى في الحلم! الخيانة ليست خيانة مشاعر فقط! إنما هي خيانة سنين مرت في خدمته لم يكترث لها! هي خيانة ثقة رغم الشكوك منحتها له، هي خيانة مشاعر نبتت بين أحضانه واقتلع ثمارها وألقاها في عرض البحر دون أن يهتم.. لماذا أعود وكيف أعود؟ الآن علمت بأن حقًا عليّ أن ألملم شتاتي وقهري ووجعي وأن أرحل

بعيداً عنه وعن كل شيء يبقيني مندثرة تحت رماد العذاب.. اتصل بي وقال:

– صاحب البيت سألني عن الشقة هل هنمدّ عقدها سنة كمان ولّا...

قاطعته باشمئزاز:

– لأ..

– مافيش أمل تسامحيني؟

– أنا قُلتلك يا صفوت، الكلام ده تقوله لو كان الموضوع بسيط، لو كنت خدت مني فلوس الجمعية وضيعتها! لو كنت رميت الأكل اللي تعبت فيه عشانك ودلقته في الزبالة!

– بس أنا لسه بحبك.

– حبك مش كفاية! حبك شر..

– ياه للدرجة دي؟

– وأكتر كمان..

– طيب تحبي أمد عقد الشقة ليكِ..

- لا، أنا كرهت شقة جاردن سيتي دي وكرهت كل حاجة تتعلق بيك وكل حاجة ممكن تفكرني بيك.. أنا محتاجة جداً أبتدي صفحة جديدة مع نفسي..

أجابني بصوت يشوبه سقيع الفراق:

- ربنا يوفقك يا ريم وأنا آسف على كل حاجة عملتها في حقك! وآسف إني ما قدّرتش جوهرة كانت معايا ورميتها للتهلكة بإيدي..

- شكراً.. مع السلامة.

لم أنتظر سلامه وأغلقت الهاتف سريعاً قبل أن يسمع صوت بكائي.. اليوم سأبتدئ صفحة جديدة من دون حب أفنيت عمري بداخله! الآن علمت بأن الاختيار كان أصعب بكثير من الانتظار! الآن علمت أن الحياة غير منصفة وليس كل ما حلمنا به نجده! لم أدرِ حتى الآن مَن كان يرسل لي بتلك الرسائل التي كانت بمثابة نجدة لي من هياكل الأوهام المرعبة ولكن لا تسعني كلمات شكر العالم كله ولن توفيني عبارات الامتنان لأقولها له.. شكراً لك يا مَن كنت من لأنك بعثتني لحياة نضيفة من جديد، حياة خالية من كل المشاعر المزيفة.. حملت حقيبتي وودعت آخر شقة شهدت آخر أيامي مع صفوت وسلمت المفتاح لصاحبها وعدت إلى منزل أهلي المهجور بعد وفاتهم.. قررت أن أبحث عن

عمل بشهادتي الجامعية التي كنت نسيت أمرها.. لا بُد أن أقف مجدداً في حياتي.. ما حدث ما هو إلا عقبة تجعلني أطوي صفحة غارقة في وحلِ الكذب وأفتح صفحة بيضاء جديدة سأعاهد نفسي بأن لا يكون فيها مجال للشك ولا للخيبة ولا للظنون ولا مجال لقلوبٍ عفنة تتغذى على العفن!

****

«آسيا، يوسف»

طلبت من صديقاتي جميعهن أن يجتمعن في أحد المطاعم.. كان منظري يفزع كل من يراه! شعر مبعثر ووجه أصفر ونحيل وثياب رثة! وكأنني شحاذة أو فتاة تحيا على قارعة الطريق.. حين وصلت لصديقاتي فزعوا من هول منظري فقالت آية على الفور:

- إيه ده!؟ في إيه يا آسيا؟!

أخرجت علبة سجائر من حقيبتي وكانت أول مرة أدخن فيها وبدأت أدخن بشراهة، رفعت فجر حاجبها وسألتني:

- إيه ده؟! من إمتى التقليعة دي؟!

نظرت لهم غالية ورجوتهم قائلة:

– اهدوا عليها يا جماعة..

فنظرت لسارة وقلت لها بوهنٍ:

– مش عايزة تقولي حاجة انتِ كمان؟

– لا عم بسمعك! شو صاير معك؟

– قابلت الولد اللي كان بيبعتلي دايمًا ويكلمني.

ذعرت غالية وقالت:

– يا نهار إسود! حصل حاجة؟ عمل حاجة وحشة فيكِ؟

بكيت وأنا أموء رأسي بنفي وقلت:

– لا بس فضل يقول إنه عايز يتجوزني وكان بيحاول يطمني، بس أنا كنت خايفة وبترعش وكنت ببعد عنه وهو كان بيحاول يقرب مني ويحاول يفهمني إنه بيحبني! وإن يوسف مش مهتم بيّا!

قالت آية بغضبٍ:

- لا يا آسيا، هو عمره ما حبك أكتر من يوسف! هو موهوم وبيحاول يوهمك عشان يوقع بينك وبين يوسف..

هزت فجر رأسها بالموافقة وقالت:

- أيوه، هو اللي زي ده عمره ما يعرف غير الهوس والجنون! إوعي عقيدتك في يوسف تتهز لمجرد إن يوسف أهملك شوية! أنا آه ضد طريقة حب يوسف ليكِ لكن متأكدة من حبه ليكِ.. متأكدة إنه لو حس بضياعك منه هيتجنن وهيقلب الدنيا عشان ما تضيعيش منه!

بكيت بتعب أكثر:

- أنا من يوم ما قابلته وأنا تعبانة! ده طلع جاري..

صرخت غالية في صدمة:

- إيه! جارك!

- أيوه، إسمه سامو وهو نفسه صاحب الشقة اللي إحنا عايشين فيها وعايش في شقته اللي تحتينا وطلع مراقب كل تحركاتي..

نظرت لي سارة بشك وخوف:

- شو اسمه قلتِ؟

- ساموا!

- كيف شكله، اوصفيلي شكله؟

- هو عريض شوية من فوق وبيلبس نضارات طبية وعنده غمازة في خده اليمين.

فقاطعتني سارة بخوفٍ:

- وإيده اليسار منّا موجودة؟!

نظرت لها بقلقٍ وتوتر:

- عرفتِ إزاي؟!

- هلاء اللي بتحكي عنه هو صاحب خيّ!

نظرنا جميعنا لبعض في وجوم ثم قلت:

- إيه؟ يعني هو صاحب أخوكِ؟ أنا مش فاهمة

- لا شكله تعمد يصير رفيق خيّ حتى يعرف معلومات عنك يمكن؟!

- طب وهيعرف إزاي؟!

- شو بيعرفني! يمكن لهيك كان بيسألني كتير عنكم وكنت بحكي على إنه رفيق خيّ ما عمره إجى ببالي إنه بدو يوصل لشي من هالأسئلة!

فقالت فجر بهدوءٍ:

- وعشان كده عملك التأشيرة، عشان تكوني العين اللي بتوصّله أخبار وتحركات آسيا من غير ما تحسي ولا تعرفي ولا حتى هي تعرف! لأنه أكيد محتاج جاسوس ليه!

زفرت غالية بتعب:

- إيه المخ ده! إنتِ لازم تحكي يا آسيا ليوسف، خلاص ما ينفعش تخبي عليه أكتر من كده.

أيّدها الجميع في القرار وأردفت آية قائلة:

- بالظبط، لازم يعرف وبسرعة، عشان يتصرف وتسيبوا الشقة اللي انتم عايشين فيها دي.

- أنا خايفة يوسف يسيبني لما أحكيله!

ربتت سارة فوق ظهري وقالت:

- ما تخافي مش راح يصير شي، يوسف بيحبك يا هبلة، بس لازم تحكي معه إنك تغيري بيتكم.. ما

تعرفي التاني في شو عم بيفكر؟!

****

صحوت من نومي فجرًا ولم أجد آسيا بجانبي، قلقت عليها فذهبت أبحث عنها في أرجاء الشقة حتى وجدتها تجلس في الشرفة تبكي.. فزعت وركضت إليها:

- مالك حبيبتي؟

- مخنوقة أوي..

اقتربت منها وجعلتها تنام في براح حضني وربت فوق ظهرها بحنان وهمست لها:

- بس ششش إهدي حبيبتي واحكيلي مالك! حاسس بقالك يومين متغيرة

ظلت تبكي بوهن وضناء لدرجة أنها كانت تأخذ أنفاسها بصعوبة، جن قلقي عليها:

- مالك يا آسيا، في إيه؟

- أنا تعبانة أوي.

- من إيه؟

- أنا مش عايزة أعيش في الشقة دي، عشان خاطري لو بتحبني خلينا نروح نعيش في مكان تاني، مكان بعيد عن هنا..

- طب فهميني حصل إيه بس؟ ولو إني بحب جاردن سيتي.

- لا أنا بكرهها وبكره اليوم اللي جينا فيه هنا..

- طيب احكيلي بس؟

- هحكيلك بس لما تلاقي شقة غير شقة جاردن سيتي..

- حاضر يا حبيبتي، من بكرة هدوّر على شقة جديدة.

- تمام.

- إهدي انتِ بس واللي نفسك فيه هعمله..

- حاضر.

- تعالي يلا ننام.

****

خشيت أن أبوح ليوسف عمّا حدث بيني وبين ذاك الجار العجيب قبل أن ننتقل فيتشاجر معه يوسف ويحدث أمرٌ سيءٌ، ففضلت أن نبتعد أولًا ثم سأخبره بكل شيء.. في صباح اليوم التالي وبعدما ذهب يوسف إلى عمله رن هاتف المنزل وما إن أجبت حتى صدحت كلمات أغنية كاظم الساهرة قائلة:

أحبك جدًّا

وأعرف أن الطريق إلى المستحيل طويل

وأعرف أنك ست النساء

وليس لدي بديل

وأعرف أن زمان الحنين انتهى

ومات الكلام الجميل لست النساء

ماذا نقول أحبك جدًّا

أحبك جدًّا وأعرف أني أعيش بمنفى وأنتِ بمنفى

وبيني وبينك ريحٌ وغيمٌ وبرقٌ ورعدٌ وثلجٌ ونار

وأعرف أن الوصول لعينيك وهمٌ

وأعرف أن الوصول إليك انتحار

ويسعدني أن أمزق نفسي لأجلك أيتها الغالية

ولو خيروني لكررت حبك للمرة الثانية

لم أتمالك أعصابي فأخذت أصرخ قائلة:

- كفاية بقى، مش عايزة أسمع أي حاجة منك! لو بتحبني بجد زي ما بتقول إرحمني!

- مش قادر! حاولت أخرجك بَرّه تفكيري بس انتِ مسيطرة عليّا.

- إفهم بقى! أنا متجوزة ولو بتحبني زي ما بتقول كده، سيبني أعيش مع جوزي اللي بحبه.

- أنا كنت ماشي فاكر إن قلبي مات! بس لما شُفتك فهمت إنه لا!

- أنا ماليش دعوة بيك ولا بقلبك.. أنا ليّا دعوة بس إنك تبعد عني نهائي.

ثم سحبت سلك الهاتف وألقيت الهاتف بعيداً من غيظي.. لم أذهب إلى العمل وجعلت صديقاتي يعتذرن بالنيابة عني، لم أكن أشعر أنني في حالة

جيدة أبدًا.. كان عقلي مشوشًا وتفكيري حائرًا.. انتظرت عودة يوسف وما إن وصل:

- ها يا يوسف لقيت شقة تانية؟

- يا بنتي بدوّر لسه! أكيد مش هلاقيها في يوم وليلة.

زفرت بعصبية:

- استخدم معارفك يا أخي بس خلصني من هنا بسرعة! أنا ما بقتش قادرة أستحمل تعب الأعصاب ده!

- إنتِ بقيتِ عصبية أوي يا آسيا! ونفسي أفهم مالك وإيه اللي مغيرك؟

تفوهت بغضب:

- عايز تعرف مالي! عايزة أبعد عن المنطقة عشان فيه واحد بيحاول يستغل عدم اهتمامك بيَّا وبُعدك عني وتقضيتك طول الوقت في الشغل وعايزني أخونك! عايزني أحبه وأخونك! وبيبعتلي في مسجات وقرف وأنا بقاوم وبقاوم وبخّلي من حبك عزيمة ليَّا، بس تعبت من حرب الأعصاب دي!

وقف مذهولًا:

- وليه عمرك ما حكيتيلي!

- عشان في الأول كنت فاكرة إني لما أعمل بلوك لرقمه الموضوع هيخلص! لكن ده جاب رقم تاني وبدأ يتصل كمان هنا على الشقة لما تعب وزهق مني إني أرد عليه في الموبايل!

زمجر يوسف قائلًا:

- وإزاي تتصرفي لوحدك! وأنا فين من كل ده؟ وبعدين مين الحيوان ده اللي عارف إنك متجوزة ومصمم يتعرف عليكِ..

- عرفت ليه كنت خايفة أحكيلك! عشان هتتهور وتتعصب وتودي نفسك في ستين داهية!

نظر لي برعب وخطفني إلى أحضانه بقوة، كانت أنفاسه تتلاحق نفسًا تلو الآخر بسرعة شديدة جدًا ثم قال:

- عشان اترعبت من فكرة إن حد ياخدك مني! إترعبت من فكرة إني أصحى في يوم ما ألاقكيش جنبي..

- وأنا كنت تعبانة أوي وحاسة إني بتوه منك وحذرتك كتير.

أخذني عنوة مجدداً إلى أحضانه وشعرت بصوت بكائه يعلو مرة واحدة، وقف قلبي رعباً! هل يوسف يبكي حقًا؟ هل يبكي خوفًا من أن يفقدني؟ هل كان يخبئ كل هذا الحب في قلبه دون أن يريني إياه؟! لماذا يا يوسف انتظرت أن يدق الضياع باب حبنا لتنهض تبحث عني! لماذا كدت أن تضيعيني من بين أحضان الحياة؟ لماذا سكبت غرامنا وجلست تبكي على الغرام المسكوب!

- يوسف إنت بتعيط!

- عشان بحبك، عشان حسيته مؤذي هياخدك مني وإني السبب في إني خليتك تتعرضي ليه ولأذيته!

- الكلام ده تقوله لو أنا كنت حبيته، بس أنا ما حبتهوش! أنا بحبك إنت! ولما لقتني بغرق قُلتلك نعزل من هنا!

قبّلني بجنون وطبعَ قبلاته في كل مكان وكأن يريد أن يؤكد للعالم كله بأني ملكه عن طريق قُبلاته التي تغرِق ملامحي كلها، ثم مسح دموعه سريعًا وقال لي:

- قوليلي بسرعة مين هو، وأنا أروح أموّته ضرب.

– لا، وعشان كده مش هقولك غير لما نمشي من هنا.

هاج غضبًا وصرخ قائلًا:

–آسيا، بقولك قوليلي فورًا، بدل ما أعرفه أنا بطريقتي وصدقيني هصوّر قتيل وقتها.

حاولت أن أهدئ من ثورته وقلت له بخوف:

– واللّه العظيم هحكيلك كل حاجة، بس عشان خاطري اصبر بس لحد ما نعزل من هنا.

– قومي بينا، ندور على شقة جديدة دلوقت، مش هستنى الحيوان ده يئذيكِ أكتر من كده! وهعرف هو مين يا آسيا! هتقوليلي! بس مش دلوقت عشان حلفتيني بس بخاطرك.. المهم نبعد فورًا..

****

سمع يوسف كلامي هذه المرة واخترنا شقة طاقة المكان فيها صحيحة وبها تسعة أركان.. لم يفهم يوسف سابقًا فكرة أن طاقة المكان لها تأثيرها القوي على حياة الإنسان ولكن بعد ما عانيناه في شقة جاردن سيتي أيقن بأهمية هذا العلم..

- آهو يا ستي جبتلك شقة طاقتها مش عارف عاملة ازاي.

- ههههه، لسه برضو بتتريق على علم الطاقة؟

اقترب مني بحب وحملني برقة وهو متجه إلى الغرفة:

- هو أنا أقدر! ده أنا تحت أمر العلم ده وصاحبته اللي بتحب العِلم ده.

- بكاش أوي..

- بحبك يا آسيا، وكل ما أفتكر الحيوان اللي كنا ساكنين عنده وإزاي كان عايز ياخدك مني يبقى هاين عليَّا أروح أقتله لولا إنك حلفتيني على المصحف ووعدتك إن هرمي الموضوع ورا ضهري ومش هأذيه عشان ما آذيش نفسي..

- خلاص اللي حصل، حصل كانت غلطة مني ومنك وآهو إحنا الإتنين إتعلمنا اللي يفيدنا وإننا إزاي نحافظ على حياتنا سوا..

- طب غمضي عينك..

- آهو ..

وما إن فتحت عيني حتى وجدت الغرفة مزينة تزيينا رومانسيّ، نظرت له بحب:

- إنت اللي عملت ده؟

- ولوحدي، عشانك وعشان أحتفل معاكِ ببيتنا الجديد.

همست في أذنه:

- إنت البيت الوحيد اللي قلبي يعرفه!

- أقولك على مفاجأة كمان.

- إيه؟

- أنا يا ستي وبكل تواضع كنت بعمل دراسة لبرنامج بقالي فترة، البرنامج ده مذيعته هو انتِ والعبد للّه هو المخرج!

- إيه؟ بتتكلم بجد؟

- أيوه، أظن جه الوقت إن أبتدي أحققلك أحلامك اللي كنت بسعى لها.

غمرته بسعادة:

- إنت أصلًا كل أحلامي! أنا بعشقك أوي.

- وأنا دايب صبابة فيكِ.

****

(٢٢)

تركت لي الشقة ورحلَتْ، لابد أنها أخبرت زوجها عما حدث بيني وبينها ولكنها لم تفصح عن هويتي! فالزوج أنهى عقد الشقة معي بكل ودٍّ وسلام.. يبدو أن هذا هو نصيب «أسامة الكيلاني» أن يبقى وحيداً مشرداً، رحالة ينتقل من أرضٍ لأرضٍ دون أن يلمس السلام! حين خرجت من مشفى الأمراض النفسية كنت في حاجة لأن أغيّر كل شيء، أن أبتعد عن ماضٍ عرقل الكثير من أحلامي.. جلست أفكر في حال يدي المنكوبة وكيف أتقي شرها ولم أجد حلّاً سوى بترها! لم أتخلص بعدي من حركاتها المجنونة ولكنها على الأقل لا تستطيع الآن أن تؤذي أحداً ولا تؤذيني.. تركت منزل والديّ بعدما توفت أمي من حزنها عليّ وما آلت إليه أموري، واشتريت شقتين في مبنى يقع بجاردن سيتي.. وجعلت واحدة مسكناً لي والثانية معقل لتجارب الحياة! أردت أن أثبت لذاتي بأن ما عاد الحب يسكن قلوب البشر، جميعهم خائنون، منافقون، آثمون! فوضعت كاميرات تسجيل وخفيتها بشكل لا يمكن لأحد أن يكتشفه وبدأت أعلن عن تأجيري لتلك الشقة الملعونة وأعلمت الجميع بأن اسمي هو سامو! فقط صاحب المبنى كان يعلم اسمي الحقيقي، أما حارس العقار والجميع كلهم كانوا

يظنون بأن اسمي سامو! اسم بعيدٌ قليلًا عن هويتي الحقيقية!

خلعت رداء الماضي وألقيته أرضًا.. وحين أتوا المستأجرون كنت أتعلل بسفري حتى تتيح لي الفرصة لمراقبة حياتهم، والمستأجر الذي كنت أجد حياته غير مستقرة لسبب ما، أقبل به! رفضت الكثير من المستأجرين معللًا بذلك بأي سبب تافه.. فأجرت الشقة عام ٢٠١٦ لخالد وإليانا ثم أجّرتها عام ٢٠١٨ لمالك وليال، بعدهم أجّرها مني صفوت وريم عام ٢٠١٩ وأخيرًا كانت آسيا ويوسف عام ٢٠٢٠.. آسيا الوحيدة التي عافرت حتى أجعلها تسكن لدي! فأجرت سمسارًا يدلّ يوسف للشقة حين علمت بأمر بحثهم عن شقة للزواج! وعلى الرغم من أني كنت أموت من الغيرة ولكن أن تبقى تحت عيني أجمل بكثير.. كنت أراها وهي نائمة، وهي تأكل، وهي تعيش حياتها البسيطة وكان قلبي يرق ويموت من أجلها بسبب إهمال زوجها.. ويشاء القدر أنها تقلب كل موازييني! ميزان العدل انفجر في وجهي ضاحكًا! قال لي بكل سخرية «هل أردت أن تحطم نظرية الحب! إذا أحبِبْ أكثر قلب سيعطيك درسًا في الحب» وقد كان يا آسيا! لقد صغرت أمام نفسي كثيرًا ولكنك الوحيدة التي لن أستطيع أذيتها.. ملاك مثلك لا يطاوعني قلبي على الانتقام منها.. أنا أنتقم يا عزيزتي من هؤلاء الأشرار.. كنت أتلذذ

بخيانة صفوت لريم، فهذا يثبت لي عدم وجود الحب! وكنت أطير سعادة حين تركت إليانا خالد بعدما حرق حطب الحب من أجل أن تدفأ ثم تركته يموت جامداً من جليد الفراق.. أما مالك فحطم كل آمالي ولاذ بزوجته بعيداً عني وعن انتقامي! كان يحبها ومن أجل هذا تعنّى كثيراً من أجلها وحين شعر بخطر مراقبتي له، بحث عن والدها وحين وجده، أخذها وسافر إلى هناك.. آسيا يا عزيزتي لستُ رجلًا كريهًا ولا عابثًا بوجدانك ولكنك كنت بمثابة نقطة نقية نظفت قلبي من بئر الحرمان والانتقام اللذين غرق في وحلهما.. الآن ظهرت الحقيقة المرعبة في وجهي مجدداً! بقيت وحيداً! ما زالت مروة تظنني رجلًا جيداً، هي أيضًا علمتني أن الحياة بها أناس ظلموا باسم الحب! تعرفت عليها خصيصًا حين علمت من خلال مراقبتي لصفوت بأنه كان على علاقة بها، أقمت معها مشروعًا صغيراً من أجل أن تكون بمثابة النار التي تحرق بسعيرها صفوت على دناءته وخبث أخلاقه ولكن لم تفلح تلك الطريقة! لم تخلق نار الشك في قلب ريم، لذا عجلت من حدوث الخطة الأخرى وهي قيامي بإرسال جميع الصور لريم بعد فترة مراقبة طويلة لكل حركات صفوت وجمانة وتصويرهما في أماكن مختلفة.. أما سارة فكنت أحتاج لجاسوس مجهول من أصدقاء آسيا أحركه كيفما أرغب دون أن يدري، يرصد لي جميع تحركاتك يا طفلتي

الجميلة التي لا أستطيع مراقبتها وأنتِ بالخارج ونظرًا لصعوبة دخولي حياة أصدقائك فجر وغالية، اخترتُ سارة.. فكوني صديق أخيها سيجعلني أعرف جميع تحركاتها بكل سهولة ودون أن تشك فيّ بحجة أني أطمئن عليها في بلدٍ لأول مرة تأتي إليها.. ولم يكن الأمر صعبًا جدًّا.. سافرت لبنان وهناك قصدت أخاها وتعرفت عليه بحجة المشروع الذي كنت أديره ووطدت علاقتي معه حتى صرت صديقه ثم تعرفت عليها وانتهزت يومًا كانت تتحدث فيه عن أصدقائها المصريين حين علمت بأني مصري.. فعرضت على أخيها بالمساعدة فقال لي:

- ما بدنا نتعبك معنا..

- لا ولا تعب ولا حاجة، بالعكس آهو تيجي إنت كمان بالمرة معاها وأفسحكم في مصر.

- أنا ما راح تظبط معي هالسفرية، عندي شغل كتير هون.. خلها هي تسافر ترفه عن حالها شوي مع رفقاتها وما بوصيك عليّها..

- توصيني على سارة؟! ده انت توصي سارة عليّا..

وبالفعل قمت بالإجراءات وسافرت سارة إليكِ وكنت أتحجج بالاتصال بها ومحاولة معرفة خطواتها

لعلمي بأنها معك دائمًا.. كل شيء كان من الممكن أن يقربني منك كنت أستخدمه في القربِ إليكِ ولكن الآن هل سأسافر مجددًا؟ أم سأبحث عن ضحايا جدد يعززون من أفكاري؟ مريض؟ نعم أنا مريض من بعد زواجي بمايا! تلك الإنسانة التي لم أعثر على أي شيء يدلني عليها حتى الآن! هي التي أخرجت كل وحوش أفكاري.. سممتني ورحلت! حتى إنها تركت طارق! يا للعجب ظلت تخونني معه وحين جاءت الفرصة لتبقى معه، تركته ورحلت! ربما ذهبت تدثر طفلتها بعيدًا عني وعن الجميع! ليتني أعود مثلما كنت يا مايا؟! ليتني لم أعرفك وعشت حياتي كأي بشر بشكل طبيعيّ ولكن للقدر كلمة أخرى! وأبى القدر بعد فراقك أن ينصت لي ولمشاعري؟!

****

حين طلب مني أسامة أن أسافر معه لم أصدق! جاءني وهو يجر خيبته حزينًا:

- أنا هسافر يا مروة واحتمال المرة دي أطوّل..

- هتسافر فين؟

- مش عارف..

- طيب وأنا؟

- إنتِ الحاجة الوحيدة اللي فضلت ليّا بعد الحرب.

- أقولك على حاجة وماتزعلش مني؟

- ما بعرفش أزعل منك.

- الحرب دي إنت اللي كنت بتدوّر عليها يا سامو...

- أنا حكيتلك وهفضل أحكيلك، كنت إنسان بدوّر على السلام لحد ما باظت حيات.ي

- حياتك يا حبيبي باظت بسبب معتقداتك اللي حبست نفسك فيها فسلمت نفسك للكره!

- لو قُلتلك تيجي تسافري معايا وتسيبي كل حالك هتيجي؟

- هاجي، بس عايزني أسافر معاك بصفة إيه يا سامو؟ صديقة؟ حبيبة؟ دنيا عايز تهرب جواها؟

- كله! ينفع؟

- ينفع

تركني وذهب بعدما قررنا أن نسافر سويًا، هو يظن بأنه يعلم كل شيء، يظن بأن الحياة تقدم له كل ما يريد دومًا ولم يخطر على باله أنني كنت أعرف حقيقته من أول يوم! ففي ذاك اليوم جاءه اتصال طويلٌ فجأة مما اضطره لأن يترك حاسوبه الشخصي مفتوحًا أمامي، وبينما كنت أنتظره لمحت ملفًا يضعه على «ديسكتوب» حاسوبه باسم «شقة جاردن سيتي» فقادني فضولي لأن أفتح هذا الملف ووجدته مقسمًا لعدة ملفات ولمحت اسمي في إحداهم وعندما فتحت ملفي وجدت صورًا كثيرة تم إلتقاطها لي! وهنا أدركت بأن سامو يراقبني منذ زمن طويل، وعندما بحثت في بقية ملفاته علمت بأن اسمه الحقيقي «أسامة الكيلاني» واكتشفت أن شقته الثانية التي يؤجرها يضع بها كاميرات مراقبة وأجهزة تجسس، لم أكن في بداية الأمر أعرف لماذا ولكن عندما بحثت خلفة علمت بقصته من الجرائد والمجلات التي كانت تتحدث عنه في السابق وعما حدث له في الماضي، وقتها أدركت خطورة أسامة وقررت أن أبتعد قليلًا عنه.. كنت بحاجة لأن اهدأ وأخمد نيران الخوف المشتعلة داخل عقلي.. وبالفعل تحججت بسفري لأبتعد عنه قليلًا وليتسنى لي الوقت أن أفكر برويّة فيما سأفعل.. وبعد فترة أدركت الحقيقة المُرة، أنا غير قادرة على البُعد.. عدت إلى حياته مرة أخرى بل ولعبت معه نفس اللعبة التي كان يلعبها مع

الآخرين وأخذت أضع له ورقة دومًا مرسومًا بداخلها زوج من العيون علّه يدرك أن هناك أحدًا آخر يعرف سره! كنت أريده أن يفهم درسًا ألا وهو أنه ليس أذكى البشر وأن ألعابه قد ترتد يومًا فيه وأنه داين تُدان!

صحوت من حلقة الذكريات التي اجتاحتني، فعلت مثلما عاهدت نفسي، حبي لأسامة لن يطغى على قلبي، وافقت أن أعيش دور الضحية وقبلت أن يستخدمني كسلاح من أجل أن يخرب حياة صفوت وريم، أحببت هذا جدًّا لأنه في الوقت نفسه ينتقم من أجلي ومن أجل حبي لصفوت دون أن يدري.. إنه يقضي على صفوت وعلى حياته ويبرد نار كرهي واشمئزازي لهذا المستهتر الخائن.. وها أنا الآن أجلس معه بإحدى صالات السفر بمطار القاهرة، ذراعي يتأبط ذراعه، أريح رأسي بحُب فوق كتفه وأدعو من اللّه أن لا يجعلني أقع في حبه أكثر، حتى أستطيع العيش!

****

شئت أم أبيت فشلت تجاربي! تجارب شقة جاردن سيتي.. تلك التجارب التي كنت أريد أن أثبت من خلالها أن الحب نضب منذ القدم! لكن الحب ما زال يقبع هنا أو هناك! ولا ذنب للحب من قلوبٍ وَجلة عفنة، لا ذنب للحب من عقول خسيسة تلوث بحار

الحب! الحب أسمى من أن يحاصره أحدٌ، أسمى من أن يستغله مريضٌ مثلي.. الحب هو شعورٌ لا يمكنك صهره وقتما أردت ولا يمكنك ترويّضة إلى ما أردت! الحب أمنية لا يمكنك العبث بها، سحر طلاسمه تفتك بك إن حاولت مقاومته.. الحب هو اللغز الذي أردت أن ألعب فيه فلعب في أقداري..

أغلقت شقة جاردن سيتي وحملت حقيبتي واتجهت للمطار، سلمت على والدي الذي كما ذكرت سابقًا علاقتي به كادت تتآكل مع الزمن ثم رحلت بعيداً عنه في جفاء.. تجلس مروة بجانبي، هي وحدها التي تستطيع أن تتجرع معي كأس الحرمان دون أن تتذمر.. لا أعلم لماذا تذكرت دينا فجأة؟ دينا على الرغم من حبها لي ومحاولاتها الجمّة أن تحصل عليّ إلا أنها لم تتقن فنوني! أما مروة فهي تعلم مقدارها ومقدار مكانتها ولا تحاول أن تتخطاها ربما لهذا هي أجادت فنون العيش معي؟! لربما لهذا أرتاح في اللجوء إليها بضعفي ويأسي وفشلي؟ ربما.. أجلس في المطار أنتظر إعلان إقلاع رحلتي.. في أي بلدٍ سأقيم؟ لا أعلم؟ ولكني أغلب الظن سأقيم في بلاد العشق، علّ أجراس الهيام تَدبُ بالحياة داخل أوصالي، فأصبح إنسانًا بعيداً عن كل ما يقتل إنسانيتي فيني.

انتهت..

****

صدرَ للكاتبة:

- الحب ليث/ رواية

- كمانيليو/ رواية

- مرام القلب/ رواية

- كمانيليو ٢/ رواية

- لن أنسى/ رواية

للتواصل مع الكاتبة:

https://www.facebook.com/fatima.talal

دارك
للنشر والتوزيع

صدرَ للكاتبة:

– الحب ليث/ رواية

– كمانيليو/ رواية

– مرام القلب/ رواية

– كمانيليو ٢/ رواية

– لن أنسى/ رواية

للتواصل مع الكاتبة:

https://www.facebook.com/fatima.talal

دارك للنشر والتوزيع

صدرَ للكاتبة:

- الحب ليث/ رواية

- كمانيليو/ رواية

- مرام القلب/ رواية

- كمانيليو ٢/ رواية

- لن أنسى/ رواية

للتواصل مع الكاتبة:

https://www.facebook.com/fatima.talal

دارك
للنشر والتوزيع

شقة جاردن سيتي – صدر للكاتبة:

0224832669 - 01027251915
info@darak-egy.com
https://www.facebook.com/darak.publishing